

إمرأة خائفة

سلوى علوان

امرأة خائفة

رواية

سلوى علوان

وزارة الثقافة



سلسلة

حروف

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- امرأة خائفة
- سلوى علوان
- الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2014م

- تصميم الغلاف:

د. خالد سرور

- المراجعة اللغوية:

محمد منصور

- رقم الإيداع: ٨٢٥٨/ ٢٠١٤
- الترقيم الدولى: 978-977-718-707-7
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى: 116 شارع أمين سامي - قصر العيني

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت: 27947891 (داخلى: 180)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

29

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية لمبدعى مصر المتحققين

امــرأة خائفــة

إهــــداء

إلى هذه المرأة الوطن.. والمأوى.. والسلوى.. فى ليالى الغربة الموحشة..

إلى الباسمة دائمًا.. والكريمة دائمًا.. والمُحبة المتسامحة دائمًا.. والرائعة للأبد..

إلى التى عانت دومًا قسوة الزمان ومرارة الأيام، فلم يسعفها القدر بلحظة سعادة حتى فى أوقات أفراحها..

إلى من كانت تشع نورًا وسعادة وحياة أينما وُجدت..

إلى امرأة فاق جمالها حد النهاية.. حتى النهاية..

إلى أمى.. روحًا مُقدسة طاهرة..

عن قلوب أناس عشقوا الحب، لكنهم لم يجدوه.. ومنْ حكايات صبايا تاهت أمنياتهن فى زخم الحياة، وقصص شباب فقدوا معانى الرجولة فى صراعهم معها.. وفى ظل عولمة عمياء سرقت أجمل أحلامنا وأرقى قيمنا، ورسمت فى أعيننا حاضراً ملعونًا ومستقبلاً ممسوخًا.

عن مشاعر اغتيلت وذُبِحَت على أبواب مدينة ضجت بالشغب والبلطجة والعنف وتلونت بلون الدم.. عن أحلام أطفال صاروا اليوم رجالاً وقد كبروا فى أحضان شوارع قاسية وبلاط أرصفة لم يعرفوا غيرها من أهل.. ونساء لم يعرفن سوى حياة الخوف.

عن مصر التى تبدلت ملامحها، وتغيرت أحوالها، وعانت معالمها شتى ألوان الفساد والجهل والقسوة، وبكى ماضيها حاضرها ومستقبلها.. مصر التى خافت ولم تكن تخاف، مصر المحروسة التى

لم تعد محروسة بقاهرتها التى لم تعد قاهرة، عن أزقة وحوارٍ وأحياء وقرى لم يدخلها نور بعد.. عن وطن نشعر فيه بالغربة، بيعت أرضه وهواؤه وسماؤه لتجار الهوى والليل.. عن رعشة الجسد داخل الزنازين، عن قهرة الجبابرة للرجال وجلدة السجان للبرىء.. عن أفواه حق كُمِّمَتْ، وألسنة صدق قُطِّعت، وشرايين حياة بُترت.. عن الإنسان حينما يكون نصف حى ونصف ميت.. عن أشباه بشر وأنصاف رجال وبقايا مشاعر.. عن الأحلام الضائعة والوطن المذبوح حينما يتملكه الخوف، وحينما ترتبط مشاعرنا بالخوف، وأحلامنا بالخوف، وانتماءاتنا وغضبنا وثورتنا وتقاليدنا وعشقنا وعالمنا بالخوف.. تُرى كيف نكون وكيف يكون وجه الحياة؟ عن كل هذا، ومن كل هذا، أكتب روايتى.. امرأة خائفة!

سلوى علوان

القاهرة ٢٠١٠

جلسنا وبيننا طبق للزينة من الكريستال وُضِعَتْ به بضع وريقات ذابلة من الورد المجفف بلون قرمزى داكن، وحولنا انبعثت إضاءة خافتة لمصباح كلاسيكى وصوت هادئ لموسيقى «زامفير».
سألت: كيف تتحول الأحلام والأمنيات المستحيلة إلى صورة من بشر، صورة من لحم ودم، إلى شرايين تضخ النور الذى يبدد ظلام الحياة ويؤجج شوقها ويوقظ رغباتها؟ كيف أصبحت فجأة أمام الحلم الذى راودنى فى اليقظة والنوم، الحلم الذى طاردته بطول سنوات العمر؟ كيف تأتينى اليوم مثل ترانيم ليلة عيد القيامة أو كأذكار روحانية فى حضرة ليلة صوفية؟ كيف تحققت الرؤيا بلقائك.. فأتيت؟

فى تلك اللحظة تذكرت عبارة كتبها نزار قبانى: (الحب جرثومة تدخل دورتنا الدموية، فتجعلنا أجمل وأنضر).

وهـأنذا أعـانى بـفرحـة جرثـومـتى التى احتلت أوردتى وشـرايينى وجعلتنى أبدو مثل مراهقة تصيب وجهها حمى الخجل حينما تنظر إلى عينى من تحب، وحين تلامس يـداه يديـهـا لـلـمـرة الأولى ببراءة العذارى وأحلامهن الصغرى.

مـا كل هـذا الشـوق الذى تفجر داخلى إليك.. وأنت كالمارد أتيت تستنهض روحى وتشعل ثورتى وتبدد حزنى وتجدد أملى فى الحياة!

تـهزنى نبضـة تبدأ من القلب وتسير باتجاه المخ.. على عكس ما تعلمناه طوال عمر دراستنا من أن إشارات أجهزتنا جميعها تبدأ من المخ!

تـمـتـد النـبـضـة عبر الأوردة والشـرايين لـتضخ رغبـة مُلحَّة إلى خلاياى، تبشـر بصـحوة فـى هذا العمر البائس أخشى أن تكون فى واقعها صحوة موت، ووجدتنى فجأة فى حالة من الفرح الاستثنائى، والمتعة الاستثنائية، والعشق الاستثنائى، فى حالة متناقضة من الحكمة والجنون، من الألم والنشوة، من السعادة والشجن، حالة من الوعى واللاوعى.. حالة سببها أنت.

وإذا بالمارد الذى أتانى يتعاظم حجمه ووجوده، فيحيطنى أمانًا، ويغمرنى أنسًا ويملئونى نورًا، وشعرت بأن كل الناس -فيما عداك- أشـبـاح تـسير فوق الأرض، خيـالات بلا ملامح أو مـعـالم أو وجوه، بينما النبض البشرى الوحيد الذى أشعر به هو نبضك أنت، أنت المارد فى الحب، المارد فى القسوة والإيلام. وسألت: كيف تجرأت أحلامى الصغرى على التمرد ضدى لتخرج منى -رغمًا عنى- تعلن عن نفسـهـا وتطالب بحقها فى الوجود وبحقى فى الحياة؟ كيف

تجرأت أحلامي على صمتي وخوفي؟ وكيف سمحت لها بهذا التمرد العفوي المحفوف بالمخاطر والغارق في بحور الخوف؟ قبلك عشت مثل أرض شققها الجفاف فأصبحت بلا خير أو زرع أو أحلام، اليوم تحلق معي الأمنيات في فضاء الكون وتفرد ذراعيها بالحب للحياة، تزرعني أرضًا خصبة، وتبدرني مثل أحلام تناثرت فوق الكرة الأرضية، ثم تغرسني في سماء الدنيا كأبهى ألوان الطيف، وتنشدني كأعذب الأغنيات، وما كنت قبلك إلا بضع أوراق من لحم وأحبار من دم وُضِعَتْ في شهادة ميلاد كوثيقة رسمية لوجودي وبطاقة تحقيق هوية.

كيف يتبدل الإنسان هكذا ما بين عشية وضحاها.. ما بين يوم وليلة؟

كيف استطعت أن تفعل بي هذا؟ وكيف تجرأت أحلامي على التمرد لتعلن عن وجودها ووجودي؟

وسط هذه التساؤلات التي ملأتني جلسنا أنا وأنت وخوف من أن يعاودني شبح سنوات العمر الذي رحل ليمتص من رحيق شبابنا الحاضر ما تبقى منه، خوفٌ من شيبةٍ أصابت قلبي قبل الأوان فحالت دون ارتمائي بين ذراعيك حبًا وموتًا وحياة، دبت البرودة في جسدي و«همّدني» الصقيع، شعرت بدمائي تغلي وتفور، رجفة في أوردتي، أنفاسي، نبرة أحبال صوتي، شرايين جسدي، خلاياي، وأنسجتي جميعها ترتجف. ثم بدأت ملامح الأشياء أمامي تتلاشى، حتى ملامح وجهك صارت كخطوط هلامية رغم أنك الحقيقة الوحيدة التي فيها رغبت، اليوم تجلس أمامي وجهًا لوجه، تجسد الحلم

وتحقق الأمنية المستحيلة، أشعر بشهيقك وزفيرك، ورغم هذا، فأنا بالكاد أراك. فالخوف كاد يقتلنى، يحول بين كل ما هو بينى وبينك، تمنيت لو أن الزمان عاد لألف عام، فقط ألف عام للوراء أحياها معك، وهل تعنى الألف عام شيئًا فى عمر الزمن؟

تمنيت أن يمتد صوت موسيقى «زامفير» ليملأ الكون حولنا بمزيد من التوحد فيك، فأنت السماء والأرض والشمس والزرع والماء والهواء، الكون كله أراه اليوم فيك، فقط ما يبدد سعادتى هو خوفى من أن تنتهى تلك اللحظة فتغيب، ويغيب الكون عنى، أحلم الآن بأن يهدأ خوفى وتستكين مشاعرى، أن تنتظم أنفاسى الثائرة فى صدرى، يشتعل حُلمى، يتوهج نوراً فى خاطرى، فماذا لو منحنى الزمان فرصة وحيدة لخطوتين فقط أخطوهما بين يديك لرقصة «سلو».. نفسٌ هادئ بيننا.. بعض الأمان أعيشه فى عينيك.. أشياء صغيرة قد تعيد إلىَّ الحياة لو أسعفتنى بها الذاكرة فى الشيخوخة والكبر!

توهج صوتك دافئًا يحتوينى ويحتوى العالم من حولى:

– ما لك؟

فأجبت: خايفة.

– من إيه؟ أنت لا ترتكبين خطأ! نحن نتحدث، وهل هناك عيب فى أن يتحدث اثنان؟

وقتها وددت لو أفرغ إليك ما يجول بخاطرى.. بتاريخى.. خطيئتى التى تثقل كاهلى.. فقد عشت عمرى أتلقن درسًا واحدًا بأن مشاعر تحملها امرأة –مثل التى أحملها إليك– خطيئة كبرى،

فالعشق في عرف قبيلتي حرام.. جرم لا يمحوه إلا الموت، وفي أفضل الحالات هو أمر يلحق العار والهلاك بامرأةٍ لا تملك في الحياة سوى قلب ينبض داخل قفصها الصدري تَعلم الآن كيف يحب.

كم أتمنى أن أكتبك دون أن أضع محاذير لنفسي، دون أن تكون خلفيتي في كتابتك هي تلك الخطوط الحمراء التي تطاردني بطول سنوات عمري، والتي تحجب حقك وحقي في رؤيتنا معًا حتى لو كنا بضعة حروف وكلمات من حبر على ورق. أود أن أحكي لك عن تفاصيل جنوحي وتمردي وأوقات جنوني، عن رغبتي في أن أسير صبيحة كل يوم وعلى وجهي ابتسامة ود صادقة ألقي بها التحية على خلق الله دون أن تُفسر في عالمنا على أنها جنون أو خلاعة أو بلاهة، عن رغبتي في أن أرفع صوتي وأنا أغني للّه وللحب وللوطن دون أن يفتي لي أحد بأن صوتي عورة أو حرام.

أتمنى أن أخبرك بأني لطالما حلمت بأن أعشق وأضحك وأفرح وأحزن وأبكي وألعب وأحيا بملء مشاعري ووجودي. أن أعيش عمري وأواني ومراحل حياتي، وألا أموت في كل مرة قبل الأوان. إنها امرأةٌ أخرى تحاول التمرد على اليوم.. على صمتي واستسلامي، إنها تلك المرأة السجينة داخلي، والتي تمردت لبضعة أحداث وبضع لحظات، فقادت التظاهرات ضد الظلم وضد الفساد وضد الاحتلال وضد التعذيب وضد الموت في سجون الشرطة، إنها المرأة التي عافرت معي كثيرًا لتصرخ وتثور ضد القضايا الملفقة والكرامة المهدرة وأموال وثروات الوطن المنهوبة والمهربة، إنها السجينة نفسها التي تمردت ضد ارتفاع أسعار الفول والعدس

وشهداء أكل العيش، إنها أنا تلك المرأة التى حلمت بالهجرة خارج حدودى وخارج وطن أذوب من العشق فيه. إنها أنا الأخرى الحبيسة بين ضلوعى ولحمى وعظامى غارقة فى دموعى ودمى.

إنها أنا الأخرى التى تهفو إلى بعض من الحرية، فأتيت أنت لتستنهضها بكل هذه القوة والجبروت والرقة والقسوة والحب.

أود لو أحكى إليك عن أن حياتى ما كانت إلا سلسلة من الرحيل، وتفاصيل سفر فى درب طويل لم أخط فيه خطوة واحدة. وما كانت حياتى إلا رسالة مشوشة كُتبت بحروف لغة غير مفهومة، وقصة نُسجت بأوردة محمومة وذاكرةٍ مضطربة لامرأة غيرى هى فى النهاية.. أنا.

وددت لو أخبرك عن جدتى لأمى، تلك المرأة التى عاشت منذ ميلادها وحتى موتها تعانى مرارة الخوف، خوف أورثته لأمى فأورثتنى أمى إياه. وبعد أحداث كثيرة لسنوات طويلة قضيتها وجدت أن كل شىء عشته فى حياتى أوله وآخره خوف.

فى الميلاد خوف، وإلا لم نكن لنبكى لحظة مولدنا، وقت خروجنا أجنة من أرحام أمهاتنا، وما كان ليشتد بكاؤنا وصراخنا عند أول لقاء بالحياة. وعند أول شهيق وأول زفير وأول نظرة عين ولمسة يد. هو نفسه الخوف الذى يمتد منذ هذه اللحظة وحتى الموت، ففى الموت خوف من ثقل الذنوب وكثرة الخطايا ومواجهة أنفسنا بأعمالنا وأفعالنا. خوف من المجهول الذى ينتظرنا جميعًا بكل دياناتنا ومللنا وعقائدنا. إننا نخاف فى الهزيمة من شماتة الأعداء وقسوة القدر، وفى النجاح نخاف من الفشل وغدرة الزمن، وفى السفر نخاف من

الغربة ودروبها، وفى العودة نخاف من تغيير الأحوال والبشر، وفى المكسب نخاف من الخسارة، وفى الحب نخاف من الفقد والحرمان، وفى الكره خوف من دماره وتعاسته، وفى الوداع خوف من عدم اللقاء ومن وجع البعاد. إنه الخوف الذى يعربد فى حياتنا صباح مساء. إنه الخوف الذى حاول أن يلتهمنى وحاولت أن أقضى عليه فامتد بيننا العراك.

تقول أمى إنها عاشت طوال حياتها مقهورة بعد موت والدها، تركها ولم يكن عمرها عامين بين ستة من الأخوة والأخوات كانت هى أصغرهم سنًّا. قالت أمى:

«كنا مستورين، وكان اخواتى رجالة كبار، ورغم كده حسيت بالفقر واليتم والحوجة، كانت ستك غلبانة ومكسورة الجناح مالهاش رأى فى حاجة ولا تقدر تفتح بقها بكلمة، كانت بتخاف قوى من ولادها الرجالة، وخصوصاً الكبير: أصلهم كانوا بيزعقولها، وكان ممكن حد منهم يمد إيده عليها. الوحيد اللى كان بيحن عليها ابنها الوسطانى. كان أغلبهم وأقربهم ليها. ما كانش عندى إلا جلابية واحدة أغسلها وأستنى جنبها لما تنشف، كان ممكن أخويا يشترى لى واحدة تانية لكن كان بيستخسر فيًّا أنا وأمى، مراته كانت قادرة: بنت عمدة وقوية والقرش اللى معاه كان ليها، ما كنتش أقدر أطلب طلب حتى لو حتة حلاوة طحينية زى العيال اللى فى سنى. أما إخواتى البنات فكانوا كبار ومتجوزين. ماوعيتش حتى على يوم جوازهم. كتير كنت أنام من غير عشا أو حتى غدا: أصلى كنت بخاف أقول لهم إنى جعانة رغم إن -الحق يتقال- بيت أبويا طول

عمره بيت كرم، لكن مش عليَّ أنا وأمي.. علىَ الناس الأغراب.. لحدِّنا إحنا والخير ينقطع.. كانوا مبهدلنّي؛ يصحوني من الفجر أروح الغيط، أشيل قفة الجلَّة فوق دماغي وأنا بارتعش من البرد وأروح الزريبة أحلب البهايم وأقعد قدام الفرن أعجن العجين وأرص أقراص الجلَّة فوق سطح الدار وآخد المواعين أغسلها في الترعة أو على الترمبة وأطبخ على وابور الجاز وأغسل هدوم العيلة كلها كل يوم على إيدي. ما كانش عندنا بوتاجازات ولا غسالات بالكهرباء زي دلوقتي. كنت أفضل أدور زي النحلة طول اليوم من طلعة الفجر لحد أدان العشا. كنت أندلق بعدها زي التور المهدود من السعي في الساقية».

تبكي أمي بينما ترتد ذاكرتها للوراء تجتر عذابات سنواتها الماضية، وتستدعيَ الحنين للحظات طفولة بريئة حُرمت منها وأيام صبا لم تعشها.

"كنت بمشي في الشارع حافية من الدار للغيط، ماكانش هاين عليهم يشترولي شبشب، وأنا طول عمري صحتي على قدي مش حمل التعب ده، رغم اني كنت أحلى بنت في البلد، والناس كلهم كانوا بيحكوا عن بنت عبد الرحيم وجمال وحلاوة وبياض بنت عبد الرحيم، كانت ستك تبص ليَ وتتحسر عليَّ من كتر ما بتشوفني تعبانة عمالة أخدم الكبير والصغير وهي مش قادرة تتكلم ولا تقول لهم حرام عليكم.. ارحموها شوية.. كل يوم كنت أنام أنا وهي دمعتنا على خدنا وقهرنا في صدورنا.. اتقدم لي عرسان كتير من رجالة البلد ومن الكفور اللي جنبنا.. عرسان ياما.. لكن خالك كان دايماً

يقول: «لسه نصيبها مجالهاش» ما كانش عاوز يجوزنى فلاح يدوَّر على أرضى ويضمها لأرضه، ولما جه أبوكى اتقدم لى رحب بيه خالك لإنه ابن بندر مالهوش فى الفلاحة ولا هايهمه أرض ولا زرع.. يومها استلفت شبشب وجلابية مرات أخويا عشان أقابل بيهم حماتى، حتى الجلابية اللى أخذتها كانت قديمة.. هييه».

تنهيدة مشتعلة.. ألهبت صدر أمى التى عاودت حديثها بصوت محموم واهن: "فرحت إنى هاتجوز من مصر، وإنى هابعد عن البلد، عن أقراص الجلَّة والقعدة قدام الفرن فى عز الحر ومرواح الغيط فى عز الشتا وقت الفجر.. واتجوزت من غير ما افتح بقى بكلمة ولا أطلب طلب زى بقية البنات.. تصدقى إنى اتجوزت من غير ما يشترى لى «طشت غسيل»، والحكاية دى ستك أم أبوكى قالت لى عليها بعد الجواز.. عشت مع أبوكى وأنا خايفة، استحملت طبعه الصعب ومشاكله. عشت سنين أول ما اتجوزنا فى بيت أهله ماكنتش عاوزة أرجع للغُلب فى البلد تانى، عشت طول عمرى وأنا خايفة أحكى عن حياتى وعن قهرتى وحوجتى، خفت أحكى عن يتمى لأبوكى، خفت يذلنى بالحكاية دى.. وكل ما يكلمنى أقوله: أنا بنت عُمد وبنت أصل. أنا فعلاً بنت أصل وبنت عيلة. عمى شيخ البلد وعمى التانى عمدتها، والعمودية ماطلعتش طول عمرنا من بيتنا.

أبويا مات وماوعيتش على شكله. ماعرفش حتى ملامحه كانت إزاى. ده أنا حتى ماشفتش ليه صورة، حتى الورث اللى سابه ماعرفش عنه حاجة.. إخوالك الرجالة اتخانقوا مع بعض كل واحد عاوز ورثه؛ فيهم اللى أخده، وفيهم اللى لسه صابر. اتحرمنا من

ورثنا ليه! قالوا ورث العيلة مايطلعش بره.. ولما جه خالك يمضيني على ورق عشان يبقى الورث بورق رسمى أبوكى قاللى امضى وماتتكلميش لحسن يقولوا إنى طمعان فى ورثك. ومضيت. ومن يومها حتى شوال البطاطس اللى كانوا بيجيبوه كل سنة فى الموسم قطعوه، ولا حتى كيلو زبدة من خير البلد ومن خير أبويا.

تعود أمى للبكاء. وللصوت الواهن الحزين:

صحيح.. بعد الأم مافيش حنيّة، بعد ستك ما ماتت محدش بقى يسأل عنى من البلد، انقطعت الحليبة والرايبة على رأى المثل. لا أخ ولا أخت، كانوا وستك عايشة رايحين جايين علىّ، كل شوية توصيهم يسألوا عنى. دلوقتى ماعرفش عنهم حاجة من سنين؛ يمكن لو شفت عيل من عيالهم فى الشارع ما اعرفوش. يالله.. ربنا يخليكوا لىّ.. إنتوا أهلى وسندى، يا رب ما أشفش فيكم حاجة وحشة أبداً: ده أنا ماليش غيركم فى الدنيا".

فى هذه اللحظة أدركت أن الخوف إرث مثل الأمراض الوراثية؛ ينتقل عبر الجينات من جيل إلى جيل. فقد انتقل الخوف من جدتى إلى أمى ثم إلى جيناتى. الخوف إرث ورثته عن أمى وعن جدتى، وهو الإرث الشرعى الوحيد المسموح به لنساء عائلتى.

ذكريات كثيرة استعادتها ذاكرتى فى بضع لحظات من عمرى. من عمر هذا اليوم وتلك الساعة وهذه الدقائق المسروقة التى جمعتنا فى غفلة من الزمن.

عدت لأسأل نفسى: ماذا لو كانت لهفتك للقائى مجرد لهفة رجل للقاء امرأة يبحث فيها عن قصة جديدة وحكاية يجدد بها سكون

حياته ويبدد بها ملل الوقت وروتين السنوات؟ ماذا لو كنت تبحث فى علاقتك بى عن متعة جديدة بينما اشتقت أنا للحظة لقائك على امتداد حياتى، وجئت أبحث فيك عن معنى لوجودى وذاتى.. عن نبيل يقرؤنى وأكتبه.. يردد نفس مشاعرى وكلماتى، يبدد مخاوفى وينتزع منى أسوأ ذكرياتى.. نعم.. أسوأ ذكرياتى!

أسندت رأسى إلى وسادة كبرى خلفى لألقى إليها بعضًا من همى وأفرغ فوقها بعضًا من ألمى، ووجدتنى أرجئ تساؤلاتى إليك حينما عاودنى مشهد دوار العمدة الذى انقسم إلى نصفين.

كان نهارًا غائمًا، والسماء قاتمة: اكتست بلون رمادى داكن فى صبيحة صيف حار غابت عن شروقه الشمس لتلقى فى القلوب حالة من الحزن اللامبرر فى يوم مثل هذا اليوم الذى تحتفل فيه عائلة أمى بزواج اثنين من أبنائها.

داخل الدار جلست العروس فى ثوبها الأبيض تحيطها كثيرات من النسوة بملابسهن الريفية الزاهية المنقوشة بألوان الربيع، وفى حديقة الدار جلس رجال القرية الذين حضروا لمباركة الزواج وتقديم التهانى لأهل العروسين. إنه أول زفاف لأكبر اثنين من أبناء العائلة، أُطلِقَت الأعيرة النارية فى الهواء كما أُطلقت الزغاريد وتعالت ضحكات الرجال وأغنيات النساء.. «ييجى.. ييجى.. بس الوله ييجى.. ييجى عند دارنا، وادبح له دكرنا، وأشاور له ييجى.. بس الوله ييجى.. يا سى صالح يا بيه، يا عريس مستعجل ليه.. يا سكَّر على شربات، يا مدوخ كل البنات.. ياسى صالح يا بيه.. يا عريس مستعجل ليه».

وهكذا ظلت النساء تنتقل من أغنية إلى أخرى، وتتبادل الطبلة يد امرأة لأخرى، ومن صوت إلى صوت حتى انقلب الحال فجأة. ووسط الزحام وأكوام أجساد البشر شق أحدهم صفوف النساء وهو يلطم وجهه ويصرخ قائلاً:

- اخرسى يا مرة يا بنت الكلب انتى وهىّ؛ الراجل سايح فى دمه على الأرض بره!

- وقتها أيقنت صدق الصوت المجهول الذى ظل يهمس فى خاطرى منذ الصباح يخبرنى بأن أمراً بالغ السوء سيحدث، وكنت كلما نفضته عن سمعى عاودنى يهمس من جديد متحدياً أصوات الطبل وغناء النساء ومشاهد الفرح يصيب جسدى برعشة خوف، لا أدرى مغزى الصوت، ولا من أين أتى لى، فقط انتابتنى صدمة وذهول مثلى مثل كل الحاضرين.. وأكثر.

بدا المشهد مثل لوحة مجنونة لفنان تشكيلى أراد أن يجمع فى لوحته صورة مزدوجة متناقضة انقسمت إلى نصفين، جانب منها يحمل حزنًا وألمًا وموتًا ووجعًا، ونصفها الآخر لتفاصيل ليلة عُرس حية تنبض بالسعادة. لحظات مضت ما بين العويل والزغاريد. حقيقتان تشابكتا أمامى حد النهاية. لحظات مضت مثل عمر طويل حفرت معالم حدثها فى ذاكرتى للأبد.

كان عم العروس، وهو فى الوقت ذاته خال العريس، يوزع الحلوى على المدعوين فى حديقة الدار، وبينما كانت الأحصنة تتمايل وترقص على صوت الطبل والمزمار البلدى، وبعض الرجال يلعبون العصى، كان آخرون يطلقون رصاصاتهم للتحية، فانفلت عيار نارى من

بندقية أحدهم ليضل طريقه فى الهواء ويتجه نحو رأس عم العروس ليرديه قتيلاً. تسقط فوق جثمانه الحلوى التى لم يسعفه الجهل والعادات البالية من استكمال توزيعها.

بضع دقائق من عمر الزمن هاجت فيها الدنيا وتبدلت صورة الفرح بعد أن استطاع صوت الصراخ أن يخمد صوت الزغاريد ويفترس أغانى العُرس.

كنت صغيرة.. عشرة أعوام فقط كان عمرى حين التقطتنا يد إحدى السيدات وجمعتنا أنا وإخوتى وأقاربى فى مثل عمرى ووضعتنا داخل غرفة جانبية بالدور الأول، ثم أحكمت إغلاق الباب علينا من الخارج. داخل الغرفة شباك حديدى كبير يطل على حديقة الدار -مسرح الحدث- حيث الدماء ما زالت تسيل، حيث اختلط الرجال والنساء فى مشهد مأساوى باكٍ وموجع وحزين، حيث العروس التى لُطخ فستانها الأبيض بلون الطين، ولطمت خديها بأنامل ما زال يتعلق بها لون طلاء أظافرها الأحمر، وتبدلت فرحتها بالأنين.

كنت أراقب ما يحدث من وراء الشباك الكبير بغرفة حجزنا من خلف القضبان الحديدية الصدئة التى تشبثت بها أناملى فى خوف وأنا أرقب هذه الصورة المشوشة المرتبكة من خلف ملامح ذاكرتى.

من بيت العمدة الكائن فى العزبة إلى البلدة، حيث دار خالى «القتيل»، امتلأ الطريق الترابى الضيق بالنساء المتشحات بالسواد اللاتى مشين فى صفوف طويلة، وأمامهن سار الرجال المهمومون المحزونون، وحول أجسادهم جميعًا انبعث التراب الخانق الجاف

الذى خلا من رائحته الرطبة التى لطالما اشتممناها كلما سرنا عليه. وعلى جانبى الطريق انطفأت نضرة الزرع الأخضر، وبدت تلك المساحات الشاسعة من الزراعات الممتدة بلا نهاية وكأنها أرض جوفاء خاوية على عروشها.. وبدت سنابل القمح الذهبية كأعواد قش احترقت لتوها بالحزن.. وتعجبت.. كيف يتبدل لون الكون ما بين لحظة وأخرى من الأبيض إلى الأسود، من الحياة إلى الموت، كيف يجرؤ القدر على أن يبدل لون ثياب الفرح الناصعة البياض إلى كل هذا الكم من السواد الحالك، وهذا الحجم من الكآبة والحزن والألم والدمار النفسى، كيف يتحول نعيم الجنة فى لحظة واحدة فقط إلى جحيم حارق وخراب مميت؟

وقت طويل مضى وما زال بصرى معلقًا بالسماء، بتلك الغيوم الرمادية التى ظهرت فى يوم صيف شديد الحرارة، والتى تأبى أن ترحل. ما زال بصرى معلقًا بتلك الدموع المتحجرة تحت ثوب الحداد والصرخة المكتومة فى صدر جدتى وأمى. ما زلت أسمع صوت بكاء ملائكى يأتى من السماء، صوت صراخ الصغار المحتجزين معى داخل الغرفة الجانبية ذات الشباك الحديدى الصدئ، صوت غربان وحداءات كانت تحلق فى أشكال دائرية فوق رؤوسنا فى السماء.

ما زالت أنّات نساء القرية المنتحبات تتردد على ذاكرتى وكل منهن تهيم على وجهها بطول الطريق الترابى الضيق الجاف. كأن الصورة تعود «زووم» إلى رأسى.. أمام عينى من قاع ذاكرتى وأنا أقترب من بيت خالى الصريع، وأصوات النحيب تحيطه وتحيطنى قبل الوصول إليه بعشرات بل بمئات الأمتار. بضعة سلالم (سلاملك)

تبدأ من الشارع الواسع حتى حضن البيت انقض عليها لون الثياب السوداء الكثيفة فأخفى لون رخامها الأخضر تمامًا، وسط هذه الأجساد المتشحة بالحزن جلست امرأة تردد كلمات قاسية يشيب لها الولدان حين تستحضر مشهد الموت، فتستنهض الوجع فى قلوب كل النساء، فيعلو ويشتد صوت النحيب والبكاء ترثى شباب الراحل الذى ترك الحياة والأبناء.. إنها «المعددة».

لا مفر من الخوض وسط هذه الكتل من السواد حتى أصل إلى قلب الدار، بضع لحظات للعبور مضت مثل الدهر الثقيل بداية من أولى درجات السلم حتى الوصول إلى غرفةٍ فى نهاية الدار وصوت المرأة الغريبة يمتد ليصل إلى كل شىء فى نفسى وفى نفوس الحاضرين، إلى كل شىء حولنا، إلى الجدران والصور المعلقة عليها، إلى الغيطان والطيور والطرق الترابية غير المرصوفة، إلى «الأناية» الصغيرة التى تفصل ما بين الطريق الضيق والزراعات الخضراء، والتى جفت مياهها بلا سبب غير الحزن على شاب من خيرة شباب البلد رحل تاركًا وراءه زوجة شابة وستة من الأطفال الصغار.

فى ركن من أركان الدار انزوت جدتى صاحبة العينين الزرقاوين الباكيتين والملامح الريفية الطيبة الكسيرة وقد التف جسدها الضعيف فى عباءة وطرحة سوداوين، وجهها النضر ذو التقاطيع المنمنمة أصابه الوجع والزرقة وتفاصيل قسوة الموت وغدرة الزمن الذى خطف من بين يديها أرق أبنائها وأكثرهم طيبة وحنانًا. التفت حولها النساء فى محاولة لمواساتها، ولكن.. هل هناك كلمات تستطيع أن تطيب خاطرها أو تخفف من عذاباتها؟

فى همس خافت ثقيل مرتجف تناثرت الأقاويل حول الحادث، فهناك من ادّعى أنه ثأرٌ قديم، وهناك من زعم أن خلافًا بين الضحية وأحد أبناء العائلات الكبرى قد نشب، وأن الحادث انتقام منه، وهناك من قال إن ما حدث خطأ فادح جسيم يستدعى الثأر من فاعله حتى ولو كان غير مقصود، ومن قال إن الفاعل ابن من أبناء عائلتنا ملأته الغيرة من القتيل فانتهز الفرصة للتخلص منه. أما العقلاء من أهل القرية فقد رجحوا أنه حادث قدرى تم بفعل القضاء والقدر، وحاولوا لملمة كرات النار المشتعلة قبل أن تحرق القرية وأهلها.

قالوا كثيراً، إلا أن هذه الأقاويل ذهبت أدراج الرياح، ولم يتبق حولها سوى قرار رسمى أصدرته وزارة الداخلية يحظر -حظراً تامًا- إطلاق الأعيرة النارية فى الأفراح أو أى مناسبات، وشدد القرار العقوبة على مرتكبى مثل هذه الأفعال، إلا أن العادات كانت أقوى من القانون ومن قرارات وزارة الداخلية.

أود اليوم معك أن أخرج آهةً كبرى تحرق وتمزق صدرى منذ سنوات طويلة.

آه.. ظلت جدتى ترددها حتى ماتت بعد حادثة خالى بعدة شهور قليلة.

-آه.. ظلت أمى تقولها وهى متشحة بردائها الأسود الذى لازمها طيلة حياتها.

آه.. ظللت أرددها كلما تذكرت ما حدث، وكلما شاهدت حفل زفاف أو حضرت ليلة عُرس.

لم تقو جدتى على الحياة فى القرية بعد رحيل ابنها الذى كانت تقيم معه فى نفس الدار؛ تدهورت حالتها الصحية كثيراً، وامتنعت

عن تناول الطعام. لقد حرمها الموت من كل متع الحياة حين اختطف ابنها من حضنها، حين شاهدتْ بعينيها جسده معطوبًا مسجى فى دماء هى نفس دمائها، حين غادرته روحه المعلقة بروحها، كانت تقضى الليل فى البكاء مستدعية ذكرياتها معه، مُستحضرةً صورته وهيئته لتطفئ بعضًا من شوقها له، إلا أن صورته الأخيرة ظلت تطارد خيالها.. صورته وهو غارق فى دماه.

فى النهار ترقب أطفاله الخمسة الذين ما زالوا فى سنواتهم الأولى بالحياة، بينما تتعلق عيناها ببطن زوجته التى تحمل فى أحشائها جنينًا جديدًا شاء قدره أن يولد للحياة بعد رحيل أبيه، فلا تلمح عيناه وجه هذا الأب ولو لمرةٍ واحدة. وحينما جاء موعد ولادته لم ينطق أحد بكلمة «مبروك»، فمن يجرؤ أن يقولها ليتيمٍ وأرملةٍ وأم ثكلى؟

فشل أكبر الأطباء فى تخفيف الألم عن جدتى، فألمها لم يكن بفعل المرض بقدر ما كان بفعل الفراق. وبدت تدرك أن موعد رحيلها قد اقترب، وأن لقاءها بفقيدها فى العالم الآخر بات وشيكًا، فأصبح شاغلها الشاغل قبل الرحيل هو لم شمل ما تبقى لها من أبناء.

.. يا لنا من حمقى حين نقرر مصائر الآخرين على أسرّة الموت! ويا لنا من حمقى حين نرضخ لاختيارات الآخرين وقراراتهم فى حياتنا دون أدنى مقاومة منا! ولكن.. كنت أصغر من أن أقاوم أو أفهم.

ماتت جدتى. رحلت بعد أن ألقت بوصيتها للجميع: «البنت دى.. للولد ده» حفاظًا على لم شمل الأبناء. لم تكن تدرى أن قرارات لحظة الموت نادرًا ما تكون على صواب، وأن وصيتها بلم الشمل لم تكن سوى صفحة جديدة للفُرقة بين الأبناء.

اشتدت وجيعة أمى وحزنها، وازدادت الثياب السوداء داخل خزانة ملابسها، وتكدست تأكيداً واستعداداً لأيام الحزن المقبلة التى ستعيشها بعد فراق أغلى أحبائها.

صارت تبكى ليل نهار، وهنت صحتها ودق المرض بابها وتملكت العلة من نفسها وروحها. تلاشت ابتسامتها تماماً وذبل جمالها ولم يعد الناس يتحدثون عن جمال وبياض وحلاوة بنت عبد الرحيم.

(عاوزين نفرح.. نرمى الحزن ورا ضهرنا شوية.. كفاية كدة)، على هذه العبارة اجتمعت عائلة أمى، وحانت لحظة السعادة التى يرغبونها، والتى انتظروها لمدة عام منذ رحيل جدتى، ومنذ وصيتها.

لا أدرى لماذا أتذكر اليوم كل هذه الأحداث وتفاصيلها، لماذا تجترها ذاكرتى دون مقاومة منى؟ لماذا لا قدرة لى على الاستمتاع الآن بالنظر إليك فى مثل هذه اللحظة الاستثنائية من حياتى؟ لماذا يعاودنى الماضى بكل مشاهده وجراحه؟ لماذا لا أفرح فى مثل هذه اللحظة من العمر؟ أخشى أن أكون قد أدمنت طعم الجراح وعشقت مذاق الخوف.

ربما أكون فى حاجةٍ لأن أفرغ إليك نفسى وهمى، ربما أكون فى حاجةٍ لأن أتطهر من جراحى وتاريخى وعُقدى، ربما أكون فى حاجةٍ إليك لتسمعنى.. لتقرأنى.. لتدرك أبعادى وحدودى وتعاريج ذاتى ومعالمى وخبايا نفسى. ربما لأن الماضى قد يعاودنا حينما يتناقض حد النهاية مع الحاضر لنضعهما رغماً عنا فى مقارنةٍ حية قد نكون بحاجة إليها دون أن ندرى لندرك قيمة هذه اللحظة من ذلك الحاضر الذى نعيشه. على أى حال أنا فى النهاية لا أدرى لماذا يطاردنى

الماضى فى هذه اللحظة من عمر لقائنا.. من عمرى.. من عمر الزمن!

.. فى ردهة المنزل اجتمع عدد من النسوة، جلسن فى شكل شبه دائرى تمازح كلٍ منهن الأخرى، إما بكلمات يسمعها الجميع، وإما تلقى الواحدة فى أذن جارتها بكلماتها فتضحكان معًا خفية. توسطت الجلسة سيدة بيضاء ممتلئة الجسد، هى إحدى جاراتنا، عصبت رأسها بـ«إيشارب» ملون انتهت أطرافه المربوطة أعلى الرأس من الأمام فى وضع يشبه «الفيونكة» الصغيرة. نادت:

«بنت يا إيمان، فين الـ.....».

قاطعتها امرأة أخرى قبل أن تكمل عبارتها:

«بتسخّنها.. بالراحة عليها».

عادت السيدة البدينة تقول:

«ياللا.. الليلة قربت تخلص..».

تدخل إيمان وبين يديها تحمل «طبلة»، وبمجرد أن تلقفتها السيدة البدينة حتى استعد الجميع، وسادت حالة من السكون لبضع ثوان حتى قالت السيدة البيضاء ممتلئة الجسد:

«ردُّوا ورايا بصوت عالى.. إنتوا ماكلتوش ولا إيه؟».

تضحك النساء..

بنبرةٍ ريفية يصاحبها صوت «الطلبة» تُغنى:

– يا لولى اليمام.

يردون: – يا لولى اليمام.

– يا لولى اليمام على عينيها.. دى عيون غزلان يا محبوبى.. ولا فيش كلام.

- يا لولى اليمام.

- يا لولى اليمام على شعرها.. ده جميل مجدول يا محبوبى.. ولا فيش كلام.

- يا لولى اليمام.

تنتقل من أغنية إلى أخرى، تتبدل مع صوتها نقرات أصابع يديها فوق الطبلة وهى تقول:

- ادَّلع يا رشيدى..

- على وشّ الميّه..

- سيب شعرى وامسك إيدى..

- على وشّ الميّه..

- أنا اللى أبويا راجل طيب.. يصرف من جيبه ولا يأيِّد.. آه يا طنطا بلد السيِّد.. وادَّلع يا رشيدى..

- على وشّ الميّه..

- سيب شعرى وامسك إيدى..

- أنا اللى أبويا شرَّانى.. وكسر لى ضلع وربّانى.. عشان أحسِّن سؤالى.. وادَّلع يا رشيدى..

- على وشّ الميّه..

- سيب شعرى وامسك إيدى..

- على وشّ الميّه..

- آه يا بنات مالكم مالكم.. سايبين الشعر على ودانكم.. مافيش جواز طوّلوا بالكم.. وادَّلع يا رشيدى..

- على وشّ الميّه..

- سيب شعرى وامسك إيدى..

- على وشّ الميّه..

من بين الزحام والأصوات المتداخلة والتصفيق وصوت الدق فوق الطبلة أنسحب.. اندحر.. أتوارى داخل جدران غرفتى، تغلبنى حالة من الأسى والهم، فالليلة حزينة رغم الضحكات وأغانى العُرس، ورغم فرحة أبى وأمى اللذين يصران على إتمام زواجى مع علمهما برفضى، ولكلٍ منهما أسبابه الخاصة.

فأمى تحلم بتنفيذ وصية جدتى ولم شمل إخوتها وعائلتها، خافت أن ينساها أشقاؤها ويتركوها وحيدة بعد موت أمها، فأصرّت على تنفيذ الوصية بأى وسيلة، كما أنها تحلم بتزويج ستة من البنات اللاتى لا تعرف ماذا يخبئ لهن القدر.. تحلم بسترهن.. والستر فى عرف عائلتى هو الزواج.. فقط الزواج.

«البنت كبرت».. قالها أبى بنبرة تخلو من الزهو، ثم أضاف: «لازم نستَّرها ونخلص من همها عشان نلتفت لاخواتها الباقيين، دول ست بنات فى الزمن الاسود اللى إحنا عايشينه ده، ست بنات مطمع والعين عليهم، وأنا شايف البنات بره بيحصل فيهم إيه والناس بتتعامل معاهم إزاى وبتبص لهم إزاى.. اللى متبهدلة فى مصنع، واللى قاعدة فى محل، وحتى اللى قاعدة على مكتب فى وسط موظفين، ده يبص على جسمها وده يقول كلمة قبيحة وماعادش فيه لا دين ولا أخلاق عند حد».

«البنت كبرت».. قالها أبى بنبرة تخلو من الزهو، فردت أمى: ابن خالها مستنى الرد على ميعاد الفرح.

طعم المرارة في حلقي يتزايد، أغط في غيبوبة نوم عميق لا أعرف مداه، أفيق على نبرة قاسية لصوت أمي لم أعتد عليها من قبل:

«كلامنا لازم يتنفذ.. هو كلام عيال ولا إيه؟ خلاص الاتفاق تم وماعندناش بنات ليها رأى».

رددت بصوت باهت:

«أنا عاوزة أكمل تعليمى، لسه بدرى ع الجواز».

تُعيد صياغة نبرة صوتها ليكون أقل حدة وهى تعطينى لفافة من بضع أوراق مالية حمراء.. وتقول:

«عريسك باعت لك دول، خديهم.. ربنا يهديكى»

آخذها بيدٍ مرتجفة وصمت حزين مطبق.. مُرّ.. تتحشرج آهة فى حلقى المختنق بالدموع والأنين، أستعد راضخة لوضع النقود فى حافظتى الجلدية السوداء.. وفجأة.. أراه أمامى بوجهه البارد اللئيم المبتسم دائمًا، يحاول أن يمازحنى:

«يا بختك.. معاكى فلوس»

تشتد انقباضة قلبى كلما سمعت صوته حتى لو كان يضحك.. حتى لو كان يمازحنى.. أشعر بحالة من الغثيان ورغبة فى القىء.. أصبر.. أمد إليه يدى بلفافة النقود الورقية وأنا فى حالة انكسار.. أحاول أن أعيدها إليه، أسمع صوتى داخل أعماقى يردد فى أسى:

«ياريت مشاكل الدنيا فلوس.. ياريت نقدر نشترى الحب والرضا والسعادة بالفلوس».

أسرع إلى شرفة حجرتى، أحاول الحصول على بعض الهواء، ففى لحظة شعرت أن أجواء الغرفة حولى أظلمت، وأن المكان نفد منه

الأكسجين والهواء حتى كدت أختنق، كأن جدران الحجرة أطبقت على صدرى، ضاقت، كأننى أتلاشى.. تسحبنى الغيبوبة مرة أخرى فأغط فى نوم عميق، وصمت مطبق.. مُرّ.. لا أعرف مداه، تطاردنى الكوابيس أفيق على صوتى المتوسل:

«ما زلت صغيرة»

قلتها وأنا أرتجف رعباً وخوفاً.

– «اللى زيك بيتجوزوا ويخلفوا كمان».

– أنا عندى ١٣ سنة.

– يعنى ماتعرفيش مصلحتك فين، إحنا اللى نعرف لأننا أكبر منك.

«أبكى.. أنزوى.. أتوارى خلف كف يدى.. أتوسل:

«أنا عاوزة أكمِّل تعليمى».

تتكمش ملامح وجه أبى وهو يسألنى فى استهجان:

«الجامعة يعنى؟ ولاد وبنات بيحبوا فـ بعض زى ما بنشوف فى التليفزيون، إحنا صعايدة ومالناش فى الكلام ده».

– لأ.. عاوزة أتعلم.. هو كل اللى فى الجامعة لازم يحبوا.. واللّه ما هاحب حد ولا ها كلِّم حد لا ولاد ولا بنات.. بس سيبونى أتعلم.

– كفاية إنك بقيتى تعرفى تقرى وتكتبى.. هانعمل إيه بالشهادة؟ فى الآخر البنت مالهاش إلا الجواز.

تتدخل أمى لتعلن إنهاء المناقشة وتغلق فى وجهى أبواب الأمل فى النجاة: «لو عايزة تكملى تعليمك جوزك يبقى يكملك وانتى فى بيته.. إحنا خلاص اتفقنا».

فقلت على استحياء: لكن أنا مابحبهوش.

«يكفهر وجه والدى ويستشيط غضباً رافعًا كف يده ليسقطه على وجهى: «كمان عايزة تحبى.. بنات مالهاش حاكم».

كانت مأساتى أننى أنثى.. اسمها لو ذُكر على فم غريب.. عيب.. شكلها عيب.. صوتها عيب.. رأيها.. مشاعرها.. أحلامها.. كل شىء يتعلق بها.. عيب.. وأبى.. رجل شرقى مثل معظم رجال مجتمعاتنا العربية الذين يمنحون ذكورهم كل الحقوق ويحرمون إناثهم شتى أشكال الحياة، أذكر مثلاً كانت جدتى دومًا ترده رغم قسوة أبنائها الرجال عليها.. «لما قالولى ده ولد اتشد ضهرى واتسند.. لما قالولى دى بنيه اتهدت حيطة الدار عليّا».. هذا هو الإرث الذى ترثه المرأة العربية بمختلف ثقافاتها.

تُرى كيف كان يوم مولدى وأنا الابنة الكبرى للبنين والبنات؟ هل غضب أبى؟ هل خجلت منى أمى؟

يأتينى صوت السيدة البيضاء البدينة يعيدنى إلى حاضر هذه اللحظة من حياتى.. ونقرات أصابعها تدق فوق «الطبلة» فتكاد تخرق أذنىّ. أشعر وكأنها تدق رأسى؛ يزداد ألم الصداع الذى يلازمنى منذ أيام.. لم أكن قبلها أشعر بأى آلام فى رأسى.. أنظر إلى الأثاث الجديد الذى وُضع فى منزل والدى استعداداً لتجهيز شقة الزوجية لى.. أكره كل قطعة منه.. حتى أن أحداً لم يستشرنى عند شرائه ولم أُسأل عن رأيى.. ولِمَ يفعلون؟ فهذا لا يهم. أنزوى فى أحد أركان الحجرة المزدحمة به، أود لو أصرخ ملء إرادتى وغضبى فيأتينى فى العتمة وجه أبى الغاضب فأخشى صفعة جديدة من يده، أود لو ألقى

بنفسى فى حضن أمى، لكن هذا الحضن الدافئ سيلفظنى، فهى تخاف من كلام الجيران وغضب إخوتها ومخالفة وصية جدتى. تخاف من كل هذا أكثر من خوفها لغضبى وأنا الصغيرة التى لا تعرف مصلحتها وترفض زوجًا لا ترفضه فتاة عاقلة.

سيقتلوننى إن صرخت فيهم. سيذبحوننى كدجاجة بلا ثمن إذا أعلنت غضبى ورفضى. يتعالى صوتٌ مقاتل داخلى:

فلتكن ميتة بميتة. تحضرنى عينا أبى الحمراوين غضبًا وكفه القوى ممسكًا بعصا غليظة أو قطعة من الجلد أو البلاستيك يأتى ليلقننى شتى ألوان عقابى، وربما سيحمل سكينًا يجذ بها رقبتى. أرتجف، يتصبب عرقى ويرتعد جسدى، يتعالى من قلبى صوت دقاته وخفقانه ونبضه، يتلاحق مع صوت «الطبلة» المتسارع داخل رأسى. لم يعد أمامى وقت، الزفاف بعد أيام. سأموت رعبًا أو زواجًا أو رفضًا.

أحاول جمع إرادتى ولملمة كيانى. أردد داخلى «ميتة بميتة، يملؤنى العناد. أود لو أتمرد على ضعفى وقلة حيلتى. أنتفض. أبكى. أصرخ بملء إرادتى. أعلن رفضى ليصبح كل هذا مجرد أشياء من الماضى تستدعيها ذاكرتى اليوم وأنا بين يديك.

امتلأت عيناك بالدهشة وبدت نبرة صوتك معاتبةً ودافئة وأنت تحدثني بلهجة حميمية ودودة أعدتني بها من غياهب الماضي وظلمته:

– إيه؟ فيه إيه؟ رحتي فين؟

– ولا حاجة.. مارحتش.. إنت إزيك؟

– كويس.. لكن إنتي اللي باين إنك مش هنا خالص.. سرحتي ورحتي وجيتي وقعدت أكلمك كتير ما بترديش.

– أنا؟ بالعكس.. ده أنا كل كلامي ليك، وكل اللي فكرت فيه إنك معايا.. معايا وباحكي لك كل حاجة ف حياتي.

– بس أنا كمان عاوز أسمعك بجد. لكن لو فيه حاجة هاتضايقك ومش عاوزة تقوليها، ما تحكيهاش.

– لو على اللي هايضايقني يبقى مش هاحكي حاجة خالص، لكن أنا عاوزاك تعرف عني كل حاجة. نفسي أتكلم معاك كتير. أقولك

على كل تفاصيل حياتي. نفسى الكلام ما يخلصش. والوقت ما يخلصش. والعمر معاك كمان ما يخلصش.

لا أدرى لماذا تقترن فرحتى دائماً بالحزن؟ لماذا يصر القدر على أن يجمع المشهدين المتناقضين للوحة القديمة المنقسمة إلى نصفين:

بكاء وضحك.. غناء وعويل.. ثوب أبيض لعروس تحمل قلباً لطخه الحزن بالسواد.. لوحةٌ قديمة لمشهد عُرس وتفاصيل لحظة قتل.

تاهت كلمات الفرحة منى.. تناثرت من بين صوت موسيقى "زامفير" وصوت الذكريات.. وقعت عينى على الطبق الكريستال الذى وُضعت فيه وريقات من الورد المجفف قرمزى اللون.. سألتك:

- هل تحب اللون الأحمر؟

فأجبت:

- أعشق الألوان الصارخة التى ليست بحاجة للخلط أو المراوغة، أنا أفضل الألوان الصريحة، كما أفضل الطرق المختصرة دائماً للوصول إلى هدفى.. أحب الوضوح فى كل شىء.. الأشياء عندى لها معنى من اثنين لا ثالث لهما.. إما أبيض وإما أسود.. لا مكان للون الرمادى فى حياتى.

وقتها صدقتك، كلمة بكلمة وحرفاً بحرف، وبادلتك صدقاً بصدق. كنت لى مثل طوق نجاة تعلقت به لأنجو من حطام سفينتى الذى يجذبنى للقاع وأنا أوشك على الغرق. سألتنى:

- متى ستكونين لى؟

فأجبتك:

- «دوماً سأكون لك».

.. صدقت أنا بينما لم تصدق أنت.

عندما تاهت منى الكلمات بدأت أبحث عن موضوع ما نتحدث فيه حتى لا يصيبك ملل من صمتى.

– سمعت عن الأحداث اللى بتحصل فى بنى سويف؟

– أنهى فيهم؟ قصر الثقافة اللى اتحرق وحرق معاه فنانين ونقاد وشباب وجمهور كان رايح ينبسط فمات محروق؟ ولا حادثة القطر؟ ولا إيه بالضبط؟ كلها أخبار فلة.

– عندك حق.. بقالنا كتير ما سمعناش فى مصر خبر حلو، كل الأخبار تصيب بالاكتئاب والإحباط، لكن أقصد أحداث الفتنة الطائفية.

– حاجة عبيطة معرفش إزاى تكبر كده.. وليه؟ إيه يعنى حد يبنى جامع ولا يبنى كنيسة. إيه اللى بيحصل فى مصر! مش عارف.

.. حتى هذا الحدث فرض على ذاكرتى صحوة أخرى وأعادنى مرة أخرى للوراء.

القاهرة ١٩٨٠

نظرت من خلف النافذة الخشبية المغلقة، فمنذ الساعات الأولى من صباح اليوم تحول شارعنا إلى ثكنة عسكرية، انتشر العشرات من جنود الأمن المركزى وعشرات العربات المصفحة التى ظلت تتجول بشوارع الحي، خاصةً شارعنا، وتحديداً أمام منزلنا. فهنا، على بعد خمسة أمتار فقط من شرفتى، توجد كنيسة أغلقت أبوابها منذ الأمس، وبعدها بعشرة أمتار أخرى يوجد مسجد أغلق أبوابه

فى نفس التوقيت وحولهما. انتشر العسكر والعربات والسلاح.

كاد الخوف يقتلنى مثلى مثل بقية إخوتى وجيرانى وسكان الحى، فوق سجادة الصلاة جلست أمي تردد أدعيتها بصوت خافت لم أسمع منه سوى: «استرها معانا يا رب».

ومن حجرة الضيوف تعثر صوت المذياع الذى استيقظت عليه اليوم حين أداره أبى على إذاعة لندن الـ(B.B.C)، هرول أبى باتجاه الراديو قبل أن تفوته كلمة تضيع معنى خبر ما ينتظر سماعه. حاول توجيه المؤشر لضبط الصوت تارة باتجاه إذاعة لندن وتارة أخرى باتجاه إذاعة القاهرة الكبرى، كلمات نشرة الأخبار جافة لم نسمع أيًا من مصطلحاتها من قبل، تقذف الرعب فى قلب كل مواطن يعيش على أرض مصر. لم يذهب أبى إلى عمله اليوم، لم ينزل إلى الشارع، لم يترك سيارته فى الجراج الذى يبعد عن منزلنا بضع عشرات من الأمتار، كما كان يفعل دائمًا. فضل أن تبقى السيارة أمام البيت بعد أن انتزع من داخلها مسبحة كانت معلقة بمرآتها منذ سنوات طويلة، وخبأ مصحفه الصغير الذى ظل فوق «التابلو» منذ أن اشترى هذه السيارة، ظل يبحث عن ورقة صغيرة مطبوع عليها آية الكرسى كانت داخل أوراق المصحف، وكان قد حصل عليها من أمام مسجد الحسين وقت خروجه من صلاة الجمعة الآسبوع الماضى حين وزعها أحدهم رحمة على فقيد له، لا يعرف أبى أين ذهبت حين سقطت من يديه المرتبكة، وعندما فشل فى البحث عنها أحكم إغلاق أبواب السيارة وأسدل فوقها غطاء من القماش الأخضر القاتم الثقيل، وقبل أن يذهب لشراء طعام لنا دقق النظر فى ساعة يده فوجدها قد

اقتربت من الثالثة والنصف عصراً فعاد مسرعًا ولم يكمل طريقه، بينما ما زال صوت المذياع يكرر تحذيره عبر نشرة الأخبار بإذاعة القاهرة الكبرى:

(نوجه عناية السادة المواطنين بأن حظر التجوال يبدأ من الساعة الرابعة عصراً وحتى السادسة من صباح الغد.. حتى إشعار آخر).

عندما سقط الصحن من يد أمي وهي تعد طعام العشاء ارتجفنا جميعًا للضجيج الذي أحدثه ارتطام الطبق بالأرض، فلم تعد أعصابنا تتحمل صوت أي فرقعة أو ضجيج منذ أن بدأنا نسمع عن أحداث الزاوية الحمراء وما يثار حولها عن وجود فتنة طائفية بين أهلها من المسيحيين والمسلمين، وكل صوت عال يخيفنا نحسبه عملاً انتقاميًا من شخص هنا أو هناك، خاصة بعد فرض حظر التجوال ونشر العسكر والسلاح في شوارعنا وما اتخذ من إجراءات أمنيه مشددة وحملات تفتيش عشوائية للمواطنين المارة في الشوارع. ولا أدري عن أي نوع من الفتنة تتحدث نشرات الأخبار ونحن وجيراننا وأصحابنا مثلٌ حي لتلك العلاقة المتشابكة بين أبناء الوطن، فأحباؤنا وزوارنا معظمهم من المسيحيين، عم عاطف وعم جرجس والأستاذ موريس وزوجاتهم وعائلاتهم. ذلك فضلاً عن عم يوسف شريك أبي في تجارته وزوجته وابنتيه اللاتي لا يتركن مناسبة دينية أو اجتماعيه إلا وجئن لزيارتنا وذهبنا نحن لزيارتهن. وأسأل:

كيف يمكن لأبي وعم عاطف مثلاً أن يحمل كل منهما سلاحًا في وجه الآخر؟ وهل يأتي يوم أرى فيه زوجة العم يوسف ولا أمد إليها يدي بالسلام وأبادرها التحية بكل هذا الحب المتبادل بيننا؟ كيف

تتحول مشكلة بين فردين إلى فتنة يحترق بنيرانها وطن بأكمله.. سكانه وزرعه وهواؤه.. لمصلحة من يحدث هذا؟

كنت صغيرة حين تدلت ضفيرتان من شعر ذهبي فوق كتفي أوثقتهما جدتي لأبي بشريطين من الساتان الأحمر وأحكمت في نهاية كل منهما عقدة جعلتها على شكل «فيونكة»، أمسكت بكفي الصغيرة ومشينا دون أن أعرف إلى أين تأخذني معها. كان الترام القديم يمر بطول شارع شبرا، وكنت حينما أشاهده يسير أمامي عملاقًا كبيرًا أشعر بتزايد دقات قلبي، خاصة عندما يصدر صوتَ ضجيجٍ عاليًا حينما تصطك عجلاته الحديدية بالقضبان المعدنية الممتدة بطول الشارع الذي لا يبدو له أول ولا آخر.

في الطريق كنت أسمع صوت جدتي يهمس دون وضوح لكلماتها، فقط كانت تمتم ببضع كلمات لم أفهمها، لكنها تبدو مثل دعوات أو طلبات سرية ترجوها من الله.. توسلات أو ربما صلوات شفهية تتقرب بها إليه، وأمام مبنى قديم توقفت ووقفت، ظلت في مكانها بضع لحظات وكأنها تستعد لاستقبال المكان أو تمنحه مهلة لقبولها. بدا المبنى ذا قدسية ومهابة لم أعرف مداها. تمتمت جدتي مرة أخرى ثم دخلنا. كان المكان في داخله عملاقًا ومهيبًا أكبر بكثير مما يبدو عليه بناؤه الخارجي، لم تكن فيه إضاءات غير الشموع.. شموع كثيرة.. كثيرة جدًا، تناثرت وأضيئت فأضاءت كل ركن وزاوية حولنا. سمعت صوت ترانيم صلاة تبدو كأصوات ملائكية حلقت في محيط البهو الكبير الذي وقفنا فيه، وبدا شبه خال إلا من شخصين جلسا فوق مقاعد خشبية بنية لامعة وكل منهما يردد في سره صلاته

ودعاءه أمام تمثال كبير وضع فى منتصف البهو للسيدة مريم العذراء. ناحية اليمين اتجهت جدتى، وكأنها تعرف طريقها جيداً، إلى حيث غرفة جانبية أكثر هدوءاً وشموعًا. فى وسط الغرفة شاهدت صندوقًا كبيراً من الزجاج السميك وداخله تمدد جسد امرأة غاية فى الجمال والرقة والحشمة علمت فيما بعد أنه تمثال القديسة «تريز»، والتى عرفت كنيستها الكائنة فى حى شبرا باسم (كنيسة سانت تريز). وقفت جدتى وسط كثيرين التزموا الهدوء وأحاطوا الصندوق بوقفة مهذبة يتمتمون ويدعون وأنا أتطلع إلى وجوههم المتوسلة كثيراً والباكية أحيانًا. منحتنى جدتى بضع أوراق مالية وهمست فى أذنى:

«حطيها فى الصندوق الخشب ده وسمِّى باسم الله، وقولى يا رب اقبل صلاتى وحياة العدرا والست تريز».

كنت أدرك أننا مسلمون، وأن المكان الذى نقف فيه هو كنيسة للمسيحيين وأن «سانت تريز» هى قديسة رمز للمسيحية، لذلك تعجبت كثيراً مما تفعل جدتى، ولولا أننى كنت أعيش معها فى بيت واحد وأراها تصلى فروض الله الخمس يوميًّا، تركع وتسجد وتُكبر وتنطق بالشهادة وتذكر التسابيح وتقرأ القرآن، لولا هذا لشككت فى أنها تضمر فى قلبها دينًا آخر، لكننى أدركت بعد ذلك حجم هذا التشابك فى النسيج المصرى بين مسلميه ومسيحييه، وأن الرموز المقدسة يتقرب إليها كلاهما، ويستعين بها بغض النظر عن الديانة.

ما فعلته جدتى هو نفس المشهد المعكوس الذى شاهدته كثيراً لمسيحيات ارتدين غطاء للرأس فوق الصُلبان المعلقة فى رقابهن ووقفن يتضرعن فى مسجدى الحسين والسيدة زينب وغيرهما من

الأضرحة والمساجد التى لها نفس القدسية الخاصة لدى المسلمين والمسيحيين.

بعد أيام طويلة قضيناها فى خوف داخل الحبس الإجبارى بمنزلنا -نحن ومصر كلها- رُفع أخيراً حظر التجوال مع وجود الكثير من التحذيرات عبر شاشات التلفاز والصحف الحكومية، تحذيرات من وزارة الداخلية بأنه لن يفلت من العقاب من يضر بأمن مصر أو يحاول المساس بنسيجها الوطنى ليتسبب فى إشعال فتنة أخرى.

كنا خلال الفترة الماضية التى جرت فيها أحداث الزاوية الحمراء نستمع إلى الأخبار طوال أربع وعشرين ساعة، ونتابعها عبر كل وسيلة محلية أو خارجية، وكان الناس، ومنهم أبى، يديرون فى معظم الأوقات مؤشرات الراديو على إذاعة الـ«B.B.C» حيث تتناول من الأخبار والأحداث ما تعجز وسائل الإعلام المصرية عن ذكره لاعتبارات أمنية أو اجتماعية أو سياسية، ولم أكن أدرى آنذاك هل للدولة الحق فى إخفاء معلومات من هنا أو بيانات من هناك عن مواطنيها بحجة أمن مصر؟ أم أن أمن مصر هذا يعنى معرفة المواطن بكل ما يجرى ومسؤوليته عنه والتزامه بهذا الأمن المصرى، ومنه أمنه الشخص؟ أسئلة ربما لم تطاردنى وقتها لحداثة عمرى، لكنها تلح علىّ اليوم مع تكرار هذا الأسلوب الحكومى مع كل كارثة تمر بها مصر على المستوى الداخلى أو الدولى.

بعد أيام قليلة من فك الحصار عادت مجدداً الزيارات المتبادلة بين أبى وأصدقائه وجيراننا المسيحيين، والتى لم يكن جمدها سوى هذا الحظر الذى نال منا جميعاً، وسمعنا حكايات الطرف الآخر، نصفنا

الآخر وشركائنا فى الوطن، كانت لهم نفس مشاعر الخوف، نفس التفاصيل التى عشناها بدءًا من محاولة إخفاء الرموز الدينية ومرورًا بالتلصص من خلف النوافذ الخشبية محكمة الغلق، والموت فى الجلد حين نسمع دقاتٍ فوق باب البيت، والرجفة من الأصوات العالية ومن أى ضجة تحدثها سقطة صحن طعام فى المطبخ. أيام سوداء عاشها وطننا الأخضر فى أحداث الزاوية الحمراء.

عادت الحياة إلى مجراها رغم بقاء عدد من الجنود أمام الكنيسة والمسجد المقابلين لمنزلنا، بل أمام كل كنيسة ومسجد فى مصر، وبمرور الشهور بدأ هذا العدد للجند يقل تدريجيًا مع ازدياد حالة الهدوء وعودة الحياة لشرايين مصر وشوارعها. اختفى جنود الأمن من أمام المسجد بينما بقى اثنان منهم فقط أمام الكنيسة داخل كشك خشبى صغير صنعوه لأنفسهم للاحتماء داخله من لسعة شمس الصيف وقرسة برد وأمطار الشتاء.

سنوات طويلة مضت وظل هذا الكشك منتصبًا أمام الكنيسة المقابلة لنا بمحتوياته من جنديين ومقعدين داخله. تحولوا إلى جزء من معالم شارعنا مثلهم مثل المسجد والكنيسة والأرجوحة الحديدية الكبيرة التى تقف على ناصية الشارع، والتى حُرمت من اللعب عليها حينما كنت طفلة لأننى «بنت» وعيب البنت تركب «المرجيحة». ذات يوم ذهبت وشقيقتى الصغرى لشراء الحلوى، وكنا نحلم بركوب هذه الأرجوحة التى نرى الأطفال فى مثل عمرنا يركبونها طوال النهار قبل أن يغلقها صاحبها بجنزير وقفل صدئ، وراودتنا الفكرة وسيطر علينا الحلم بأننا نطير فى الهواء، وركبناها.

كان قاربها الحديدى يطير بنا فى الهواء ويحلق فى الفضاء وكلتانا تصرخ سعادةً وخوفًا. وقتها وددت لو أستطيع لمس السماء بيدى. لو أن لدى جناحين أطير بهما دون الحاجة لقارب من الحديد يغلق بقفلٍ صدئ فى وقت الليل، يومها عرف أبى: نلنا ما نلناه من عقاب مقابل بضع لحظات من السعادة والحرية.

.. ظل الجنديان يحرسان الكنيسة لسنوات طويلة. كانا يتبدلان، لكننا أبدًا لم نلحظ ذلك، فقط كنا نراهما جنديين ببزتين عسكريتين يجيئان لحراسة الكنيسة. نشأت بينهما علاقات حميمة مع كثير من الجيران، وكثيراً ما كنت أرى جيرانى يشاركونهما جلسة سمر ساعة مغربية أو نسمة هواء رطبة فى ليلة صيف، وأكواب الشاى الساخنه.. والدنيا كانت ماشية.. كوبايتين شاى من عند عم رومانى، طبق محشى من عند طنط أم هدى، حبة فاكهة من عم محمد، واليوم يعدى آخر حلاوة، ومحدش سأل نفسه أبدًا يا ترى العساكر دول اللى قعدوا يحرسوا الكنيسة كذا سنة مسيحيين ولا مسلمين! إنه النسيج الذى وجد فيما بعد ألف سكين يقطِّع فى خيوطه ويشعل نيران الفتنة فيه ليقف المصريون اليوم على شفا فتنة تهب رياحها من خارج مصر. فمن يهدد أمننا؟ ولماذا؟ ومن وراء أحداث الكشح وعين شمس وبنى سويف والمنيا؟

(الأولة باسم الله.. والتانية باسم الله.. والتالتة لا حول ولا قوة.. والرابعة رقوة محمد بن عبد الله.. رقيتك السبع رقوات.. رقوة محمد على عرفات، من عين المرا فيها شنشرة.. من عين الراجل فيها سفناجر.. ومن عين أمك وأبوك من خوف ليحسدوك.. طلع البرية لقى

العيون الردية، بتنبح نبح الكلاب.. بتعوى عوى الدياب، قال: رايحة فين يا ملعونة؟ قالت: أخرب الدور وأعمر القبور.. قال: خد على سليمان بعهد الله والخاين يخون الله، لا اطلعك بلد ولا أدلك على بنت ولا ولد.. يا بير بلا قعر.. يا كف بلا شعر.. والعين عنك يا ضنايا تفترق كما افترق الندى عن الورق.. رب المشارق رب المغارب لا يغلب على الله غالب، ميّه وأربعين سورة على جنتك منشورة(*)، تكفيكِ شر الحسد والنفس والعين والضرر.. حدارجة بدارجه والعين عنك باردة.. اطّفى يا عين.. إطّفى يا عين).

تقولها جدتى صاحبة العينين الزرقاوين وترددها سبع مرات ثم تشهق شهقة عالية وهى توخز العروس الورقية التى صنعتها وتخرقها بطرف الإبرة ثم تشعل فيها النيران وهى تقول:

(من عين أمك وأبوكي.. من عين ستك أم أمك وستك أم أبوكي.. من عين خالك ومرات خالك.. من عين خالتك وولادها.. ونرجس وناعسة وربيعة.. من عين عبد التواب وعياله ونبوية وجوزها سعدون.. من عين كل اللى شافوكى وما صلوش ع النبى).

فى دارها القديمة بالقرية جلست، احتضنتنى فى «حِجرها» وضمتنى بين ذراعيها وهى تلقى علىّ برقوتها، إرثها الطبى الذى ورثته عن أمها وجدتها. كنت مصابة بنزلة معوية حادة وحرارتى مرتفعة وانتابتنى رعشة الحمى، وقتها لم تقتنع جدتى بأن عرضى على الطبيب كافٍ لشفائى، وأصرت أن تستخدم طريقتها الخاصة

(*) ملاحظة: عدد سور القرآن الكريم (١١٤) سورة إلا أننا نقلنا الرقية كما هى كموروث شعبى فضلنا عدم التدخل فيه.

لتزيح عن جسدى المرض.. والحسد.. أصدرت تعليماتها بألا تُقبلنى أمى أو أبى أو أحد من أقاربى حتى صبيحة اليوم التالى حتى لا يفسدوا رقوتها؛ ثم أمسكت بقطعة من الشبَّة التى أحرقتها داخل موقد أشعلت فيه «قوالح» الذرة، ثم أطفأته بالمياه بعد حرق عروسها الورقية فيه، وقالت: شكل «الشبَّة» بيقول مين اللى حسدها.. والنظرة جايه لها منين.

آه.. أين هى جدتى الآن لكى أحصل على بركتها ورقوتها وأنا أعانى رعشة جسدى وارتفاع حرارتى؟ لقد رحلت آخذةً خيرها وبركتها وحلاوة رقوتها.

كل الأشياء حولى فقدت حلاوتها وبريقها ونكهتها ورائحة الخير فيها. شعرت بمرارة الاختلاف عند أول زيارة لقرية أمى بعد سنوات غياب. وتاريخ من العناد ورحلة من العراك عشتها مع تقاليد وأعراف أذبلتنى وأفقدتنى نضارة الشباب والحياة.

كانت زياراتنا السنوية للقرية مليئة بجلسات السمر والضحكات والمشاعر الدافئة. كان الحب من القلب، والضحكة من القلب، أصبحت زياراتنا اليوم رسمية أكثر من كونها عائلية، زيارة كل كام سنة، أصبحت تحمل كلمات ثقيلة للمجاملات لا للود، أصبحت تمثل على كلينا، نحن وأهلنا، عبئًا منذ التفكير فى الفعل وحتى الانتهاء منه، مجرد واجب لولا العيب ما أديناه.

ماذا تغير فينا؟ ومن تغير؟ نحن.. أم قريتنا؟

إنها نفس القرية، تحمل نفس الاسم، نفس الوجوه التى لم يغيرها سوى بعض الشيب والمزيد من سنوات العمر، نفس الأرض، لكنها

فقدت رائحة طيبها.. ما الذى أطفأ شوقنا إليها؟ ما الذى أفقدنى حبى لها وأفقدها حبها لى؟ الزمن؟ الهموم؟ رفضى الارتباط بقريب لى منها؟ غضبة من أمى أم من أرضها التى تنازلت عن إرثها فيها حتى لا تغضب أحدًا؟ ما الذى تغير؟ ولماذا؟ أنا؟ أم بلدة أمى؟

لماذا أرى الحزن يعلو وجوه كل نساء عائلتى؟ كلهن حزينات بائسات بلا سبب واضح للحزن. هل ما زالت التقاليد تقهرهن وتُحرِّم عليهن الضحك واللعب والاستمتاع بالحياة؟ أم هَو الإرث من الحزن والخوف الذى ورثناه جيلاً بعد جيل؟ لماذا أعود اليوم من قرية أمى مُحمَّلة بآلام الغربة والفقد؟ ما الذى تغير فينا؟ أنا أم أهلى؟ أم القرية أم مصر؟ لماذا لا أسمع أحدًا يحكى الحواديت للصغار؟ عقلة الإصبع وسندريلا والسندباد والبساط السحرى.. وعلى أى الحواديت ينام صغارنا اليوم؟ وأى الحكايات يسمعون؟ هل يسمعون حكايات سجن أبو غريب فى العراق، أم الهجمات البربرية على المدنيين فى أفغانستان، أم المجازر الوحشية ضد أطفال فلسطين، والانقلابات فى اليمن، والاضطرابات فى مصر، والمجاعات فى الصومال، والانقسامات فى السودان، والاعتصامات فى لبنان، والإيدز فى إفريقيا، وأنفلونزا الطيور وجنون البقر وفساد الأسماك وسرطنة الفواكه والخضراوات وأنفلونزا الخنازير؟ ماذا تبقى لأطفالنا من حكايات الأمس؟ وعلى أى الحكايات ينامون فى الليل؟

تزداد رعشة الحمى التى ينتفض لها جسدى وأنا أرقد فى فراشى محرومةً من رقوة جدتى.. أعتب عليك لنسيان عنوانى ورقم هاتفى. أستحضرك وأنت الغائب الحاضر رغم جحودك وهجرك

وقسوتك. أهفو إلى لحظة واحدة من جلستنا معًا تمسك فيها يدى. فأهدأ بعض الشيء.

– إيدك ساقعة قوى كده ليه؟

– خايفة.

– لسه خايفة؟ لحد إمتى هايسيطر عليكى الخوف؟ حاولى تعيشى حياتك.. اللى بتحبيه اعمليه من غير خوف طالما إنك صح.

(ألتمس لك بعض الحق، فأنت لا تعرف أن الخوف مرض انغرس فى أوردتى على امتداد العمر بطوله وعرضه، وأن الثورة ضد هذا الخوف صارت جزءًا من ذاكرتى وذكرياتى).

ما زال جسدى يرتجف. إنها قصة الحب الأولى التى أعيش. إنها مشاعرى الأولى الغضة البكر. إنها رعشة الحب للحظة التى أعيشها معك. إنه الاضطراب والارتباك الأول لامرأة ثلاثينية لم تحيا مراهقتها بعد. لم تحيا شبابها بعد. لم تحيا طفولتها بعد. تتضارب الأفكار والمشاعر داخلى. لا أريدك أن تمسك يدى. لا.. بل أريدك. أريد بعضًا من دفء. كثيرًا من حب ومن حنان ومن شباب ومن حياة، لكننى أخاف أن تلامس يداك يدى، أخاف أن أمنحك كل الأمان. أخاف أن ترانى امرأة مثلى مثل الأخريات اللاتى سجلن أسماءهن فى ذاكرتك. أخافك أنت. أراك الراعى لقلب نابض يتوهج شبابًا وثورةً ونارًا ونورًا،: تطاردنى بنظرة لا تخلو من شوق ومن رغبة، قد تثير تلك النظرة فى قلب كهل –مثل قلبى– هواجس الحب المجنون والرغبة فى الحصول على بعض من مهدئات شوق فى حضن دافئ وبرىء أخاف أن ترانى مثل أى امرأة أخرى تركت بصمتك

فوق جسدها، فوق يديها ولحمها ودمها، وتركت لعنتك على عمرها. أرفض أن أكون مجرد اسم لصورة مشوشة تحملها الذاكرة فلا تحضرك ملامحي لو أردت استدعاء وجهي بعد عام أو عامين في ذكرى حكايتك معي حين تتوه بذاكرتك بين الأسماء والوجوه والحكايات. إنه الخوف من اللقاء، ومن الحب، ومن الفراق، إنه خوفي منك.

– لماذا كل هذا الخوف؟ هل خطئي أني حكيت لك عن علاقاتي وحكاياتي؟ من عرفت ومن عشقت ومن خدعت.. إنها تفاصيل حياة رجل عاش وحيداً فامتلأت حياته بالكثير من الأشياء، ومن النساء.

– ربما كانت صراحتك معي هي سر ارتباطي وتعلقي بك، ربما كانت حكايات غدرك وخياناتك لنسائك هي سر لبعض الأمان الذي أحصل غليه منك، فقد شعرت أني امرأة استثنائية، وحكاية استثنائية، فمن منهن سمعت روايات عشقك لغيرها؟ من منهن نصحتك؟ ومن منهن سامحتك؟ أنا من سمعتك ومن سامحتك على ما مضى، وما هو آت. ورغم هذا لم يمنعني الصفح لك مقدماً من أن أخاف منك.

كل ما أحلم به الآن، في هذه اللحظة التي اختلسناها من عمر الزمن، من عمر الكون وعمر الحياة، ومن عمري أنا، أن يملأني صوتك ملء الروح وحد النهاية وحد الجنون والوجود، أن يملأني حتى انتفاضة الموت بين يديك، حتى ولو لم تقل «أحبك». حتى وإن لم تذكرها رغم ما قلته من كلمات غزل في قاموس رجل وامرأة. فهل ما زلت محاصراً في كوني أنثى؟ فقط أنثى؟

كم راودتنى الأحلام فى فجر ليال طويلة بأن تمتد إلىَّ يداك بالأمان.. بالعفو.. بالتسامح والمغفرة عن تاريخ من الخوف ليس لى فيه ذنب! وامتد الحلم إلى ضمير يستوعبنى، وعقل يمنحنى البهجة والفرحة، وقلب يمنحنى الحرية والحياة.. رجل يقرؤنى.. وأكتبه.

ما زالت الرعشة تهزنى، ترجف كل ذرات جسدى، وما زلت أشعر بأن الحلم بعيد عنى، وأن أمنيتى التى ظننت يوماً أننى امتلكتها قد انفلتت اليوم من بين يدى. وخشيت وقتها أن تنتهى اللحظة دون أن ألامس بكفى بعضاً من الحلم.

فى هذه اللحظة من عمر الزمان اغتسلت من ذنوبى وتطهرت من خطاياى فأصبحت أنت توبتى، وأنت ذنبى الأوحد والأكبر.

وسألت: ماذا لو رحل الماضى بكل ما فيه.. حُلوه.. ومُرِّه؟ لماذا يبخل علينا القدر لأن نغفو -فقط لبضع لحظات- دون أن تطاردنا مشاهد الذكريات التى تحتل بجبروتها حنايا الذاكرة، وعقارب الساعة، وهواء الغرفة؟ ذكريات خياناتك، وذكريات خوفى.

فى هذه اللحظة من عمر الزمن تمنيت أن تقول لى بكل الصدق: «أحبك». وأقول لك بكل الحب: «أحتاجك». كلمتان تلخصان الحياة والأحلام والأمنيات.

حاولت تهدئتى، فكانت قبلة دافئة فوق الجبين تسحق آلام الرأس التى تتكرر بشكل يومى منذ سنوات طوال نسيت عددها . قبلةٌ فوق الجبين تهدئ الأفكار الثائرة والأحلام التائهة والجسد المرتجف فى مقبرة الزمن. ثم لمسة يد لخصلة من شعر تدلت فوق وجه شاحب لا ينضِّره إلا النظر إليك. وسألت نفسى: تُرى كيف شعرت بملمس

شعرى بين أصابع يديك؟ ولماذا لا تطول هذه اللحظة؟ ليتنى اختزلت كيانًا وروحًا فى هذه الخصلة من تلك اللحظة بين أصابع يديك! وليتوقف الزمان وتبقى تلك اللمسة هى ذلك السر الأكبر بيننا الذى يتوارى فى حنايانا ليضىء ملامح وجهينا وقلبينا كلما تذكرناه.

بضع لحظات فقط أحلم بأن أحياها بلا خوف، بلا رجفة جسد أو رعشة يد، بلا صقيع يمتد إلى دماء الأوردة الجافة ونخاع الرأس. بضع لحظات أختلسها من عمر الزمان، من عمر الحياة وعمر الموت، من عمرى أنا. لماذا يستكثرها علىّ الخوف ويأبى أن تمضى دونه فتمتد الخطوة دربًا، والدرب سفرًا، واللحظة ساعة، والساعة يومًا، واليوم عمرًا، والعمر دهرًا أعيشه فى خوف؟

– فاكرة أول مرة قابلتك فيها؟

– أيوه.. بصراحة ماكنتش عاوزة اليوم يعدى.

– تعرفى إن أنا كمان اتمنيت ده؟ كان نفسى أقول لك ساعتها إن أحلى حاجة فيكى ضحكتك.

«لم تكن تعرف أنى نادرًا ما أضحك. لقد أعجبك فىَّ أقل شىء يلازمنى. ضحكتى. وقتها خرجت من قلبى لأننى كنت فى أروع حالاتى. كم تمنيت أن تتكرر تلك الحالة التى كنت عليها يوم لقائنا. منعنى خجلى من أن أدقق النظر فى وجهك. أتفحص ملامحك لأحفرها فى خيالي وعقلى وذاكرتى، وتمنيت لو تأتى هذه الفرصة، وأن أستطيع أن أنظر إليك عن قرب بكامل تركيزى وذاكرتى.

كانت القلوب تحترق فى كل شبر فى العالم، والدماء تغلى، والعقول على وشك الجنون، وفى كل بيت تفاصيل حزن وثورة مكبوتة ضد هذا الظلم والقمع والقتل العلنى العشوائى الجماعى الذى تبثه الفضائيات على مسمع ومرأى من العالم كله. قتلٌ وذبح على الهواء مباشرة للأطفال وللنساء والعجائز والشباب، هدمٌ جماعى لأحياء سكنية كاملة، وقصفٌ لمنازل على من فيها، حرائقٌ ودمار فى بساتين الزيتون والتفاح، أشلاءٌ وضحايا ومجازر صهيونية تُرتكب ضد كل ما هو عربى، ضد كل ما هو إنسانى. واشتدت غضبة الناس الذين طفح بهم الكيل من تلك الممارسات الهمجية الشيطانية فخرجوا إلى الشوارع من كل بقاع الأرض يندددون ويهتفون ضد القمع وضد الظلم. وفى مصر هبت الشوارع ناراً واستعر وهج القلوب المحترقة ولهيبها.

كنت أشعر بالعجز وقلة الحيلة أمام إهدار كرامتى، كرامة الوطن، كرامتنا العربية والإنسانية. تمنيت لو كنت هناك، على أرض لبنان مع أهلى وأهلها تحت النار وتحت القصف، تمنيت لو أستطيع أن أحمل سلاحًا لا قلمًا، فلم يعد الوقت يناسبه الكلام. هو الآن لحديث السلاح.

اللحظه الواحدة تَفرق عُمراً ما بين الحياة والموت، ونحن نُضيع عمرنا ووقتنا فى مهاترات وصراعات فارغة بلا جدوى. يشتد عجزى وقهرى كلما شاهدت ما يحدث على شاشات التلفاز، حاولت ألا أتابع الأحداث دقيقة بدقيقة رحمة بنفسى من تلك المشاعر القاتلة بأنى مثل كل العالم حولى متواطئة على لبنان. تواطأت حتى ولو بصمتى، وما كانت كلماتى التى أصوغها فى جريدتى إلا نوعًا من هذا التواطؤ المباشر أو غير المباشر. فعندما أكتب لألعن الصهاينة وما يفعلون، لألعن الحرب والقتل، لا أكون سوى مجرد أداة لتفريغ شحنة غضب الغاضبين والتنفيث عنهم ولملمة حماستهم وتهدئة ثورتهم. هكذا تحولت الكلمة فى زماننا إلى أداة لقتل النخوة والقومية وإخماد نيران الغضب وذبح معانى النضال والجهاد، وقد كانت الكلمة من قبل شعلة النار وومضة النور التى تشعل الثورات وتغير تاريخ الشعوب والأمم. فهل وصلنا إلى هذا الحد من العدم والتواطؤ والموات؟ كنا هنا -مثلنا مثل بقية الناس فى كل أنحاء العالم- نجلس أمام الشاشات كل مساء نشاهد أنواع وألوان وأحجام القتل الصهيونى الهمجى، بينما كثير منا ينأى بنفسه عن مشاهد الدم فيدير مؤشر التلفاز بضغطة زر ليستمتع بالكليبات العارية والراقصات الفاتنات، وفى الصباح

نرتشف قهوتنا الممزوجة بالحليب، الممزوجة بطعم المرارة والعلقم والمذلة والقهر. كنت أموت وأحيا وأنا ألمح كفٌ صغير تشبث بثوب أمه حتى الموت، والفضائيات تسجل -لحظة بلحظة- تفاصيل استخراج جثمانيهما من تحت الأنقاض. أموت وأحيا وأنا أشاهد القتل الجماعى يبث عبر الشاشات للمسنين والنساء والأطفال والمعوقين وخيرة الشباب، للأمهات وللأبطال، والأجساد البريئة تتساقط أمامنا علنًا برصاصات وقذائف الغدر. تتساقط كفراشاتٍ رقيقة تحترق. فهل بعد الموت موت؟

وهل بعد القهر عجز؟

فى لحظة حياة حقيقية شعرت بها قررت أن أذهب إلى هناك. أريد أن أشعر بأنى ما زلت على قيد الحياة. ما زلت بشرًا يئن لأنَّات الآخرين ويتعذب لعذابهم. ما زال داخلى نبض البشر والآدميين. نخوتهم وكرامتهم وغضبتهم وثورتهم. ما زلت على قيد الحياة.

قررت أن أسافر إلى لبنان، حيث الجهاد الذى لا أجيده ولا يجيده ساستى، حيث العدو وجهًا لوجه، وعظمة أن تواجه خوفك وجهًا لوجه. قررت أن أذهب إلى لبنان.

– «لبنان! إنتى اتجننتى؟ مستحيل». قالها أبى بكل الإصرار والقوة والغضب.

– يا بابا ده تكليف من شغلى؛ لازم أسافر. دول كام يوم وهارجع على طول، وبعدين أنا هبقى ضمن وفد من الصحفيين، يعنى ما فيش قلق من الحرب، ده هايبقى فيه تنسيق للزيارة لحماية الوفد.

– بقول لك إيه! لا سفر ولا غيره. أهو ده اللى كان ناقص. مش كفاية وافقت إنك تشتغلى، وكمان صحفية، يعنى حبس واعتقالات وبهدلة، كمان عاوزة تسافرى لوحدك بلد تانية! لأ وإيه.. فيها حرب. إنتى باين عليكى اتجننتى.

– يا بابا افهمنى.. لو ما سافرتش ممكن أترفد من شغلى لإن ده تكليف مقدرش أرفضه. عشان خاطرى لازم توافق.

لم يكن السفر تكليفًا من الجريدة التى أعمل بها، بل كان تطوعًا من بعض النقابات، تكليفًا من ضمير بات ينغز فى قلبى ويوخز صدرى ويلهب أوردتى ودمائى. إنه قرارى الشخصى الذى سعيت له وحلمت بتحقيقه حتى ولو كان مصيرى الموت. وأصررت على موقفى فلم تعد التظاهرات التى تتم تحت حصار أمنى تجدى نفعًا. تظاهرات مرخصة مسبقًا أمام نقابة الصحفيين أو المحامين أو فى قلب غرف وأسوار مغلقة وأعداد رجال الأمن المحاصرين للتظاهرة يفوق أعداد المتظاهرين بعشرات المرات وعشرات العصى والعربات المصفحة. وقارنت ما بين أمرين: إما بقائى هنا يقتلنى الشعور بالذنب والعجز والاستسلام والموت وسط هتافات تقابلها عصى الأمن، وربما يتطور الأمر كعادته إلى مواجهة بين المتظاهرين وعساكر الشرطة فنأكل بعضنا بعضًا ونُفرغ شحنة غضبنا فى صدور بعضنا، وإما أن أواجه العدو الحقيقى، وفى الموقف والمكان الصحيح، حتى ولو ليوم واحد، أواجهه تحت قصف طائراته ومدافعه، حتى ولو لساعةٍ واحدة أتحدى فيها خوفى وموتى وعجزى.

قالت أمى:

- خلاص يا أبو ليلى. سيبها تسافر وماتضيعش منها شغلها. هو اللى بقالها، ما نبقاش ضيعنا منها كل حاجة. ارمى حمولك على الله وسيبها تسافر، وبعدين دى مش لوحدها، دى معاها ناس ياما.

- كل مرة تقولى لى الكلام ده. برضه لما جت تشتغل قلتى نفس الكلام، لكن المرة دى ما ينفعش. دى مطلّقة. فاهمة يعنى إيه مطلّقة؟ مش كفاية بتشتغل وطالعه نازلة قدام الجيران! اللى زيها تقعد فى البيت وما تتحركش لحد ما تتجوز. الناس ما بترحمش، خصوصاً لو واحدة اتجوزت واطّلقت. بيمسكوا سيرتها والعين بتبقى عليها ليل ونهار. مش عاوزين وجع دماغ.

- ما هى عشان مطلّقة بقول لك ارحمها إنت كمان، بلاش تخسر كل حاجة. جوازتها وشغلها. خليها فى ايدها شغلانة تصرف على نفسها لو ما اتجوزتش تانى. وإنت يا خويا ربنا يخليك ليها، لكن محدش ضامن عمره. وعموماً إذا حد سأل عليها من الجيران هانقول إنها عند عمتها اليومين دول.

«مطلّقة. خنجرٌ لذبح أى امرأةٍ فى مجتماعتنا العربية. كلمةٌ تحرق قلب كل امرأة فشلت فى زواجها حتى لو كان القرار بالانفصال قرارها هى، وتحقيقه كان فيه انتصار لها على تقاليد مجتمع لا يفهم معنى أن تقرر امرأة إنهاء علاقتها الزوجية بطلب الطلاق. مجتمع لا يغفر لها ولا يسامحها حتى لو كانت هى الضحية. مجتمع لا ينصفها مهما بلغ الظلم لها ومهما كان عذابها.

مُطلّقة. يا لها من كلمةٍ قاسية قاتلة ينهش بها المجتمع لحم حاملة هذا اللقب حتى ولو كانت قديسة!

.. كنت أحلم باستكمال دراستى، وأن ألتحق بعمل غير تقليدى بعد ذلك. ولم تنصفنى تقاليدنا الصعيدية من تحقيق الحلم الذى لم يفارقنى ليل نهار.. جامعة.. ووظيفة أحقق بها ذاتى وأثبت أننى لست مجرد أنثى مهمتها فقط أن تتزوج وتنجب الأطفال وتطهو الطعام وتنظف البيت، فللمرأة أيضًا -إلى جانب هذا- مهام أخرى يمكنها أن تؤديها. يمكنها أن تشكِّل وعى الناس وتُفعِّل إحساسهم بالمسؤولية تجاه الآخرين. يمكنها أن تساعد المحتاجين وتنصف المظلومين وتلبى حاجة الفقراء والمعوزين. يمكنها أن تعبر عن أحلامهم ومشكلاتهم، وأن تمثلهم فى البرلمان، وتساهم فى تحسين أحوالهم. للمرأة أيضًا رسالة إنسانية عامة يمكنها القيام بها. فلماذا تتلخص رسالتى وأحلامى فى رجل وأربعة جدران؟

لماذا تُختزل إمكاناتي في «عيل عيَّط.. وعيل نام»؟

حينما تقدم لخطبتي قلت له: «عاوزة أكمل تعليمي وأشتغل». وعندما قال: «موافق»، تم الزواج.

لا أذكر عدد الأعوام التي يكبرني بها، لكنها كانت كثيرة بالنسبة إلى فتاة في مثل عمري، ولكن حلم دراستي وعملي، أو بالأدق إثبات وجودي، كانا يسيطران عليّ، وأمام إصرار أبي على حرماني من استكمال دراستي الجامعية لأنها في عرف عائلتي «عيب وحرام»، وكنوع من العقاب لي بعد إصراري على رفضي الزواج من ابن خالي، وهو ما اعتبره هو وعائلتي «جبروت» من بنت مش فاهمة مصلحتها، وقلة أدب إنها تكسَّر كلام رجالة العيلة، وجدتني أوافق على من قال «موافق» للدراسة والعمل. وتم الزواج.

منذ اليوم الأول قررت أن أنجح في كل شيء، وألا أستسلم أبداً للفشل مرة أخرى مهما تكن الظروف أو المبررات، فكثير من النساء تزوجن عن غير حب ونجحن في زواجهن وأنجبن الأبناء ومارسن أعمالاً ناجحة أثبتن فيها تفوقهن ووجودهن. قررت أن أنجح في عملي وفي زواجي، لكنني بمرور الوقت أدركت أن النجاح ليس مجرد قرار نتخذه في لحظة تحد مع أنفسنا أو غيرنا أو ظروفنا، النجاح لا بد له من مقومات تؤدي إليه، وأنا.. أفتقر إلى الكثير من هذه المقومات، أهمها وأولها.. الحب.

فما أصعب أن تحيا امرأة مع رجل لا تعرف كيف تحبه، ولا تستطيع أن تقول له «أحبك» حتى ولو على سبيل المجاملة! وما أصعب ألا تملك امرأة طريقة لترويض مشاعرها تجاه شريك حياتها

حتى تستمر الحياة بينهما! ففى كل لحظة تعيشها معه دون حياة تنتهك حقوقها ووجودها، ومع كل لمسة منه انتهاك آخر لآدميتها وكيانها. أصبحت أكره تفاصيلى اليومية، أكره أن أصحو من النوم، واكره حتى النظر إلى وجهى فى المرآة، حيث أرانى أحمل وجه امرأة أخرى غيرى. صارت تطاردنى الكوابيس والأفكار المزعجة، وصرت أكره حتى عملى الذى عافرت من أجل الحصول عليه، واستسلمت للمرض وملازمة الفراش، وتحير فى أمرى الأطباء واشتدت حيرة أسرتى، أصابنى السقم والمرض وكثرة العلل دون معرفة السبب الحقيقى لها، وجاءتنى النصائح من الأقارب والجيران.

«دى لازم ملموسة، أو معمول لها عمل؛ كلام الدكاترة مش هاينفع لحالتها، شوفولها حل تانى».

ودون رغبة منى تنقلت بين منازل الدجالين من قارئى الفنجان والكف وفاتحى الكتاب والمتاجرين بالقرآن، وشاهدت الكثير من أمور الشعوذة وفنون السحر والنصب على خلق الله برضاهم طمعًا فى راحة البال. كدت أوشك على الهلاك، ولطالما راودتنى الأفكار بالانتحار، وكاد يصيبنى الجنون، أصبحت أرى أشياء يجن لها العقل، وأسمع أصواتًا يقشعر لها البدن، وصارت هذه الأمور المرعبة جزءًا لا يتجزأ من تفاصيل حياتى اليومية، وكنت على شفا أمرين، إما الانتحار وإما الجنون.

فقدت حبى لعملى الذى حاربت لأجله طوال هذه السنوات وضحيت بقلبى من أجل الحصول عليه. فقدت شهيتى للحياة التى تساوت قيمتها عندى بالموت، بل إن الموت آنذاك أصبح حلمًا بعيد المنال.

عادت نبرة التهديد مرة أخرى بحرماني من عملي عندما أبديت رغبتي في الانفصال، الانفصال حتى تستمر الحياة التي أفقدها يومًا بعد يوم ولحظة بعد أخرى، ولم يكن كل من حولي يعلم أني لم أعد أرغب في أي شيء، حتى عملي. لم يكن الأمر سهلاً أو عاديًا، فقد كان أشبه برحلة طفلة في دهاليز غابات إفريقية مليئة بالأخطار ومحاطة بالموت مع كل خطوة تخطوها وفي كل اتجاه.

ولكننا في النهاية انفصلنا لأواجه من جديد فشلاً أكبر لم أكن أتوقعه، ولم أسع إليه.

«ليه مصيري دايمًا متعلق في إيد ناس تانية غيري؟ ليه مفاتيح حريتي عمرها ما كانت معايا ودايمًا يملكها غيري؟ ولما أطلب شوية حرية من حقي تبقى منّة ومنحة منهم عليّ».

قالت أمي:

– قال يا مخلفة البنات يا شايلة الهم للممات.. ودول ستة.. ست بنات، والكبيرة دايمًا بتبقى مراية لاخواتها. دلوقتي الناس هاتشوف مراية الستة إزاي؟

بكت أمي وهي تحكي لجارتنا العجوز عن تعاستها لفشلي، عن مخاوفها من مستقبلي وما ينتظرني من فشل جديد: «البنت هاتضيع؛ فشلت مرتين. مرة خطوبة ومرة جواز. الناس مش هايسيبوها في حالها، هايقولوا لو ماكانش فيها حاجة ما كانش سابها.

– ماتخافيش يا أم ليلي. دي بنتك حلوة؛ بكره يجيلها عدلها.

– المثل بيقول: «قيراط حظ ولا فدان شطارة». ياريتها وحشة وليها بخت.. أعمل إيه يا أم عبده؟ دبريني».

ودبرتها أم عبده. قالت: بنتك معمول لها عمل. الحكاية باينة زى الشمس. أنا اعرف واحدة بيقولوا عليها شاطرة قوى ممكن تفك السحر وتعرف كمان مين اللى عمله.

قالت العرافة: «دى مكتوب عليها ماتشوفش راحة البال وتعيش طول عمرها شريدة. دى ملموسة من تحت الأرض وقرينها بيغير عليها، أصله عاشقها ورافض أى حد يدخل حياتها عشان كده بترفض كل اللى بيجيلها.. ومش هاترتاح ولا هاتعمر مع حد».

قالتها وهى تُقلِّب فنجان القهوة بين أصابع يديها الجافة وكفها المقحفة التى حُفرت بالكثير من الخطوط السوداء فتشققت يداها طولاً وعرضًا ربما بفعل الزمن، وربما بفعل الفقر والشقاء اللذين بدت ملامحهما جلية على منزلها المتهالك المُعفَّر بالتراب فى كل اتجاه، والذى خلا من أى قطعة أثاث عدا بعض الأرائك والوسادات البالية المقطعة التى خرج القطن الأسود من أحشائها.

كنت قد انتظرت طويلاً حتى انتهت العرافة من زبائنها الذين سبقونى إليها فى طابور طويل وبقى فنجان قهوتى محمومًا صابرًا مستسلمًا أمامى وقد انكفأ مقلوبًا فى طبقه ذى النقوش الباهتة. وكأن كلانا ينتظر ما سيفعله به الآخر. ينتظر أن تتحول أسراره وخباياه إلى مشاع تقرؤها العرافة بصوت عال وتبوح بها أمام الجالسين.

لم أرغب فى التنصت على حكايات الشاردات قبلى، واللاتى فضحت العرافة تفاصيلهن وهى تقرؤهن وتتلو أسرار فناجين قهوتهن. كان همى الشاغل فيما إذا كانت تعرف هذه المرأة بالفعل

بواطن الأمور وخفايا النفوس أم أنها مجرد مُدَّعية تحترف الدجل والكلام والضحك على الشاردين التائهين أمثالى.

وقعت بعض روايات الحاضرين فى أذنى دون محاولة منى للتلصص على أسرارهن. كلهن نساء. لا أدرى لماذا تأتى الأحزان دائمًا للنساء. ولماذا هُنَّ فقط من يسعين للبحث عمن يغيثهن ويساعدهن حتى فى البرامج الدينية أو الحياتية المختصة بسماع شكاوىٍ الناس تجد أن غالبية المتصلين والمتابعين من النساء. هل لأن معظمهن ضعيفات بلا حيلة ولا حول لهن ولا قوة؟ هل المرأة العربية فى مجتمعاتنا الذكورية هى المقهورة دائمًا وهى من تبحث دائمًا عن معين؟ عن من يمنحها شرعية للحصول على حقوقها التى لا تعرفها، وإن عرفتها فهى لا تعرف كيف تحصل عليها؟ إنه المجتمع الذكورى نفسه الذى يمنح الرجل الحق فى كل شىء، فى الحب بلا خوف ولا حياء، فى الاختيار بلا ضغوط، فى الحرية المتناهية بلا حدود أو شروط أو قيود، فى الضحك بصوت عال دون أن يتهمه أحد بقلة الأدب، فى الرقص، فى السفر، وفى السهر . هو الحق نفسه الذى يحصل عليه فى الخطيئة دون أن يوجه له اللوم، وهو ما يدعوه لاعتبار خطاياه مدعاة للتباهى والفخر، «ينفش ريشه» وسط أصحابه ويتقال عنه: «بارم ديله، ومقطع السمكة وديلها» لأنه واد «بُرُم».

وفى الخطايا لا يقع اللوم إلا على المرأة، رغم أن الخطيئة فعل يقوم به اثنان فتتحمله المرأة سواء كانت جانية أو مجنيًّا عليها، اختارت لنفسها الرذيلة أو سيقت إليها أو أجبرت عليها، فعلتها باسم الحب وشرعية الأمان الممنوح إليها زيفًا أو تحت الرغبة والانحلال أو

حتى بفعل الاغتصاب. في النهاية هي عاهرة أو محظية أو فاجرة أو منحرفة. كل هذه المصطلحات في مجتمعنا سواء، لا فرق بينها، فالمرأة دائماً هي الذنب الأكبر والعار الأكبر والخطيئة العظمى التي يأبى المجتمع غفرانها.

وأسأل: كيف حال النساء اللاتي عرفتهن؟ وكيف كنت في حياة كل منهن؟ مَن مِن هؤلاء اللاتي ألمحهن في طريقي باتت يوماً محمومة بهواها بين ذراعيك؟ ومن منهن عانت آثار قبلة وضعتها يوماً على شفتيها؟ ومن منهن ذاقت مرارة هجرك وعصيانك وقاست نيران هواك وعذابات فراقك؟ من منهن هتكت سترها واستبحت قلبها وجسدها؟ ومن منهن صدتك؟ وهل منهن من ذهبت تحكي لعرافة مثلي عن أسرار خيبتها وخبايا هواها؟ عن نفس الحيرة التي تغمرني؟ نفس الرغبة في الجنوح عن دائرة الزمن؟ نفس الحلم الذي يراودني كل ليلة للخروج عن المألوف وعمّا هو مفروض وموجود وواقع؟ نفس الاحتياج القاتل للأمان والدفء؟ نفس الحاجة الملحة والرغبة المحمومة والأماني الحالمة للحظة عشق وحيدة صادقة وآمنة وممتدة.. لحظة حياة بين يديك.. لحظة موت.. لحظة بعث؟

«يعاودني الصداع المزمن برأسي وكأنه دق قوي بمطرقة في عظام جمجمتي. تشتد رجفتي ويمتد الصقيع إلى جسدي. صقيع يتناقض مع جمرات لهيب أحسها تشتعل في أوردتي، كم أنا بحاجة الآن إلى رقوة جدتي وبركتها!

لقد ظننت أن اعترافك لي بكل هذه الخطايا بمثابة التطهر منها، وأن مصارحتي بها هي نوع من التكفير عنها والاغتسال من إثمها.

ظننت، وغلبتنى ظنونى. قال الرب: (تعالوا إلىَّ يا جميع المتعبين وأنا أريحكم). وهأنا يا ربى متعبة وتائهة فلتكن مشيئتك، أقولها بالرضا وبالسلام والاستسلام لقضائك. «فلتكن مشيئتك». فقط أدعوك أن تكون رحيمًا بى.

كان القصف الصهيونى موجهًا ومكثفًا إلى الضاحية الجنوبية من لبنان. وطول الطريق لم أكن أفكر إلا فى أمر واحد: ماذا لو بقيت فى لبنان وانضممت إلى فصيل من فصائل المقاومة؟ وهل أستطيع؟

هبطت الطائرة إلى مطار بيروت ورفضت وزملائى دعوات بالراحة بأحد فنادقها، وفضلنا الذهاب مباشرة إلى ساحة الحرب.. إلى الجنوب.. إلى قانا.. لكنَّ تواصل القصف الهمجى الصهيونى حال دون ذهابنا إلى هناك، واضطررنا للانتظار فى قلب العاصمة المشتعلة بالحزن والغضب لمدة يومين. كنا على وشك الموت كمداً خلالهما؛ نتابع ما يحدث على شاشات الفضائيات، ومن خلال مؤتمرات صحفية للساسة اللبنانيين، ولا نستطيع إنجاز مهمتنا التى جئنا لأجلها، مواجهة الموت فى الجنوب مع أهل الوطن، كسر خوفنا والتأكيد لأنفسنا أننا ما زلنا على قيد الحياة، ما زلنا بشراً.

وحان موعد الذهاب. حانت لحظة النظر إلى داخلنا، إلى ما فعله العدو بنا وما فعلناه نحن بأنفسنا. حان موعد الذهاب إلى الجنوب.

الطريق إلى قانا كان قاسيًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، آثار الدمار والخراب فى كل شبر فوق الأرض وتحتها أيضًا. الكثير من أسلاك الكهرباء والهواتف التى ما زالت مشتعلة تئن باللهيب، وهو ما يعنى أن تلك القرى يكسوها الظلام مع غياب الشمس، وأنها تنفصل

تماماً عن العالم طوال الليل، فلا هواتف للاستغاثة أو لاستدعاء سيارة إسعاف أو للاطمئنان على قريب أو حبيب بعد كل غارة وكل قصف، لا شاشة تلفاز لسكان الجنوب تخبرهم بما يحدث لهم وحولهم. بطول الطريق تناثرت بقايا حرائق ظلت مشتعلة لساعات، وربما لأيام، بالمنازل والحقول، وعلى جانبى الطريق احترقت الأشجار والنخيل. أدخنة كثيفة حولنا أعاقت الرؤية وأحرقت العيون وأدمت القلوب. رائحة الأجساد الصغيرة الغضة المحترقة تفوح ملء السماء والأرض. أوقفت مسيرتنا حفرة هائلة فى منتصف الطريق أحدثها صاروخ مدمر استحال مع وجودها سير السيارات، فاضطررنا للنزول والسير على الأقدام. كثير من العربات مقلوبة ومحترقة. الدمار على يسار الطريق يلحق بكل شىء، والبحر على اليمين يبكى وينعى كل شىء. على حافة القرية وقفت بقرة داخل حديقة محترقة لبيت منهار انتفخ ضرعها بالحليب حتى كاد ينفجر، يبدو أن أصحابها رحلوا ولم يتمكنوا من أخذها، ذهبوا وتركوا كل شىء. أتُراهم هربوا من قصف النيران أم أنهم ماتوا تحت أنقاض منزلهم وبقيت بقرتهم!

المكان كان يعج بالصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء والفضائيات وقوات الأمم المتحدة وبعض من فرق إنقاذ الصليب الأحمر، وبدا لى سؤال ألحَّ على خاطرى وسط ذهولى وحزنى. ما الذى يخيف أكثر: طائرة عسكرية عملاقة تطاردك بنيرانها وقذائفها من السماء، أم طفل شهيد معبأ وجهه وجسده بالدماء والتراب خارج لتوه من تحت الأنقاض؟ أيهما يفزع ويقبض القلب أكثر؟

أمام أحد المنازل المنهارة وقفت. سقط جدار المنزل فكشف عن ستر ما بداخله: ناموسية بيضاء تنتصب فوق سرير طفل، وإلى جواره وقفت دراجة صغيرة، وعربة أطفال، وإناء مكشوف تعفن ما بداخله. كل شيء يعلوه الرماد المحترق. تقدمت بضع خطوات للداخل تلهث أنفاسى وترتجف قدماى وأنا أسير فوق أطلال حياة، وربما فوق بقايا أجساد بشر. وجدت سجادة صلاة مطوية فوقها مسبحة خضراء ومصحف مفتوح على سورة الحديد. يقولون إن سورة الحديد تحمى من الهلاك! وإلى حد كبير كان هذا البيت أفضل حالاً من بقية بيوت القرية، ربما أنقذت سورة الحديد أهل هذا البيت!

فوق كتلة من رماد جلس رجل فى العقد الخامس من عمره يغمر وجهه بين ركبتيه وفي يده سيجارة مشتعلة لم ينتبه إلى أنها أوشكت على النهاية. نسيها بفعل الحريق المشتعل في قلبه. كان ينتفض، وفجأة رفع وجهه إلى السماء وأخذ يستغيث: «يارب.. يارب». كررها مرات ومرات، مزق بها قلوبنا وضمائرنا، وأضاف إلى وجعنا أوجاعًا جديدة تبدو بلا نهاية. اتجه نحوه أحد المسعفين وحاول تهدئته ثم طلب منه أن يذهب معه للتعرف على جثث لأفراد عائلته استخرجت لتوها من تحت الأنقاض، فأجابه الرجل: (لا أريد أن أتعرف على أحد؛ أريدهم أن يبقوا فى ذاكرتى كما عرفتهم، وأن تبقى آخر صورة لهم كما كانوا على قيد الحياة).

وأشار إلى حيث الركام والدمار قائلاً: «هنا وُلدوا وعاشوا. وهنا رحلوا. ماذا يفيد حينما تكتب أسماؤهم فوق نعوش تسير أمام عيون عالم يرفض أن يرى ولو بالضمير! عالم بلا قلب أو ضمير».

«هذا دمنا يروى تراب الأرض. وهذه الذخائر المقدسة من لحمنا وبراءتنا وطفولتنا نرتضيها ونهديها ونقدمها على مذبح الحرية من أجل لبنان ومن أجل الكرامة العربية والعزة العربية، وفداءً للوطن. فهل يقبلنا الله قربانًا؟».

كلمات قرأتها تنطق بها وجوه شاحبة بريئة غابت عنها معالم الحياة. أطفال انتفخت رؤوسهم وتيبست أطرافهم وتكدست أجسادهم داخل توابيت حمل كل منها اسمًا ورقمًا، أو كتبت عليه كلمة «مجهول»، لأن أحدًا لم يتمكن من التعرف عليه.

.. «وعد وهبة» اسمٌ لن أنساه، ولن ينساه الضمير الإنسانى، قبل عشرة أيام فقط من المذبحة كانت ولادتها، فور خروجها من رحم أمها إلى الحياة استقبلتها نيران الجحيم فى الجنوب، حمل اسمها جزءًا من اسم عملية أسر الجنديين الإسرائيليين اللذين أسرهما حزب الله فتذرع العدو الصهيونى بهما كسبب للحرب، وأطلق حزب الله على عملية الأسر هذه (الوعد الصادق)، وكأن القدر شاء أن يرتبط مصيرها منذ لحظة ميلادها بمجريات الأحداث فى لبنان حتى النهاية. منذ أن ولدت «وعد» لم تكف عن البكاء، فكيف لرضيعةٍ مثلها أن تهدأ وأصوات الدبابات والطائرات والمدافع «تطحن» و«تدك» المنازل والأهل؟ لم تحظ «وعد» بنسمة هواء نقية لبلدها الجميل، ولم تنعم يومًا بالنظر إلى جمال ضاحية الجنوب وسحر سمائه وزرعه، لم تذهب يومًا للتنزه فى الجبل، وقبل أن تفتح عينيها ويتحدد لونهما «دكت» الطائرات الصهيونية منزلها لتسقط «وعد» وأسرتها من الطابق السادس وتصبح جزءًا من حطامه ورماده وأحزانه. عندما

بحثت فرق الإنقاذ بين أنقاض المبنى وجدوا «وعد» وقد تعشق جسدها بصدر أمها تحت الركام.

كانت عدسات كاميرات الصحفيين والقنوات الفضائية تصور الحدث لتنقل مشاهد الموت بلا استحياء. فما جدوى الصورة لجثامين بريئة أضحت جزءًا من رماد؟

رحلت «وعد» قبل أن تطأ قدماها بلاط منزلها، قبل أن تمرح بأرجوحة العيد، وقبل أن يوضع فى قدميها حذاء العام الدراسى الجديد أو هدية عيد ميلادها الأول. رحلت «وعد» وصمتت عن البكاء صمتًا أبديًا.

ها هو مشهد آخر لامرأة حبلى استشهدت فى القصف، ومن رحمها سقط جنينها وتعلق فى «خلاصه»، تدلى من حبله السُّرى. حاول رجال الإنقاذ أن يخففوا بشاعة الصورة عنا، خاصة عندما رحنا جميعًا فى البكاء رجالاً ونساء.

حاول رجال الإنقاذ أن يستروا حرمة الموتى التى انتهكها الصهاينة، وأن يعيدوا للموت قدسيته التى استباحوها. حاول رجال الإنقاذ احترام الجثامين واحترامنا فوضعوا فوق الجنين وأمه بطانية فى زمنٍ لا يحترم البشر ولا التاريخ، زمن لا يحترم إلا الأقوياء.

.. هنا وسط المذابح والنحيب أدركنا أهمية «البطاطين»، فهى تخفى مشاهد الأجنة المتدلية المعلقة فى أرحام أمهاتهم. مهمة أخرى لها لم نكن لنعرفها لولا الذهاب إلى ضاحية الجنوب. على بعد خطوات قليلة رأيت كفًا صغيرة. أصغر مما ترى أى عين. أصابع رقيقة. أرق مما تحمل أى يد، انغمست فى رماد كثيف. أكثر مما يتخيل أى عقل!

امتدت إليها يد عامل الإنقاذ محاولة سحب الجسد الصغير من تحت كومة الرماد، ترتعش يد العامل وهي تحتضن الكف الصغيرة الغضة. يا الله! ما زالت جميلة تلك اليد رغم الدماء والتراب والصقيع والزرقة التى أصابت أوردتها فى لهيب أغسطس. يخرج الجسد تدريجيًا من تحت الأنقاض كأنه ملاك بات فى مهد! فهل رأيت من قبل ملاكًا فى المهد؟ فى حولا والغسانية والشياح والغازية والقصيبة وبنت جبيل و.. مئات الأطفال تحت الرماد والأنقاض ووسط النيران يجعلوننا ندرك من هم ملائكة المهد.

يخرج جسد الصغير بعض الشىء، إلا أن هناك ما يحتجز اليد تحت الأنقاض، يرأف عامل الإنقاذ به، يحاول ألا يؤلم الصغير الذى تشبع جسده ألمًا وإيلامًا واستشهاداً، ينبش العامل بكلتا يديه محاولاً إخراج الذراع الأخرى فيجد الكف الصغيرة -رغم الموت- قابضة على قطعة من قماش يعجز العامل عن فكها فيسحب طرف القماشة رويداً رويداً، فإذا به يكتشف أنه ثوب أم الصغير الذى تشبث بطرفه خوفًا من أن يفارق أمه، فرحلا معًا.

انتقلنا إلى حىّ هونين، حيث المزيد من الألم، حيث المزيد من الخراب والدمار والهدم وجثامين الشهداء.

عندما وطئت أقدامنا مداخل الحى كان هناك عدد من رجال الإنقاذ يعاونهم بعض شباب الحى على رفع جدار لأحد المنازل هوى فوق رؤوس ساكنيه، فانكشف ستر ثلاثة جثامين لأم وطفليها. كان أحد الطفلين يلف ذراعيه حول عنق أمه، وعندما حاول عامل الإنقاذ فصلهما لحمل كل منهما فى نعشه ترقرقت دمعة من عين الصغير

فسالت فوق وجهه الجريح المعبأ بالتراب والخالى من الحياة. وقتها لم أتمالك نفسي، شعرت بدوار شديد، قبضة أطبقت على صدرى فعجزت عن التنفس. رغبة مكبوتة في الصراخ والجنون والبكاء. شعرت وكأنَّ روحي تخرج من جسدى لتلحق بمواكب الشهداء الذين أقف في حضرتهم جلالاً وموتًا.

غابت كل ذكرياتي التي لطالما طاردتني بطول سنوات عمرى، غاب الخوف من الموت، فهأنا محاطة به في كل مكان حولي، أحياه ويدب في جسدى. كان خوفي آنذاك هو أن أعيش. وددت لو أرحل في رحاب هؤلاء الذين ملأت جثامينهم الكون حولي. تلخصت حياتي في دمعة ونسمة هواء أبت أن تدخل صدرى لتمدني بالحياة فغبت عنها.

لم أشعر بشيء إلا عندما أفقت على ألم وخز في وريدى.

وتدريجيًا بدأت أسترد وعيي، فإذا بي أرقد فوق سرير حديدى بالمستشفى بينما يحاول الطبيب إفاقتي.

كانت هناك العديد من الوجوه تلتف حولي. تدريجيًا بدأت تعود إليَّ ذاكرتي، وأدرك أن هؤلاء كانوا ضمن وفود جاءت معنا لزيارة الجنوب، وكان وجهك بينهم، وجه رأيته قبل الآن.

في اليوم التالي أصررت على استكمال رحلتي، ورغم نصائح الطبيب بالراحة، فإنني لم أفهم أى راحة يقصد وسط تفاصيل الموت الذى عشته فصار وشمًا تاركًا بصماته في قلبي وذاكرتي. توجهت إلى بعلبك، وتكررت أمامي مشاهد الأمس بوحشيتها وقسوتها ووجعها، وأثناء سيرى سمعت صوت بكاء ونحيب يخرج من داخل مبنى كبير، فذهبت باتجاه الصوت.

كانت امرأة أربعينية تقف فى بهو كنيسة السيدة العذراء، أضاءت الشموع ورفعت وجهها تخاطب تمثالاً للسيدة مريم، قالت وهى تجهش فى البكاء:

(أخذوا ابنك وصلبوه، وأخذوا ابن فاطمة الزهراء وقطّعوه، وهاهم قتلوا ابنى ولم يتركوا من جسده شيئًا، فبحق معزتك عند الله ادعى لى بالانتقام من الصهاينة، ولتباركى يا «بتول» رجال المقاومة والسيد حسن نصر الله)!

تذكرت جدتى عندما سمعتُ المرأة المسيحية تدعو لنصرة حسن نصر الله المقاوم المسلم. تذكرت جدتى المسلمة حينما ذهبت لتضيء الشموع فى كنيسة سانت تريز وتمنحنى نقودًا أضعها فى الصندوق الخشبى المجاور للصندوق الزجاجى الذى يرقد فيه تمثال القديسة تريز.

ما رأيته كان مليون قنبلة وزهرة، فهل تعرف ماذا تفعل قنبلة فى وجه زهرة؟ فى لبنان عرفت. ومن لبنان نعرف. مليون قنبلة فاجرة مدمرة وزهرةٌ رقيقةٌ بريئة وطاهرة ماتت مثل «وعد» تحت الرماد.

جئت إلى لبنان لكى أكتب من قلب الجرح، ولم أكن أعلم ما معنى الكتابة من قلب الجرح، ثم أدركت أنها تعنى أن تحمل فوق جبينك الصمت حين تدخل إلى ضاحية الجنوب فتطأ قدماك وجه طفل صغير انزوى بين أحضان أمه فى الرماد، أو تنغرس قدمك فى قلب رضيع فقد حياته بين الأنقاض، عانى وحده فعل القصف، وفعل الحرق، وفعل الهدم، وفعل الخوف، وفعل الموت، فمات.

الكتابة من قلب الجرح كأنك تنبش بعينيك ويديك وقلبك عن ناج

من بين مئات الشهداء. أن تموت فى اللحظة ألف مرة ومرة وأنت تبتلع مرارة قهرك وعار صمتك، وأنت تحفر بقلمك حروف كلماتك فوق جثامين الشهداء، بينما تضع ضميرك وقلبك فى ثلاجة مجلس الأمن و«ديب فريزر» الأمم المتحدة ومقابر الإنسانية جمعاء. وأنت.. تجمع يداً من هنا وساقاً من هناك لشهداء تمزقت أجسادهم وتناثرت أشلاؤهم دون أن تقام لهم حتى سرادقات عزاء.

«زرع.. حصد.. قتل.

إيه رأيك فى البقع الحمرا.. يا ضميرالعالم يا عزيزى.. دى الطفلة مصرية وسمرا.. كانت من أشطر تلاميذى.. زرع.. حصد.. قتل.. انتهى الدرس».

كانت هذه قصيدة لصلاح جاهين كتبها حينما أغارت طائرات العدو على مدرسة بحر البقر المصرية بمحافظة الشرقية، وها هى نفس الكلمات تفرض نفسها الآن على ساحة الأحداث، فقط تعديل بسيط لكلمة أستأذن فيها جاهين.. (دى الطفلة «عربية» وسمرا.. كانت من أشطر تلاميذى).

«عربية» يا سيدى الشاعر الكبير.. «عربية».. لبنانية أو فلسطينية أو عراقية أو سودانية أو سورية أو مصرية.. إنها الطفلة «العربية» نفسها يا سيدى الشاعر جاهين.. الشاعر بألمى الآن.. والشاعر بأنينى مسبقًا. حينما تنظر إلى ما حدث تجد المشهد ذاته يتكرر. بنفس الوحشية والهمجية والعنصرية والقسوة. بنفس العدو. ما حدث منذ مجزرة بحر البقر هو ما يحدث الآن فى لبنان، هو نفسه ما يحدث كل يوم فى فلسطين وفى العراق. كراسات وأقلام ومقاعد

وثياب وعرائس، كتب وألواح وألوان اختلطت جميعها بدماء وردية ورماد ودخان. فمتى سيكف التاريخ عن إهانتنا؟

ثمة أطفال في قانا ما زالت أجسادهم تحت الرماد..

ثمة أطفال في غزة ما زال صدى صرخاتهم يتردد في الليل..

ثمة أطفال في بغداد ما زالت أنّاتهم تعلو فوق أزير الطائرات العسكرية العملاقة وفوق انفجارات السيارات المفخخة الصهيونية في أسواق المدينة وشوارعها.

ثمة أطفال في عالمنا العربي ما زالوا يسألون:

(أين نحن من ضمير العالم؟ وأين ضمير العالم منّا؟).

تركت الجنوب.. ودّعت قانا.. قانا الشاهدة والشهيدة.. قانا المعمدة بالدماء.. سلامٌ عليها وعلى أطفالها يوم يبعثون.

حاولت الوصول إلى فصيل من فصائل المقاومة، لكنني فشلت لأسباب أمنية، فالوقت لم يكن مهيأ لمثل هذه اللقاءات.. الوقت وقت حرب.. لا مقابلات ولا كلمات، لم يكن متاحًا إلا للساسة والمسؤولين الحكوميين، ولدينا منهم الكثير في مصر، يرتدون نفس البزات السوداء والياقات البيضاء والضمائر الرمادية. لم تكن حالتي تسمح بمثل هذا النوع من اللقاءات، وفشلت كل محاولاتي في معرفة الطريق المؤدي للنضال الحقيقي، واستسلمت للصمت.

كانت رحلتي قاسية. وقتها أدركت أن الخوف الذي عشته في حياتي لم يكن سوى «مزخة» أمام ما رأيته في الجنوب، وأن الموت الذي عشت أخافه وأنا أرتجف في جلدي رعبًا من صفعة على وجهي من يد أبي الغاضبة لم يكن إلا "لعب عيال".

وقابلتك. كنت فى بهو مطار بيروت أثناء انتظارى لموعد الطائرة، وكنت قد انتشيت عندما علمت بخبر عودة أهل الضاحية إلى الجنوب بعد انتصار المقاومة التى دحرت العدو وأعادته إلى مخابئه وأجبرته -رغم جبروته ومعداته وآلة حربه- على الانسحاب ليلاً من حدود البلدة، وأن أهل الجنوب الذين هرب كثيرون منهم من تحت القصف قد عادوا باحثين عن خرائط جديدة لمنازلهم وأحيائهم وقراهم، عن ومضة نور تخرج من تحت رماد الأنقاض، عن بادرة أمل للحياة ونبتةٍ يزرعونها فى أرض يعالجون حرقها ويضمدون جراحها. وقابلتك وأنا يملؤنى الأمل فى أن أحيا غداً أفضل ينسينى مرارة الماضى ودماره وموته وقسوة ما فيه.

كنت أجلس وحيدة، أشرب قهوتى بالحليب حينما جئتنى فى استراحة مطار بيروت، بينما أنتظر النداء لموعد الطائرة العائدة إلى مصر.

– صباح الخير. (قلتها لى، وعندما نظرت إليك كدت أصرخ: أنا أعرفك. لكننى تجاوزت ذهولى ودهشتى وتمالكت نفسى وتخطيت حيرتى ثم أجبت).

– صباح النور.

– أنا خالد الراوى. محامى مصرى.

– وأنا ليلى عابد. صحفية.

– طبعًا عارفك؛ إنتى الصحفية الوحيدة اللى أغمى عليها فى زيارة الجنوب. يا ترى عاملة إيه دلوقت؟

– الحمد لله. إحنا اتقابلنا قبل كده. صح؟ فى المستشفى. مش كده؟

– أيوه. كنا عاوزين نطمّن عليكى، ورحت مع مجموعة من زمايلى، ولما الدكتور طمنّا ماحبّتش أزعجك تانى.

– لا أبداً. أنا شاكرة لحضرتك اهتمامك، واعذرنى ماقدرتش أشكرك وقتها؛ حالتى كانت مش قد كده ومكنتش مركزة.

– أنا فاهم. تسمحى لى أشرب معاكى فنجان قهوة لحد ما توصل الطيارة.

– يا خبر! اتفضل طبعاً، أنا آسفه ماعزمتش عليك بحاجة.

وجلسنا.

تفتكر معناها إيه إنى أشوفك فى أحلامى قبل ما أقابلك؟ معناها إيه إن حد يحلم بحد أكتر من مرة وبعدها فجأة يشوفه قدامه موجود فعلاً؟ بشر من لحم ودم مش مجرد حلم أو وهم. هو ده اللى حصل لى معاك. كتير حلمت بيك، ولما لقيتك قدامى فقدت للحظة قدرتى على التمييز بين الحقيقة والحلم، وماقدرتش أعرف إذا كنت صاحية فعلاً ولا عينى غفلت وشفتك تانى فى منامى. كنت باسمع الحكايات دى فى أفلام السيما، وكنت أقول إنه مجرد كلام أفلام، لكن لما حصل معايا اكتشفت إن حاجات كتير بتحصل لنا ونقف قدامها عاجزين عن تفسيرها، واتأكدت من الكلام اللى بيقول إن السينما ما هى إلا واقع تم تصويره وإعادة إنتاجه بشكل فنى. وحسيت إنى نجمة لفيلم بدأ عرضه على أرض الواقع.

كان وجهك يشع نوراً وحيوية وبريق شباب وحماسة لم ألمحها فى شخص قبلك. جلست أمامى كوهج من نور، حاولت إخفاء ارتباكى ورعشة صوتى غير المبررة فبادرتك بالسؤال:

- هو حضرتك كنت هناك ليه؟

- أنا كنت ضمن وفد تابع للجنة حقوق الإنسان. يعنى.. بنحاول نرصد اللى بيحصل عن قرب رغم إن المسألة مش محتاجة قرب، الحكاية واضحة زى الشمس قدام العالم كله وبنتابعها ليل ونهار فى التليفزيون، مشاهد تطيّر العقل وتحرق الدم.. و...

.. ظللت تحدثنى وأنا أسمعك ملء حواسى وعقلى، وأنت تغرس نبرات صوتك فى شرايينى وجلدى بينما أستمتع بكل حرف تنطق، وكل نظرة أنظرها إليك.

مر الوقت ولم أشعر به، فلا أعرف كم منه مضى، ولم أفق سوى على صوت الميكروفون يعلن عن قدوم الطائرة، وفوجئت بك تصطحبنى إليها وتخبرنى بأنك مسافر على متنها فى نفس رحلة العودة إلى الوطن.. إلى مصر.

تمنيت لو أن الرحلة تطول، لو أن الطائرة تجوب بنا أنحاء العالم فتظل تحلق فى السماء بلا توقف ولا نهاية، تمنيت ألا ينتهى الوقت وأن تتوقف ساعة الزمن ونحن معًا. تمنيت أن يمتد بنا العمر وأنت تحكى وأنا أسمعك وأشعرك وأراك.

كان لحديثك حلاوة فتحت شهيتى على الحياة، ملأت كلماتك قلبى أملاً وأحاطنى صوتك سعادة وهناء لا علم لى بهما من قبل، ولا أعرف ما السبب ولا كيف حدث هذا بتلك السرعة وذاك الجنون.. ولماذا أنت؟

حدثتنى عن نفسك.. عن تاريخك ونشأتك وعائلتك وأحلامك.

حدثتنى عن علاقات مضت وعلاقات قائمة، حدثتنى عن أسرار

الماضى بأيام حزنه وسعادته.. عن نوبات جنونك وأصحابك ونكاتك وأغنياتك المفضلة.

حدثتنى كثيراً ولم أرتو منك لحظة واحدة، فكلما تحدثت اشتد ظمأى إليك. كنت أنظر إليك لكننى أشعر بأنى لا قدرة لى على حفظ ملامحك فى ذاكرتى، فمشاعر فرحتى وبهجتى ونشوتى ولهفتى للقائك جميعها حالت دون أن أحفر ملامحك فى ذاكرتى، انتهت الرحلة ولم أرتو منك بعد.

انتهت رحلة الطائرة، وبدأت رحلتنا معًا.. وحكايتنا معًا.

تبادلنا أرقام هواتفنا، ووجدتنى قد عدت من أرض الحرب منتشية بعلاقتى بك. وانتظرت اتصالاً منك. انتظرتك كثيرًا. وطالت أيام اشتياقى وانتظارى لك دون أن يأتينى صوتك.

«طول عمرى ماشية جنب الحيط. ده لو ما كانش جوا الحيط، بيقولوا إن كده أأمن، أحيانًا أحس إن نظريتى صح، لكن لما افكر فى اللى بيحصل حواليًا ألاقى إن الدنيا محتاجة لشوية مغامرة عشان تبقى أحلى، وعشان ده يحصل لازم يكون لى قلب جرىء شوية.. مغامرة مجنونة لكن محسوبة».

بعض من المغامرة يمنح الحياة بعضًا من البهجة والنشوة، قليلاً من الانطلاق والجنون والحماقة، بعضًا من الهواء الرطب والنسيم الصحو، بعضًا من رائحة الصبا ونكهة الشباب الذى لم أعشه بعد. بعض من الحماقة يمنحنى بعضًا من المتعة. استفزتنى الفكرة والرغبة فى الجنون والجنوح لارتكاب حماقة ما، لكننى سرعان ما سألت نفسى:

– أى حماقة أستطيع أن أرتكبها للحصول على هذه المتعة؟ وغلبتنى الحيرة عندما استنفدت قدرتى على اكتشاف شىء قد يسعدنى، ولو لبعض الوقت، ويثنينى عن التفكير فيك وأنت من أهملت موعدى الذى لم نتفق عليه، وأنت من نسيتنى بعد أن سيطرت على عقلى وتفكيرى. أدركت أننى لا أجيد الجنون رغم اتهامى بأننى صاحبة القرارات المجنونة والأحلام المجنونة، ورغم ادعائى دائمًا بأنى امرأة غير تقليدية. الآن.. لا قدرة لى على الجنون، ولا على اتخاذ موقف أو ارتكاب فعل غير تقليدى. الآن.. لا حيلة لى أمام طوفان التفكير فيك وعجزى عن الهروب من ذكرى لقائنا معًا.

فى النهاية قررت أن أبدأ أنا الاتصال بك، كان هذا هو الفعل الوحيد الذى رأيته آنذاك غير تقليدى، وحتى أخفى خجلى قررت أن أتعلل بأى سبب لمبادرتى بالاتصال، وبحثت عن السبب فلم أجده، ورغم هذا قررت الاتصال. رنَّ الهاتف كثيرًا. وعندما عزمت على ألا أكرر الرقم وجدتنى أعاود ثانية الضغط على أزرار الهاتف، وخلقت لنفسى المبررات. قلت: ربما كان غير موجود، ربما لم يسمع صوت الهاتف. ربما.. ربما.. ربما.. وبعد عدة رنَّات أجبت:

– آلو.

– مساء الخير.

– مساء النور.

– آسفة إذا كنت صحيتك من النوم أو لو كنت اتصلت فى وقت مش مناسب.

– لا أبدًا.. أنا كنت بصلى.

– تقبل الله.

– منّا ومنكم.

شعرت أنك لم تعرف صوتي، وأن نبرة استفهام ملأت صوتك، لكنك لم تسألني، فأسرعت أقول:

– أنا ليلى. الصحفية.

– بتاعة لبنان. أهلاً أهلاً.

أهلاً.. أهلاً.. قلتها لي ترحيبًا وسعادةً. قلتها لي فتملكتني وملكتني. ومرة أخرى دار بيننا الكثير من الحوارات في شتى ألوان الحياة. في السياسة وفي الدين وفي الحب. تعارفنا ولم نكن قد التقينا ثانية بعد، كانت أحاديثنا وسيلة أخرى لأن أعرفك عن قرب دون أن ألقاك. منها تعارفنا، ومنها تصادقنا، ومنها اقتربت منك، ومنها أحببتك، ومنها خفت منك.

قلت لي يومًا إن المتصوفين يؤمنون بأن الدنيا إذا كَسَتْ أوكست، وإذا حَلَتْ أوحلت. وها هي دنياي عندما كستني بك أوكستني، وعندما حلت لي بك أوحلتني.

صدق المتصوفون.. وصدقت.

حان موعد لقائنا الثاني. هذه المرة في قلب الوطن. في قلب قاهرة المعز. موعد تمنيته كثيراً، ولقاء كم بت أحلم به. كم تمنيت أن أتفحص ملامحك عن قرب! وعندما حان الموعد وكان القرب، عادت تفاصيل ملامحك تتوه مني. ظننت أن نظرة واحدة إليك ستحفر تفاصيلك في ذاكرتي، وأن لمسة وحيدة من يديك ستمنحني أمانًا بطول العمر، إلا أنه عندما حانت تلك الفرصة أضاعها وأفسدها

الخوف، فكلما حاولت تدقيق النظر إليك، غابت ملامحك عنى، وكلما اشتد حنينى لدفء يديك استفزنى الخوف وعاودتنى رعشة الجسد.

كم أنا بحاجة الآن إلى رقوة جدتى وبركتها:

(١٤٠ سورة على جتتك منشورة. تكفيكى شر الحسد والنفس والعين والضرر. يا بير بلا قعر.. يا كف بلا شعر.. والعين عنك يا ضنايا تفترق.. كما افترق الندى عن الورق.. والعين عنك يا ضنايا تفترق.. كما افترق الندى عن الورق).

إنها الذاكرة التى تأبى أن تهدأ أو تنام.

مرة أخرى جلسنا تحيطنا موسيقى «زامفير» فى هذا الركن الكلاسيكى بقلب الكافيه الشهير وحولنا نفس الإضاءة الخافتة للمصباح الكلاسيكى الهادئ. حدثتك عن خوفى منك، من أن أكون فى حياتك أنثى. مجرد أنثى. مثلى مثل أى امرأة غيرى مرت بحياتك. قلت لى:

– أنت حالة مختلفة. صدقينى. كل المشاعر التى أحس بها تجاهك أشعر بها للمرة الأولى فى حياتى.

ثم استطردت حديثك قائلاً:

– نفسى تسافرى معايا فنَيسيا.

وبنبرة مازحة تخلط بجد:

– إيه رأيك.. تسافرى معايا؟

فضحكت.. ولم أرد.

– تعرفى إن فنيسيا دى بلد العشاق؟ بيسموها المدينة الرومانسية. أصلها مدينة عائمة، كل مبانيها ومطاعمها وفنادقها فى الْمَيَّه. حتى

البياعين بتوع الخضار سوقهم في الْمَيَّه. بيبيعوا بضاعتهم من قلب المراكب والناس بتشترى منهم من قلب البيوت العايمة. في المساء تكون المدينة أجمل وأروع، نفسى نركب سوا الجندول. مركب صغيرة عاملة زى المراكب اللى فى فيلم عبد الحليم حافظ لما كان بيحب إيمان. عارفه إن فسحة واحدة في المساء في قلب الْجندول على ضوء الشموع وحوالينا كل شيء بيرقص في قلب الْمَيَّه تخليكى أسعد واحدة فى الدنيا؟ حاجة كده ولا الحلم. كإنك فى الجنة.

بس أنا مجنون.. ها تستحملينى؟ كنت مرة فى سويسرا فى بيرن مقيم فى فندق (نوفوتيل بيرن اكسبو). ده من أشهر الفنادق هناك. كنت أتعشى أفخم أكل، وأسهر أجمل سهرة، والصبح أدوّر على مطعم درجة عاشرة فى أفقر شارع هناك عشان أفطر فيه. هو أنا ده حتى فى مصر، ممكن أتغدى فى الشيراتون وأفطر على عربية فول من على الرصيف.

– كل حاجة فيك مختلفة وحلوة. لكن عندك عيب خطير.

– إيه هو؟

– الستات.

– واضح إنى كنت غلطان لما اعتبرتك صديقتى وكشفت لك كل أسرارى وحكاياتى.

– أبداً والله، بس لإننا أصدقاء لازم نصارح بعض بعيوبنا. مشكلتك إن ماعندكش مشكلة تعمل ميت علاقة مع بعض، ومع كل واحدة تقدر تخليها تحس إنك ملكها لوحدها. مش فاهمة إزاى بتقدر تعمل ده، ومش عارفة الستات اللى بتعرفهم إزاى مستحملينك.

– ما فيش واحدة فيهم تعرف حاجة عن التانية. ماحدش يعرف عني كل ده غيرك إنتي.

– أمال إزاي بيقولوا إن الست عندها حاسة سادسة بتعرف عن طريقها أسرار الراجل اللي بتحبه، وإذا كان مخبي عنها حاجة ولا لأ؟

– الظاهر دي اشاعات مطلّعاها الستات عشان يخوِّفوا بيها الرجالة وما يقدروش يخبوا عنهم حاجة.

– تعرف؟ جوايا تناقضات كتيرة قوي في علاقتي بيك.

– زي إيه؟

– إزاي أكون بحبك وف نفس الوقت بخاف منك؟ إزاي قدرت تحتويني وتستوعبني وتطلع مني أجمل ما فيَّ؟ خلتني أشوف الدنيا بعيون تانية. عيون أحلى ونظرة أحلى ودنيا أحلى. إزاي قدرت تخليني أتعلق بيك كده من أول ما اتقابلنا؟ ولو قلت لك من قبل ما أشوفك.. يا ترى هاتصدقني. وحتى بعد ما عرفت إن ليك علاقات ببنات تانية. إزاي قادرة أسامحك وأنا عمري ما فكرت لحظة إني ممكن أسامح في حاجة زي دي مع راجل أكون بحبه! ساعات بافكر إنك بتضحك عليّ في موضوع علاقاتك الكثيرة دي، ومش عارفة إذا كان ده إحساس ولا أمنية إنك تكون فعلاً بتضحك عليّ وما فيش في حياتك غيري».

صارحتك وكلي أمل بأن تعدني بأنك يومًا ستتغير. لم يكن حديثي معك لمجرد أن أصارحك فقط بما يجول بخاطري تجاهك، وإنما كنت أدعوك –دون أن أعلن ذلك– لأن تكون لي وحدي، لأن تغتسل من

خطاياك التى أصبحت تثقل كاهلى وتوقظ وجعى وتجدد جرحى صباح مساء. فأنا لا أستطيع أن أكون نفراً فى طابور المنتظرين لحبك، ولا اسمًا فى جدول أعداد ضحاياك. لا أستطيع أن أكون عابرة فى ليلة سفر أو غريبة فى قطار يرتاده الركاب من كل المحطات وكل البلاد. من كل الأديان وكل الملل والجنسيات. لا أستطيع أن أكون حرفًا ضمن حروف هجاء كتبت بكل اللغات، أو مجرد رقم فى أجندة تليفون أو صورة فى ألبوم صور يحمل الكثير من اللقطات والبورتريهات. لن أكون يومًا امرأة مر عليها جسدك مرور الكرام. فعندما أكون، لا بد أن أصبح امرأة الساعة وحديث العمر، وعندما تقول لى أحبك، يجب أن تغلبك فى محبتى شهوة الضمير العاشق لرجل استطاع أن يعرف كيف يحب. غريب أمرك حقًا. كيف تستطيع أن تقول إنك تحب بينما تمارس فعل الحب مع هذه وتلك؟ تُرى كيف أستطيع أن أبقى على حبك وأنا أعلم عنك كل هذه العلاقات وأدرك أنك ترتكب كل يوم كل الخطايا! كذب وخيانة وخديعة وحب. كيف أستمتع بهذه اللحظة معك، تلك التى أختلسها من عمر الزمن، من عمر الكون وعمر الحياة، من عمرى أنا، وفى الوقت نفسه أخاف منك؟

مددت يدك نحوى وأمسكت بيدى المرتعشة وقلت:

– دايمًا إيدك ساقعة. مش ملاحظة الحكاية دى؟

– رغم ان قلبى دافى. أو يمكن محروق.

قلتها بتهكم فلم تفهمها، أو إنك أدركتها لكنك تجاهلتها فلم تبال ولم تهتم. هو نفس التجاهل لمشاعر خوفى وحبى. هو نفس التناقض الذى لا أعرف كيف ومتى وضعت فى قيوده ودائرته.

انزويت فى غرفتى وبقيت مستيقظة حتى الصباح. جاء النهار ولم تجئ. غردت العصافير فوق أغصانها وما زلت تغرد لغيرى وتعزف ألحانك لغيرى. هل تعلم كم هو مؤلم أن تبقى وحيداً والعالم حولك يعج بأناس لا تشعر أنك منهم ولا أنهم منك؟ هل تعلم ما فعلته بى؟ لقد عزلتنى عن الدنيا من حولى وقطَّعت كل الخيوط التى تربطنى بها؛ لم أعد أرى غيرك، ولا أستطيع أن أفكر إلا فيك أنت، فصرت أتلذذ بعذابى بك.

سألت نفسى: ماذا لو لم أقابلك؟ ماذا لو لم أكن سافرت إلى لبنان ورحبت بك لتتناول قهوتك معى فى المطار ونحن ننتظر طائرتنا؟ ماذا لو لم تأتنى يوماً فى حلم؟ لماذا لم أكتف بتظاهرةٍ أشارك فيها مثلما فعل الآلاف فى مصر وفى كل أنحاء العالم؟ وقتها تذكرت أول مظاهرة شاركت فيها.

كانت قوات الأمن قد انتشرت بمنطقة وسط البلد فأغلقتها تماماً. كردونات أمنية امتلأت بها شوارع عبد الخالق ثروت وشامبليون و٢٦ يوليو وسليمان باشا وشارع شريف. وقفت على رأسها قيادات أمنية كبرى تحمل على أكتافها نجوماً ونسوراً تلمع تحت قرص الشمس فوق الملابس العسكرية السوداء يدققون فحص هويات كل ذاهب وآت، تمنع أناساً وتسمح بعبور آخرين، وقفت من بعيد أفكر كيف أستطيع المرور وسط تلك الحشود الأمنية الغفيرة حتى أتمكن من الدخول للمكان الذى أريد. مكان الحدث الساخن بمقر نقابة المحامين. إنها ثورة للمحامين تشتعل داخل نقابتهم. غضبة عرفت باسم «عبد الحارث مدنى»، محام شاب اقتحمت قوات أمن الدولة

مكتبه ذات ليلة وألقت القبض عليه لتوجهاته السياسية، حيث كان ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين. اقتادوه إلى حيث لا يعرف. وداخل هذا المجهول لقى عبد الحارث مدنى مصرعه. يقال إنه توفى إثر التعذيب الشديد. ثورة نقابة المحامين عبرت عن ثورتى، وغضبهم كان جزءاً من غضبى، وجرحهم كان امتداداً لجرحى وجرح الوطن المفتوح.

ترددت كثيراً قبل أن أخترق هذه الكتل السوداء المتحركة بالبزات العسكرية، شعرت بأن صقيع الخوف عاودنى من جديد، وأن دمائى ترتجف وجسدى يرتعش وقلبى يخفق خفقات خوف من نوع جديد. فماذا لو تعرضت لمضايقة من أحد رجال الأمن؟ ماذا لو تطاول علىّ أحدهم بكلمة جارحة أو لفظ قبيح؟ ماذا لو اتهمنى بمحاولة إثارة الشغب؟ أو.. ماذا لو اعتقلت؟ هل سيصدق أبى وجيرانى وأقاربى أنى كنت أبحث عن حقى وعن حقوقهم جميعاً؟ هل سيؤمنون بأن عبد الحارث مدنى الذى لا يعرفونه هو أنا وهم والناس جميعاً؟ هل سيقنعهم أن مشاركتى كانت دفاعاً عنى وعنهم وعن الوطن كله؟ وإن تجاوزوا عن كل أفكارهم وقيودهم وتقاليدهم هل سيغفرون لى دفاعى عنهم واعتقالى الذى جاء حباً فيهم وفى الناس وفى الوطن؟ لا أظن.. ولكنّ شيئاً كبيراً داخلى يقودنى للمشاركة فى الدفاع عن مصر. عن أهل مصر. عن الغلابة والمجروحين والمقهورين. شىء داخلى يقودنى للدفاع عن أمننا الشخصى. شىء داخلى يدفعنى نحو الكتل العسكرية السوداء لأخترقها حتى أسوار نقابة المحامين المشتعلة. وأمام إحدى القيادات الأمنية الكبرى وقفت محاولةً إبداء

قوتى التى لا أعرفها ولا أشعر بها، لكننى حاولت التظاهر بوجود هذه القوة، حاولت إخفاء رعشة جسدى ورجفة قلبى وتوترى وخوفى. نظرت إليه بافتعالٍ نظرة حادة، سألنى: إلى أين؟

قلت: أنا صحفية وأريد دخول نقابتى. نظر إلىّ كمن استهان بفتاة ضعيفة تبدو كمراهقة فى العشرين. يبدو أنه سأل نفسه: هل تستطيع هذه الضعيفة أن تفعل شيئًا؟ أن تساعد فى هتافات أو تشعل ثورة! وجاءت إجابته لى: تفضلى. لم أصدق نفسى أنى أسير الآن وسط كل هؤلاء العسكر والجند المدججين بالأسلحة وكأنى فى ساحة حرب. فكرت لو أن رصاصة انطلقت عفواً أو عمداً من بندقية أحدهم واخترقت صدرى.. بماذا سيوصف مشهد موتى؟ وماذا سيقول أهلى عنى؟ سيسألون: «ما الذى أتى بى إلى هنا؟ وما هذا الجنون الذى أذهب عقلى ووضعنى وسط الرصاص وعلى أبواب المعتقلات»؟ سيقولون: «دى قلة أدب».

كانت أقدامى تسير بينما خفت أن تظهر رعشتها ورجفتها فيعيدنى العسكر إلى حيث جئت: خارج كردون الأمن. تماسكت حتى وصلت إلى داخل حديقة نقابة الصحفيين التى لم يكن يفصلها –منذ سنوات قبل إعادة بنائها الجديد– عن نقابة المحامين سوى سور قصير. كانت أصوات هتافات المحامين كدانات مدافع، وحناجرهم كصواريخ تطلق قذائف غضب وتقذف فى قلوب الخائفين أمثالى المزيد من ألوان الرعب. لكننى ورغم هذا، إليهم ذهبت. كل ما كنت أفكر فيه هو رغبتى فى المشاركة للدفاع عن رجال مصر. عن نساء مصر وأطفال مصر وعجائز مصر. كأننى أقف الآن على الجبهة وقت

الحرب، الفرق هنا أن من يموت فى الحرب سيلقب بالشهيد، وسيصرف لأهله معاش، وربما يوضع اسمه على رأس شارع أو ميدان أو حتى حارة. أما من يموت هنا، فى هذه الحرب المشتعلة بوسط البلد، سيلحق الخزى والعار بأهله، ويسبب لهم المشكلات حتى بعد موته. سيقولون لقى الإرهابى حتفه. وسيذكرون للناس الذين لا يعرفون أنى مت لأجلهم أننى جئت لأدمر مصر، وأحرق الأتوبيسات، وأغتال المواطنين. سيتبرأ منى أهلى، وتتبرأ منى مصر، وسيكتب فى بيانات وزارة الداخلية أن فتاة لقيت مصرعها أثناء مشاركتها فى شغب، وربما يتهموننى بأننى سبب فى اشعال فتنة طائفية، أو أننى كنت مطاردة من قبل، وأنى مسجلة خطر، وسيستطيعون إحضار ألف دليل وهمى للإثبات. الفرق هنا أن قاتلى هو من لحمى ودمى وشريكى فى الوطن، أما فى جبهة الحرب فقاتلى هو عدوى وعدو وطنى من الأزل إلى الأبد. ورغم كل هذا الخوف، وسط الكتل العسكرية السوداء، مشيت، اجتزت السور الفاصل بين النقابتين، وتمكنت أخيراً من الدخول إلى قلب نقابة المحامين، وهناك فى الداخل كان المشهد أكثر من مروع ومؤلم ومهيب. فقد كانت قوات الشرطة انتهت إلى قرار ببدء القمع وإلزام الصمت الجبرى، فما كان منها إلا أن ألقت بقنابل الغاز المسيل للدموع فى عمق النقابة. فجأة امتلأ المكان كله بدخان كثيف حجب الرؤية عن الجميع، فكنا كما لو أنه يوم القيامة، أصوات صراخ وأنين وتكبيرات وشتائم وانفجارات وحالات اختناق، أجساد تساقطت فوق الأرض كفراشات اقتربت من دائرة لهب. وسط هذه الفوضى كنت أنا، بدموعى التى سالت رغماً

عني بفعل القنابل المسيلة للدموع، بخوفي الذي تبدد ولم أعد أشعر به. فقد كان الأمر أكبر من أي إحساس أو شعور بالخوف أو الجبن، شعرت أن جلد وجهي ينسلخ عني، وأن جلد جسدي يحترق ويذوب. وقتها أدركت أني حتمًا سأموت، وإن خرجت سالمة فستلازمني عاهة حرق بوجهي وجسدي طول العمر، وأني سأخرج مشوهة تمامًا. وقتها لم أسأل نفسي: ماذا سأقول لأهلي عن تشويهي وحرقي؟ أو ماذا سيقولون عن موتي؟

مضت السنوات ولم أمت، ولم أخرج بعاهة ولم يشوه وجهي. الذي مات هو إحساسي بالأمان الكامل في هذا الوطن، والعاهة التي أصابتني هي عاهة القهر الذي أدركت أنه تخطى حدود بيت أبي وحدود قمع أسرتي وحدود الوطن، وما شُوِّه هي تلك الكرامة التي أهدرت على عتبات المعتقلات، ما شُوِّه هو وجه الحقيقة، ما شُوِّه هو وجه الوطن.

كانت لنقابة المحامين هيبتها وجلالها حينما كانت قضيتها قضايا الحريات والدفاع عن الحقوق للوطن ومواطنيه، أما اليوم تلخصت قضايا الأمن القومي والوطني في الصراع على كرسي.

حينما أتذكر هذه التظاهرة اليوم أجد أن هناك تشابهًا واضحًا بين رجال قمع المشاعر، وأنظمة قمع البشر. فما الفرق بينك وبين من ألقى بقنبلة الغاز المسيل للدموع فوق رؤوسنا؟ وما الفرق بين الدمع في كلتا الحالتين؟ كلاهما دمع إجباري. الفرق الوحيد هو أني عندما بكيت من قنابل النظام كنت أشعر بقوة خفية هبت داخلي. قوتي. وكنت مفعمة بالتحدي ولديّ القدرة على مواجهة العسكر والسلاح.

ولكنى فى الحالة الثانية، عندما أبكى منك أشعر بضعفى يتملكنى، يحولنى من بشر إلى رماد، ثم ينثرنى بقايا فى عالمك أنت. بينما أنا وحدى بلا قدرة على مواجهتك حتى وإن لم تشهر سلاحًا فى وجهى.

لماذا تتجدد الجراح دومًا؟ ولماذا تجترها الذاكرة؟ لماذا يستدعى دومًا كل ماض؟ لماذا أنت اليوم وأمس وغدًا؟ لماذا ما زال جسدى يرتجف رغم دخوله مقبرة الزمن؟ وهل من الأفضل أن نندم على فراق من نحبهم أم أن نندم على وجودهم معنا؟ وإن كنت أدرك حقًا الإجابة فلماذا كل هذا الندم كلما فكرت فى نهاية حكايتى معك؟

خارت قوتى ولم أعد أحتمل ألا أسمع صوتك أو أقابلك. لم تعد لدىّ القدرة على الابتعاد عنك أكثر من ذلك. وقررت أن أعود.

– أهلاً أهلاً.

(قلتها مُرَحِّبًا عندما جاءك صوتى عبر الهاتف من جديد. قلتها ثانية كأول مرة سمعتها منك حين اتصلت بك بعد عودتنا من لبنان. «أهلاً أهلاً». قلتها لتعاود تملكى وامتلاكى).

– اتأخرت ليه عقبال ما رديت علىّ؟ كنت هاقفل الخط. ولاّ كنت بتصلى؟ «قلتها بسخرية وحزن».

كنت أعتقد أن الذين يصلون لا يرتكبون الخطايا، وأنهم لا يفعلون أى ذنوب، فكيف يقابلون وجه الله خمس مرات فى اليوم وهم يكذبون أوينافقون أو يخونون؟ ظننت أن من البشر فئات تسمو لمكانة الملائكة والنبيين والصديقين، كرجال الدين، أئمة المساجد والرهبان، كالكُتاب الذين يقودون الفكر ويشكلون وعى المجتمع ويلمسون مشاعر الناس وأوجاع الوطن، كالأطباء الذين يداوون الجراح ويخففون الآلام

ويعالجون المرض، ومثل المحامين الذين يناصرون الغلابة وينتصرون للحق وللمظلومين، كنت أظن أن من يقودون التظاهرات ضد الظلم وضد القهر وضد القتل وضد القمع لا يخطئون.

عشت عمراً في حلاوة هذا الوهم حتى أفقت من حماقتي حين رأيت من يدعون لدين الله، ومن يقودون الفكر، ومن يداوون الناس، ومن ينتصرون للحق، كثيرون منهم يكذبون وينافقون ويخونون ويتواطؤون ويرتكبون الخطايا، ولا مانع لديهم بعد كل خطيئة أن يؤدوا ركعتين صلاة لأذان تم النداء له وقت ارتكاب الخطيئة.

من يسرقون أحلامنا وأموالنا ينهبونها باسم الدين وباسم الشرف واسم الوطن، من يبيعون بلدنا ويستبيحون لحمنا ويهدرون دمنا ويبخسون حقنا ويتاجرون بتاريخنا ويستغلون حضارتنا ويشوهون نفوسنا وقلوبنا ويحجرون على مستقبلنا. فهم يفعلون باسم الدين وباسم الشرف والوطن. من يقايضون بنا ببضع أوراق من النقد الأخضر يحتمون بالوطن والشرف والدين. فلماذا لم يعد في وطننا حلم؟ لماذا لم يعد في وطننا رمز ؟ لماذا لم يعد في وطننا وطن؟

وأسأل: هل تتجزأ المبادئ؟ كيف تكون أنت هكذا؟ وكيف تواجدت أنت نفسك تحت القصف وبين البناءات المدمرة؟

هل تتجزأ المبادئ فيعيش الإنسان نفسه ونقيضه معاً؟

عندما نعتاد على القبح يصبح جزءاً منا، وعندما نعتاد على الجمال نصبح جزءاً منه. وها نحن نعيش في وطن نمارس فيه قبحنا منذ الصباح وحتى المساء، ثم نضع أقنعة الثلاثية المقدسة: الدين.. الشرف.. الوطن.

ذهبت إلى حيث مكان لقائنا، وفى الركن الهادئ تحت المصباح الكلاسيكى، جلست. هنا كنت معى، تجلس إلى جانبى. تُرى على أى هذه المقاعد جلست؟ فمن المؤكد أن المقاعد تتبدل مع كل مرة يتم فيها تنظيف المكان. مقاعد لها نفس السمات ونفس المواصفات ونفس التفاصيل والهيئة والشكل، إلا واحد منها ذات يوم جلست عليه أنت. جاءتنى القهوة بالحليب التى تعودت أن أشربها معك. عندما نظرت إلى فنجان القهوة سألت: هل شربت يومًا من فنجانى هذا؟ فتحت حقيبتى وأخذت قرصًا لعلاج الصداع الذى عاود الدق فى عظام جمجمتى وكاد يفتك برأسى.

أيام كثيرة مضت ولم ألقك. لم أسمع صوتك الذى اعتدت عليه، ولم يكن ليأتينى النوم إلا بالاطمئنان عليك. تُرى هل أكلت؟ ماذا فعلت اليوم؟ وكيف أمضيت ساعات نهارك؟ لماذا لم ترد على الهاتف حينما اتصلت بك؟ كم قصة عشتها؟ وكم حكاية رويتها؟ وكم نكتة ضحكت لها؟ ماذا ارتديت وأى الألوان اخترت اليوم؟ تطاردنى الأسئلة ويلاحقنى الجنون فلا أهدأ إلا بعد الاتصال بك. هاتفك لا يجيب. للحظة شككت فى أنى التقيتك ذات يوم، وخشيت أن يكون ما مضى بينى وبينك لم يكن إلا وهمًا عشته فى خيالى، وأننى ما جلست هنا يومًا معك، وما سمعت منك حكايات وتفاصيل حياة. للحظة شككت أن علاقتى بك لم تكن إلا نوبة من جنون عقل أراد أن يحلم فغاب عن الوعى، تذكرت حكاية روتها لى صديقتى منذ سنوات، حينما كان صديق أخيها يزورهم كثيرًا فى البيت فأعجبت به، وكانت تنتظر موعد حضوره فى شوق ولهفة، خاصه بعد أن أبدى اهتمامه

بها، وألقى يومًا عليها التحية وهو يبتسم. وذات يوم اتصل يسأل عن شقيقها الذى لم يكن بالبيت، فبدأ يسألها عن أحوالها ودراستها ويوصيها بالاهتمام بالمذاكرة وبنفسها، وفى اليوم التالى – أثناء زيارته لهم- نسى منديله الأبيض المنقوش عليه باللون الأحمر أول حرف من اسمه، والذى تشابه مع أول حرف من اسمها، فظنت أنه ترك منديله تذكارًا لها.

عاشت عامًا كاملاً تصحو وتنام وهى تنظر إلى المنديل، تستنشق منه عطره وتحتضنه وتضعه مساء كل ليلة تحت وسادتها، وفى الصباح تقبله وتطويه وتخفيه فى خزانة ملابسها وتدسه فى أحلى ما ترتديه. يأتى صديق أخيها فتنتظر إليه من خلف باب غرفتها، وتتعمد المرور من أمام غرفة الصالون بعد أن تهيئ نفسها وتمشط شعرها وتمسك فى يديها منديله لتؤكد أنها باقية على العهد الذى لم يفصحا به لبعضهما البعض.

وبعد عام كامل كان قد فاض بها الشوق والحب وقررت أن تحكى لشقيقها فى لحظة صفاء عن قصة حبها التى تعيشها، وتعشمت أن تلقى من شقيقها احترامًا وتقديرًا لها لكونها صارحته بالأمر وأفصحت له عما يدور بنفسها، لكنها فوجئت بثورته تشتعل، وبركان من الغضب لا يهدأ ولا ينطفئ، وعندما ذهب إلى صديقه لم يبادره بالحديث، بل بادره بالضرب والصفع على وجهه والركل بجسده، بينما لم يفهم صديقه لماذا كل هذا الغضب؟ واعتبر صاحبه مصابًا بصدمة هستيرية لسبب لا علاقة له به، وبعد أن فض شقيق صديقتى شحنة غضبه هدأت ثورته وسأل صاحبه عن مدى علاقته بأخته،

فتعجب الآخير مما سمع وأقسم بأنه لا يعرف شيئًا عن هذا الأمر، ولا حتى عن حكاية المنديل. إلا أنه كان يمتلك منديلاً أهدته له أمه فى عيد ميلاده منقوشًا عليه أول حرف من اسمه، وقد فقده، ولا يتذكر كيف ولا أين، ولم يهتم لضياعه لأنه مجرد منديل. وعندما عاد شقيق صديقتى وأخبرها بالأمر بكت كثيراً، ليس لأنها عاشت قصة حب وهمية مع منديل فقط، بل لأنها شعرت بأنها لم تمثل يومًا لحبيبها أى شىء، وأنه لم ينتبه أصلاً لوجودها فى البيت حتى ولو لم يبادلها حبًا بحب.

أتراني عشت معك قصة المنديل؟ عشت معك حبًا على ورق.. حبرًا على ورق!

علمتنى الحياة ثلاثًا. هناك أشياء نموت لها مثل الشرف والوطن والأحباب، وهناك أشياء نموت فيها مثل الهوايات والشهوات، وهناك أشياء نموت بها مثل المرض والخوف والحب.

فلماذا أراك اليوم كل أسباب وأنواع وألوان موتى؟

أحتاج إلى شىء ينقلنى من حالة حزنى منك وانتظارى وشوقى إليك. أحتاج إلى أن أبدِّل مشاعر ألمى منك حتى ولو بألم آخر. أحتاج إلى أن أنتظر شيئًا آخر غير سماع صوتك، وأن أشتاق لشىء آخر غير حكاياتك وتفاصيلك وملامح وجهك. أحتاج أن أكون أنا. لا أنت. أحتاجنى بكل ما تحمله الكلمة من احتياج.

لماذا أراك فى كل شىء حولى؟ لماذا أسمعك فى كل صوت يصلنى؟ لماذا أراك كل الناس وكل البشر؟ وعندما أسعى للفرار والهروب منك ألاقيك حتى فى مرآتى، ووجهى. لماذا أنت اليوم وأمس

وغداً؟ أتذكر قصيدة قرأتها لفاروق جويدة تقول: «لماذا أراك على كل شيء

كأنك فى الأرض كل البشر ..

كأنك درب بغير انتهاء

وأنى خلقت لهذا السفر».

تعانى منى زاويتى بغرفتى. تعانى من صمتى وشرودى، وتعلن عن غضبها منى. ينطفئ المصباح الكلاسيكى ذو الإضاءة الهادئة المجاور لأريكتى، أحاول إعادته للنور، أو إعادة النور إليه. لا شيء يجدى. يبدو أن «لمبته» احترقت كما يحترق فى هواك قلبى، فهل أنطفئ مثل مصباحى ليعود الظلام مجدداً لحياتى وذاكرتى.

عندما أكون فى أسوأ حالاتى وضعفى وحزنى كان يكفينى اللجوء إلى زاويتى والانكماش فى أحضان أريكتى. أقرأ كتاباً وأنا أشرب قهوتى بالحليب. وكان ذلك الفعل كفيلاً بتهدئتى وتهيئتى وإعادة تأهيلى لممارسة طقوس الحياة والتواصل مع الآخرين حولى. لماذا لم تعد ترضينى اليوم نفس الأشياء التى كانت تسعدنى بالأمس؟ لماذا يعجز كتابى وقهوتى وأريكتى وزاويتى عن مساعدتى؟

أنا امرأة لا تجيد التنزه والرحلات وجلسات النوادى والمحادثات المطولة فى التليفونات. لا تجيد تبادل الزيارات وجلسات السمر مع الشلة والأصحاب. أنا امرأة كل ما تجيده هو أن تهواك. هذا كل ما استطعت فعله بعد كل هذه التجارب والخبرات وكل هذه السنوات التى مرت من حياتى. فلماذا أنت وأنت من تنسى ومن تقسو وتهجر وترحل دون استئذان ودون أسباب أو مقدمات؟

حاولت الهروب منك، إلهاء نفسى عن التفكير فيك. أدرت التلفاز وبدأت أبحث عن شيء يلهينى عنك.

كانت نشرة الأخبار تتحدث عن انفجار جديد لسيارة مفخخة فى بغداد بقلب أكبر أسواقها، واستشهاد العشرات وإصابة المئات.

هكذا. مئات الضحايا يصبح رقماً يومياً معتاداً نسمعه منذ أن احتلت العراق. يومها قالوا:

(سقطت بغداد). بغداد الأسطورة السندبادية. بغداد البساط السحرى وصلاح الدين الأيوبى ورابعة العدوية. (سقطت بغداد) التى عشنا أجمل حكاياتها ولم نكن ندرى ما هى بغداد. لم نكن نعلم ما الفرق بين بغداد والقاهرة ودمشق وبيروت والقدس. لم نعرف هذا الفرق إلا قريباً. قريباً جداً.

قلت: دى الدنيا فى مصر هاتولع لو حصل حرب على العراق.

قالت جارتى: يانهار اسود! ده ابنى فى الجيش! ممكن ياخدوه ويروح يحارب الأمريكان فى العراق؟

- يا حاجّة كلنا لازم نروح. أنا وابنك والناس كلها. هما فاكرين الحكاية سهلة؟ ولاّ مصر والدول العربية هايسكتوا على كده؟ دى تبقى مصيبة. طبعاً محدش هايسكت خصوصاً فى مصر. ده أمن مصر من أمن العراق زى بالضبط ما هى أمنها من أمن فلسطين.

أمريكا وحلفاؤها هايندموا لو دخلوا العراق. ده كده ممكن يخسروا الدول العربية كلها. أكيد الجامعات والمدارس والشوارع فى الدنيا كلها هاتولع. هما فاكرين إيه؟ نهيبة هاينهبوها والناس هاتقف تتفرج على عرضها وهمّا بيهتكوه! دى تبقى خيبة قوى.

قامت الحرب، ودُكَّت العراق، وسقطت بغداد، وأمام العالم كله أُسقط تمثال رئيسها بعد أن اف عسكرى همجى أمريكى وجه صدام حسين بالعلم الأمريكى. سقطت بغداد أمامنا ولم يتحرك لأحد ساكن. سقطت بغداد وذُبح أطفالها وشيوخها وعلماؤها وأهلها وانتهكت أعراض رجالها ونسائها وبناتها على مسمع ومرأى من العالم، ولم يثر أحد، ولم يتحرك أحد، ولم يصرخ أحد.

لم تخرج فى مصر مظاهرة واحد حرة. لم نسمع كلمة عربية واحدة تقول لأمريكا وحلفائها «لا». سقطت بغداد لتسقط معها كرامتى وكرامة كل عربى من المحيط إلى الخليج، لتسقط معها آدمية البشرية جمعاء.

سقطت أسطورة الحكايات والحضارات، وغاب السندباد عن حواديت الصغار. انتهكت بغداد وانتهكت معها رجولة الرجال والوطن. سقطت وسقطنا أمام فضائح سجن أبو غريب وتفاصيل اغتصابنا الْمُصوَّر بكاميرات الفيديو والهواتف المحمولة والفوتوغرافيا.

تفاصيل هتك العرض الْمُعلن والعلنى على شاشات التلفاز وصفحات الجرائد ومواقع الإنترنت. سقطت بغداد ولم يشتعل العالم ولم يثر، ولم تشتعل مصر. وهدأت جارتى التى اطمأنت لأن ابنها لن يذهب لمحاربة الأمريكان.

وسألت سؤالاً لكل من رأيت، لكننى لم أجد له إجابةً حتى الآن.

– أليس بين الدول العربية اتفاقية تُسمى "اتفاقية الدفاع العربى المشترك"؟

كانوا جميعاً يمتعضون ويدهشون لسؤالى لكنّ أحداً لم يجب!

معارك دامية يومية متواصلة امتدت لسنوات نسيت عددها لكثرة الأحداث والذكريات المتزاحمة فى ذاكرتى. فقط أذكر أن العراق احتلت منذ العام ٢٠٠٣ بعد أن فاق عدد ضحايا حصارها الذى امتد لثمانى سنوات قبل الحرب المليون شهيد. نصفهم من الأطفال؛ ماتوا بفعل التجويع والحرمان من الدواء والغذاء. كانت جثامين الصغار تتحول إلى هياكل عظمية، وما زال فيها نبض حتى يرحلوا فرادى وجماعات، يحملون فى مسيرات نعوش جماعية أمام العالم المتخاذل، بينما نحن فى صمت تام. اليوم تخطى عدد الشهداء المليونى شهيد. يجب أن تدخل به أمريكا موسوعة «جينيس» لتفوقها اللامسبوق فى عمليات القتل والتشريد والتهجير. فقد شردت أكثر من أربعة ملايين عراقى من بلادهم. ذلك بخلاف التهجير القسرى من المدن والقرى، وبخلاف ملايين الأيتام والأرامل والأمهات الثكالى والآباء المكلومين والمعتقلين.. إلى آخره.

تذاع اليوم أخبار الانفجارات فى العراق لتعلن عن مئات الضحايا يومياً على مدار الساعة، ولم يعد فينا أحد ينتبه للأرقام أو الأحداث. صار الموت الجماعى والقتل الجماعى مجرد تفاصيل يومية نعيشها مثلما نغسل أسناننا بالمعجون كل صباح أو نشرب القهوة بالحليب.

تلاحقنى الكوابيس فى كل ليلة؛ تحرمنى النوم، فأصحو على صرخات طفل يودع أمه التى تستشهد بين يديه بفعل رصاصة قناص أمريكى اخترقت صدرها على أرض العراق. أستيقظ على

صرعة طفل يستقبل الموت خائفًا بين يدى أبيه بعد ملاحقة الصهاينة له في كل شبر على أرض فلسطين. طفل مثل محمد الدرة الذي حرمتني لحظات استشهاده المُصورة لحظة بلحظة من النوم شهوراً طويلة. وربما لسنوات.

كنت في يوم من شتاءات يناير، وكان البرق شديداً صاعقًا وصوت الرعد يقذف الرعب في القلوب، وأفقت من نومي فرأيت المحتلين يملؤون شوارع القاهرة ويعربدون في بيوتها، تنتشر دباباتهم حول البرج ومسجد عمرّ مكرم، تسبح بوارجهم العسكرية في مياه نهر النيل، وفي بيتي جاءتني دانة مدفع.

صار صوت الرعد ومشهد البرق كبركان أشعل حرائق كبرى وأضحى هدير المطر كقطرات دم تتساقط من السماء فتغرق الأرض باللون الأحمر الدامي.

إنها الكوابيس التي تطاردني في صحوي ومنامي.

إنها الكوابيس في الأحلام وفي الواقع، والتي تأبى أن تنتهي.

العالم يعج حولي بمئات بل آلاف التفاصيل التي تنتهكني وتستبيح كرامتي وإنسانيتي، عشرات الحروب ضدي وضد البشرية وأنا فيها أكبر، في همي وعمري، حتى أصابتني الشيخوخة وعبّأني الوجع مثلي مثل كل الناس حولي الذين لا حب لهم أكبر من حب الوطن، ولا حيلة لهم غير الصمت. الفُرجة في صمت. الوجع في صمت. الموت في صمت. إنه حالنا جميعًا.

لا أرى الحال في مصر أفضل من العراق أو لبنان أو فلسطين أو أفغانستان، فمصر أيضًا مُحتلة رغم ما يقال عن التحرير وعن النصر.

فماذا يعنى التحرير بينما يسيطر رجال المال على أرضنا وخيرنا ويحتلون نبضنا ويتاجرون بعرقنا؟ تجار الرقيق الذين عرفوا كيف يمتلكون الوطن بوثائق رسمية، يقطِّعونه ويبيعون كل قطرة دم وكل قطعة لحم فيه. نحن ما زلنا رهن الاحتلال وتحت الاحتلال رغم حرب ١٩٧٣.

فمنذ اتفاقية كامب ديفيد عاد إلينا الاحتلال تحت العديد من المسميات، أولها (اتفاقية السلام). عاد الصهاينة إلى أرضنا يعربدون في كل شبر فينا، نشرب ونأكل ونزرع ونحصد مما يمنحونه لنا، أسمدة مسرطنة زجت بمئات الآلاف من المصريين داخل ساحة حرب طاحنة مع سرطان شرس يأكل أجسادهم ويحصد أعمارهم. حرب مع فساد استشرى فينا وسيطر على كل حياتنا، وفقر امتدت أذرعه إلى كل بيت وكل عقل وكل قطرة دم.

طردنا خيرة شبابنا، وفرضنا حجراً على عقولهم وإبداعاتهم، ومن تبقى منهم داخل الوطن عاشوا يناضلون من أجل الحصول على لقمة عيش تبقيهم على قيد الحياة. فقط وظيفة لم تعد حتى تكفيهم ذل السؤال. نحن محتلون حتى النخاع. محتلون منذ أن تحولت شوارع مصر إلى ثكنات عسكرية. إلى بقع مستعمرة بأسماء دبلوماسية. حين ارتفع علم العدو الصهيوني يرفرف على ضفاف النيل متحدياً تلك الدماء التى ما زالت تسيل على أرض فلسطين. حين تحولت أحياء مصرية، مثل حى جاردن سيتى، إلى منطقة أجنبية محظورة على المصريين لوجود سفارتى أمريكا وبريطانيا فوق أرضها. ولو سألت يوماً سائق تاكسى وقلت له: «جاردن سيتى؟» لكان رده: «هو ينفع حد يروح هناك يا غبى!».

نحن محتلون حتى النخاع. «مراقبون حتى فى أرحام أمهاتنا».

هنا القاهرة. قالها المذيع بإذاعة القاهرة، والذى جاءنى صوته جهورًا، بينما كنت جالسة بالمقعد الخلفى للسيارة الأجرة التى استقللتها للوصول إلى مكتبى بمنطقة وسط البلد.

هنا القاهرة. قالها المذيع بصوت أجش وهو يعلن عن قرب مباريات كأس الأمم الأفريقية للعام ٢٠٠٦ بمشاركة مصر. استضاف فى برنامجه معلقين رياضيين ورؤساء نواد رياضية ونقادًا صحفيين للحديث عن أهمية هذه الكأس. وجاءنى صوت أحدهم. أعرفه جيدًا، فأنا أستطيع تمييز صوته لأنه «مشهور». تحدث عن أخلاقيات الملعب واللاعبين، وعن ضرورة الالتزام بالقوانين وكيفية التعامل بأدب مع الفرق الرياضية الأخرى و... و... و...

أدب.. أخلاق.. التزام.. مصطلحات ذكرها صوت هذا «المشهور» الذى أعرفه جيداً. هذا «المشهور» الذى كان يغازل صديقة لى حكت لى عنه وعن طلبه الزواج منها فى السر لأنه متزوج، ولديه أربعة أبناء، ولا يريد أن يعرف أحد أمر زواجه منها. وعندما سألته صديقتى عن زوجته الأولى أجاب بأنه تزوجها "أيام الفقر"، وكانت قريبته، ووقتها كانت تناسب ظروفه، أما الآن فقد اختلف الوضع وتحسنت الظروف وحُفظ وجهه على الفضائيات مما جعله يسعى لتحسين شريكة حياته حتى ولو بزواج آخر. زواج سرى. وعندما أبدت الفتاة اعتراضاً عن كون الأمر لن يتخطى حدود أشقائها فقط، وأنه لن يستطيع الخروج معها فى الأماكن العامة أو فى مناسبة من المناسبات. قال لها إن كثيرين من زملائه يفعلون هذا ويخفون الأمر عن زوجاتهم وأقاربهم وأصحابهم. كثيرون من زملائه يبحثون عن امرأة خالية. عانس أو مطلقة ولا تعول أبناء فيتزوجون سراً أو عرفياً مقابل الإنفاق عليهن. وضل راجل ولا ضل حيط.

أدب.. أخلاق.. التزام.. سمعتها وابتسمت دون أن أبدى تعليقاً لسائق التاكسى الذى لمح ابتسامتى الباهتة المفاجأة فى المرآة. تلاقيه قال فى سره: «إيه المجنونة دى!».

لا مفر من الذهاب اليوم إلى مكتبى الذى انقطعت عنه لأيام لأول مرة منذ بدأت عملى. لا مفر من سماع المزيد من أسى البشر ومشكلاتهم وهمومهم التى لا أول ولا آخر لها. لا مفر من العودة لممارسة طقوس الحياة. لا مفر من أن تكون صورتك وصوتك خلفية ليومى وذاكرتى ورؤيتى وسمعى. لا مفر لسماع المزيد من الحكايات عن آلام أهل مصر الذين ضاقت بهم الحياة فجاءوا يلقون بهمومهم

وتعاستهم وتفاصيلهم المؤلمة فوق طاولة مكتبى وفى قلبى وعقلى وضميرى وذاكرتى. لا مفر من العودة لممارسة طقوس الحياة.

لا أعرف لماذا اخترت هذا المجال فى عملى. لماذا اخترت الإشراف على صفحة البريد والمشكلات والشكاوى؟

لماذا لم أختر العمل فى الصفحة الفنية أو الرياضية، أو حتى فى السياسة، تلك الكتابة التى أصبحت تدر أموالاً طائلة على أصحابها دون هموم؟

عندما فكرت فى الأمر وجدتنى أكتب فى كل هذا وعن كل هذا. حينما أكتب عن البطالة وأبحث لخريج جامعى عن فرصة عمل، فأنا أكتب فى السياسة. حينما أكتب عن قصة حب لم تكتمل بين شاب وفتاة بسبب عدم قدرتهما على توفير سكن للزواج، فأنا أكتب فى السياسة. وعن مريض عجز عن توفير قرص دواء لدائه، فأنا أكتب فى السياسة. حينما أكتب عن حرمان الناس من رغيف الخبز وعن الطوابير الممتدة فى أنحاء مصر أمام المخابز والأكشاك الخشبية بحثًا عن كسرة خبز، فأنا أكتب فى السياسة. حينما أكتب عن حرمان مصر من زراعة القمح وتبوير آلاف الأفدنة واضطرارنا لاستيراد قمحنا من الخارج رغم خصوبة أرضنا وصلاحيتها وخبرة مزارعيها الممتدة عبر آلاف السنين فى فنون الفلاحة والزراعة، فأنا أكتب فى السياسة. وحينما أكتب عن الأمراض التى تهدد الأطفال من استخدامهم للعب تُصنع من مخلفات المستشفيات وتصنع منها علب الكشرى والبلاستيك المباع فى محلات (كله باتنين جنيه ونص)، فأنا أكتب فى السياسة. وعندما أكتب عن البضائع الصينية التى ملأت أسواق مصر وحرمت التجار المصريين من

الاستمرار فى تجارتهم وصناعتهم، واضطر الكثيرون منهم لإغلاق محلاتهم وإعلان إفلاسهم، فأنا أكتب فى السياسة. حينما أكتب عن أمشاط الشعر وفوانيس رمضان وملابس المحجبات والحقائب المدرسية والأخشاب والحديد والسيارات والأطعمة الصينية التى تأكلها مصر، فأنا أكتب فى السياسة. حينما أكتب عن مصر التى تحولت إلى سوق للصين وللإمارات والسعودية وقطر. مصر العظمى التى تم تفريغها من أحشائها، وتم تعبئتها صينيًا وإماراتيًا، فأنا أكتب فى السياسة. وحينما أكتب عن شاعر لا يملك نشر ديوان شعره لأن دور النشر الحكومية يقف أمامها الآلاف فى طوابير طويلة تمتد لسنوات حتى يتمكن أديب شاب من نشر عمل واحد له؛ يكون خلال هذه الفترة قد استنفد طاقته وإبداعاته فى زهق وطول صبر ومرارة انتظار، وهو أيضًا لا يملك نشر عمله فى إحدى الدور الخاصة لأنه إما ينشر، وإما يأكل. إما ينشر إبداعًا، وإما يأكل طعامًا.

وحينما أكتب عن طفل موهوب فى لعبة رياضية لا يجد مكانًا يستوعب موهبته بعد تردى حال مراكز الشباب وإغلاق العشرات منها فى القرى وانعدامها فى أخرى، فأنا أكتب فى السياسة.

وحينما أكتب عنك، عن قصتى معك، فأنا أكتب فى السياسة. فأنت سيرتى الذاتية مع الوطن، والوجه الشخصى للوطن. أنت الوطن الذى نسينى وتجاهل أحزانى وآلامى.

الفرق الوحيد بينى وبين معظم من يكتبون فى السياسة هو أننى أكتب بلا أجر غير راتبى الرسمى؛ أكتب من أجل رسالة إنسانية. أكتب لأن داخلى ما يدفعنى للكتابة غير المال أو المناصب. أكتب لأنى أحبك. لأنى أحب الوطن.

ما زالت الأحاديث عن كأس الأمم الإفريقية تملأ شاشات التلفاز وتبث تقاريرها المحطات الفضائية. حاولت البحث فى القنوات الفضائية عن مسلسل كوميدى أو كليب أستمد منه بعض المرح لنفسي لعلنى أخرج من دائرة الشكوى التى تحيطنى. على إحدى المحطات فوجئت بأحد المذيعين. وجه آخر أعرفه. أذهلنى أن أراه على شاشة التليفزيون يتحدث إلى الناس. إلى ملايين الجماهير التى تتابعه باهتمام. صرخت فى ذهول: (يخرب بيتك! إنت؟). وجه آخر أعرفه صار مشهوراً. كنت قد قابلته منذ سنوات طويلة أثناء عملى بإحدى المجلات العربية التى تتخذ مقرات لها بالقاهرة. وكنت أراسل إحداها. وعمل معى لفترة ليست بالقصيرة. كان يمتاز بخفة الظل وقدرته على إقامة علاقات سريعة مع الآخرين، وكنا جميعنا يملأنا الحماس والرغبة فى تحقيق أحلامنا الصغيرة. بعد فترة تركت العمل

بهذا المكان وانتقلت إلى مجلة أخرى، ولأننا داخل وسط حرفته الأخبار والكلام فقد وصلتنى أخبار زميلنا هذا. كانت قد نشأت علاقة بينه وبين فتاة أبهرها بحديثه الحلو وبخفة ظله وبمهنته. أحبته وتركت نفسها له وأسفرت علاقتهما عن جنين نبت فى أحشائها، وحينما استغاثت به من الفضيحة، وطلبت منه أن يسترها أهانها وطردها، فما كان منها إلا الاعتراف لأهلها الذين فشلوا فى إقناعه بالزواج، وكبرت المشكلة التى وصلت لجهة عمله وعرفها زملاؤه فتم فصله.

لا أعرف أين ذهبت الفتاة، وماذا فعلت بحملها، وماذا فعل أهلها معها. لكننى علمت ماذا حدث له عندما شاهدته يقدم برنامجاً هاماً فى محطة شهيرة. لا أظن أن هناك كوميديا أكثر من هذه، ولا كليباً راقصاً أكبر من هذا الكليب.

أدرت المحطة على التليفزيون المصرى، ولأترك الفضائيات لأصحابها، ففاجأتنى كارثةٌ كبرى. قال الخبر: (يذكر أن أعداد الضحايا والمفقودين منذ فجر اليوم ١٣٥٠ مصرياً كانوا على متن العبارة).

لم أفهم ما الخبر، وماذا يقصدون به، لكننى تجمدت فى مكانى، ثم تابعت إعادة بث التقرير الإخبارى من جديد: (تعرضت العبارة المصرية السلام ٩٨ لحادث غرق فى الساعات الأولى من صباح اليوم وهى فى طريقها إلى ميناء «ضبا» بالسعودية وعلى متنها العشرات من الركاب. يذكر أن أعداد الضحايا والمفقودين منذ فجر اليوم ١٣٥٠ مصرياً كانوا على متن العبارة).

جلست فى ذهول. كانت الصدمة أكبر من قدرتى على استيعابها، خرس صوتى، وشعرت بغصةٍ مُرَّةٍ فى حلقى. اختنقت ولم أعد قادرة على التنفس، شعرت بأن الغرفة قد نفد منها الهواء، وأننى بحاجة لوضعى على جهاز أكسجين.

لحظات صمت وأنا فى غرفتى وحدى، أجلس فى زاويتى، أتلقى الصدمة وحدى، أغرق فى عمق أحزانى وحدى كما غرق اليوم ١٣٥٠ مصريًا.

كارثةٌ بكل المقاييس.

أخيراً استطعت أن أبكى، أن أموت فى البكاء، وبدأ التليفزيون يبث تفاصيل الحدث، ومشاهد الغرق والجثث الطافية فوق سطح الماء، وصوراً حية لبعض الناجين الذين وُضع بعضهم على نقالات المسعفين، وبعضهم أجهده الفزع والصقيع وطول البقاء معافراً مع مياه البحر وأمواجه وأسماك قرشه، مكافحًا ومجاهداً من أجل النجاة والبقاء.

التفوا فى بطاطين أحضرها لهم المسعفون؛ ذكرتنى ببطاطين الحرب فى لبنان حين أخفى بها رجال الإنقاذ مشهد الجنين الذى تدلى من رحم جثمان أمه.

للبطاطين مهام أخرى فى مصر أيضًا حتى لو لم نكن فى ساحة حرب مع أبناء بنى صهيون.

للبطاطين فى مصر مهمة تدفئة الأجساد المرتعشة الناجية بمعجزة إلهية من الغرق. للبطاطين فى مصر مهمة إعادة ضخ الدماء إلى الأجساد المبتلة التى جمدها الصقيع فى طلاسم البحر ووسط

أمواجه المتلاطمة الصاخبة الغاضبة فى ظلمة ليلة شتوية بلا قمر وبلا ومضة نور.

وللبطاطين فى مصر مهمة إخفاء الجثث المشوهة التى خرجت لتوها مبتورة الأجزاء، ممزقة الأحشاء بعدما تلقفتها أسنان أسماك القرش وتناوبت عليها لساعاتٍ طوال بين الأنين ونزف الجراح وظلمة البحر والسماء.

وللبطاطين فى مصر مهمة إخفاء وجوه بعض الناجين لحين انتهاء إجراءات التقاضى وضياع الحقوق وإغراقها مع أصحابها الغارقين فى أعماق البحر فى ظلمة الفساد والمفسدين.

وتذكرت حكاية كانت قد حكتها لى أمى عندما كنت صغيرة. قالت:

كُنَّا فى الشتا، وكان الجو بارد أوى، وكنت نايمة فى حضن أمى وأنا صغيرة، وكان خالك فى الجيش، ومرة جاب معاه بطانية صوف. الكلام ده كان بعد حرب ٦٧، بعد النكسة يعنى، والدنيا زمان كانت ضلمة قوى؛ يا دوب كنا بنَّام على لمبة سهراية زى لمبة الجاز كده بس أصغر شوية، وفجأة سمعت أنا وأمى -قبل أذان الفجر- صوت حد بيصرخ وحسينا بهزة، قمنا مفزوعين وجرينا بره الدار وقلنا زلزال. لما طلعنا بره الدار مالقيناش ولا صريِّخ ابن يومين، ولا كان حد صحى غيرنا. استغربنا وقلنا يمكن كان بيتهيأ لنا ودخلنا ننام تانى.

وأول ما عينينا راحت فى النوم صحينا تانى على صوت صراخ وأصوات تانية غريبة عاملة زى ضرب النار، ولقينا السرير بيتهز بينا، ومرة واحدة جرينا احنا الاتنين وقعدنا نصرخ، وخرجنا تانى

بره الدار، وخالك صحى وجالنا، ولما حكينا له على اللى حصل دخل جوه الأوضة بتاعتنا ولقى البطانية عمَّالة تتهز لوحدها وطالع منها أصوات غريبة، قعد يكبَّر ويسمى ويتشاهد لحد ما الصوت سكت خالص والبطانية بطَّلت تتحرك، وقام واخدها بره الدار وولع فيها النار. ساعتها قال لنا إن البطانية دى كانت ملبوسة ومليانة عفاريت لناس اتقتلوا فى الحرب.

لَمّا كبرت وافتكرت الحكاية دى بقيت أسأل:

مش اللى بيموت فى الحرب بيبقى شهيد؟ طيب همّا الشهدا بيطلع لهم عفاريت؟ لو كانت الحكاية كده كانت البلد كلها اتملت عفاريت، لأن كل شبر فى أرض مصر أكيد راح فيه شهيد على مرّ التاريخ.

بطاطين فى العراق.. بطاطين فى فلسطين.. بطاطين فى لبنان.. و.. بطاطين فى قرية أمى.. وفى مصر..

رغم فداحة الحدث وقسوته وإيلامه وجبروته فوجئت ببث الأغنيات على كل القنوات التابعة لتليفزيون مصر. بث الأغنيات المبهجة والبرامج الداعمة للمنتخب المصرى الرياضى لمشاركته فى مباريات كأس الأمم الإفريقية. بث الأغنيات بدلاً من أربعين يومًا تُعلن الحداد على روح ١٣٥٠ مواطنًا مصريًا قتلهم الإهمال والفساد، والكبار الذين غابوا عن ساحات المحاكم وتركوا قاعاتها دون متهمين. فقط ضجت القاعات بأهالى الضحايا الثكلى.. المكلومين.. المجروحين.

أربعون يومًا للحداد على أرواح ١٣٥٠ مصريًا قُتلوا عمداً وإهمالاً وغرقًا وإمعانًا فى الفساد والطغيان أمام أعين ملايين

المصريين، وكأن أحداً يخرج لنا لسانه فى تحد وهو يقول: (مالكوش تمن يا ولاد الـ....).

أربعون يومًا لم يتقرر منها يوم للحداد، وإذا بالأغنيات تتواصل للكرة، والهتافات تعلو فى شوارع القاهرة ومحافظاتها تشجيعاً للمنتخب المصرى الذى سوف يشارك فى مباريات كأس الأمم الإفريقية.. (وطظ فيكى يا بلد..).

فرحة مقترنة بالحزن.. نفس مشهد العرس القديم.. لا أعرف من أراد أن يلهينا.. من أراد أن يخمد صرختنا ويكتم غضبتنا ويقتل دمعتنا وينحر نخوتنا.

لقد رفرف العلم المصرى فى شوارع وميادين القاهرة ومحافظاتها وفى مدرجات الاستاد، وعلى المقاهى وفى المزارع وعلى شاطئ النيل، اكتظت الشوارع بعشرات الآلاف من المشجعين. مشهد لا تسمح به الدولة للغاضبين المتظاهرين. رفرف علم مصر من أجل كرة القدم. رفرف علم مصر، بينما مصر نفسها هى التى غرقت فى ظلمة عمق البحر الأحمر بطول الميناء من سفاجا إلى ضبا. من مصر إلى السعودية. من الوريد إلى الوريد. مصر التى غرقت فى ظلمة بحر الفساد والمفسدين والفاسدين.

غرقت مصر فى البحر، وغرقت أنا فى قصة هوى عقيم. ما بين الوطن وبينك أنت.

ضجت الذاكرة بذكرياتى معك. بالأحداث التى بدأت تطفو على سطحها مثلما طفت جثث الغرقى من شهداء الفساد فوق مياه البحر. وبدت لى كل حكاية أذكرها كجثةٍ عادت لتطفو من جديد فوق

سطح ذاكرتى. وبادرنى سؤال: هل يكرهنا الوطن؟ هل تكرهنا مصر ونحن الأبناء المحبُّون العاشقون؟ إذا كان العيب فينا -نحن الأبناء- فيا أيها الوطن نحن لا نقول إننا نحب فلانًا لأن سماته كذا وكذا، بل نقول نحب فلانًا رغم أن صفاته كذا.. وكذا.

هكذا أحببتك.. وهكذا عشقت الوطن.

الوطن.. كلمةُ عذبة، ولكن ما هو الوطن؟ أليس الوطن قوانين تحترمنى ونظامًا يصون كرامتى وحقوقى؟ أليس الوطن أرضًا تحتوى ميلادى وطفولتى وشبابى وأحلامى وتحنو على شيخوختى وتحتضن فى نهايتى موتى وتضم جسدى؟

أليس الوطن سكنًا آوى إليه بهمى وجرحى وأحنُّ إليه من بلاد غربتى؟ ألم يكن الوطن يومًا فى زمن لم أعاصره هو البلسم الذى يداوى جراح الحياة ووجعها؟ من فى مصر الآن يشعر بأنه يعيش فى وطن؟

وطنى الذى لم يعد ملكًا لى ولا لأمثالى من حلموا بأن يزرعوا أرضه ويخصِّبوا وديانه ويعمروا صحراءه. من بذلوا فيه الهوى والعشق فصاروا على أعتابه ضحايا جنون حب وشهداء شوق. وطنى الذى طرد عشاقه إلى خارج جسده فصار جسدًا بلا رأس ولا قلب، وأرضًا بلا محبين مخلصين. أصبحت طريدة منه.. طريدة منك.. خارج حدودكما بأوامر سياديه. وطنى الذى لم يعد هو. وطنى الذى لم يعد أنت.

علاقتى بك هى نفس علاقتى اليوم بالوطن.

فما زلت أتشبث بانتمائى لك رغم قسوتك علىّ، وما زلت أتشبث بالوطن رغم قسوته علىّ. إنك مأساتى الخاصة. إنك مأساة جيل.

رغم هذا كله أحبك أنت، وأحب الوطن. أحبُّك كما أراد الله لنا أن نحب، وأحبُّك كما أمرنا الله أن نحب، وأحبُّك كما ينبغى للحب أن يُحَبْ.

الله محبة. محبةٌ اشتققناها من سمات الله. فهل يلومنا عليها البشر؟ أحبك. كما ينبغى للحياة أن تحب.

الله محبة. كلمةٌ إسلاميةٌ قبطيةٌ إنسانية بشرية.

الله محبة. لماذا لا نقول الله إيمان. الله صلاة. الله التزام. الله تقوى؟ لماذا اخترنا لله صفة المحبة؟ إنها السر فى البقاء وفى الحياة وفى الوجود. إنها الكلمة السحرية التى تمتلكنا وترحمنا وتدق فى قلوبنا طبول الحب. إنه الحب الذى يمنح كل الأشياء قيمةً وجمالاً، بعداً آخر من الرؤية لا نعيشه إلا عندما نحب. إنها الحالة الإنسانية الوحيدة التى تستطيع أن تنقى القلوب والنفوس من كل شر. إنه المتعة الحقيقية التى أرادها الله لنا وأنعم بها علينا فوصفناه بها. الله محبة.

فلماذا تستكثر علىَّ -أنت والوطن- أن أحب؟

جاءنى صوت عم محمود -الساعى- لينتشلنى من دوامات صمتى وغياهب صبرى. قال:

- يا أستاذة. فيه واحدة بتسأل على حضرتك بره.

- خليها تدخل يا عم محمود. «قلتها بصوت مستسلم لعودتى إلى ممارسة طقوس الحياة».

كانت قد تجاوزت الخمسين من عمرها. نحيفة. سمراء. انكمش جلد وجهها ويديها ورقبتها. ترتدى عباءة سوداء وغطاء رأس ريفياً

بنفس سواد الثوب. قالت وهى تجهش بالبكاء: (والله يا بنتى ما عمل حاجة. ده غلبان. ده لسه عيّل ما يعرفش حاجة عن الدنيا. جاللى بعد سنين مرار وشقا. دا أنا تعبانة وشقيانة عليهم بعد أبوهم ما مات. دول ست عيال يا ناس وقلت دول ميراثى فى الدنيا).

كان بكاؤها مُرًّا وقاسيًا، ودموعها تخرج من قلب القلب: أبكتنى وأحرقنى حزنها وآلمنى وجعها، ولم أكن قد عرفت بعد أصل الحكاية.

"قالوا إنه سرق باكو شاى. طيب هو باكو شاى يستاهل إنهم يعذبوه لحد ما يموت. لو كانوا طلبوا منى ثمنه والله كنت بعت هدومى وإديتهم اللى هما عاوزينه. حرام عليهم اللى عملوه فىّ وفى اخواته. والله حرام".

كان جسدها النحيف يرتجف، ويداها اليابستان تفصحان عن رحلة شقاء طويلة. فللكفين أيضًا معالم وتاريخ، وللمسهما الكثير من الحكايات والتفاصيل والمعانى التى تحكى قصة وطن.

اسمها "سعيدة سرور". اسم على غير مسمى: امرأة أضناها «الغُلب» فعانت مرارة الفقر طوال حياتها، وحين تزوجت كان الزوج قليل الحيلة والرزق والعمر أيضًا. رحل تاركًا لها ستة من الأبناء أصغرهم طفلة لم ير حتى ملامح وجهها. رحل ولم يترك لزوجته إرثًا إلا الفقر وقلة الحيلة وستة من الأبناء حرمتهم الحياة من كل نعمها إلا من نعمة الصبر، تلك التى أبقتهم على قيد الحياة. وحين فقدها «محمد» مات!

كانت سعيدة التعيسة الحزينة تعمل وتشقى طوال اليوم حتى تستطيع أن توفر فى نهاية نهاره بعض الخبز لصغارها، وحينما

تعود إليهم يهرولون إليها ليأكلوا خبزهم دون «غموس»، ويكملوا عشاءهم نومًا بينما تُقبِّل سعيدة يديها «وش وضهر» وتحمد ربها على نعمة الصبر ووجبة الخبز. قالت: «كلما كبر أولادى كانت أحلامى تكبر معهم، وتمنيت أن يأتى اليوم ويستطيع كل منهم أن يشق طريقه بنفسه. ماكنتش بنام عشان يبقى ولادى فى أحسن حال. اشتغلت على قد ما قدرت. كنت أصحى كل يوم الفجر أدوَّر على شغل. يوم أخدم فى البيوت ويوم أجمع الخردة من الزبالة وأبيعها لتاجر خردة بجنيه ولا اتنين. وأهُهْ. زى ما تطلع. المهم أجيب عيش للعيال وأنا راجعة البيت وعارفة إن الجوع واكلهم. لقمة حاف بدون غموس لكن أحسن ما يموتوا من الجوع. لما كبر «إبراهيم» – ابنى الكبير– اتقبض عليه لأنه كان معاه مطوة. أنا عارفة إن ده غلط، لكن ولادى طول عمرهم فى حالهم وماحدش اشتكى مننا ولا أذينا حد. ولادى طول عمرهم حاسين إنهم خايفين. خايفين من الناس اللى أحسن منهم واللى أقوى منهم. خايفين من الفقر. بقول يمكن الواد شايل المطوة دى عشان يحمى نفسه؛ أصل احنا ساكنين فى حته مليانة بلطجية. والله ما كان هايأذى حد، أكيد كان شايلها منظرة ولاَّ يهوِّش بيها بس. قلت لهم يا ولاد ارحموه. ناس كتير معاها مطاوى. يمكن يا ولاد كان عاوز يتمنظر بيها قدام أصحابه، وهو هايجيب تمنها منين بس؟ هو إحنا لاقيين ناكل!

لكن «إبراهيم» اتحكم عليه بغرامة ٥٠٠ جنيه؛ إما يدفعها أو يتسجن ٦ شهور، وطبعًا ماقدرناش ندفع الغرامة، وهاجيب الـ ٥٠٠ جنيه منين بس يا ناس! هو أنا لاقية آآكلهم العيش الحاف؟ ومين ها

يسلفنى المبلغ ده؟ هو فيه حد يرمى ٥٠٠ جنيه وعارف إنى مش هاقدر أسددهم؟

رحت للأستاذ محمد المحامي وطلبت منه يساعدنى فكتب طلب للمأمور عشان إبراهيم يقضى فترة العقوبة دى أشغال فى القسم ويرجع كل يوم للبيت، لكن المأمور رفض؛ سلِّمت أمرى لله وقلت كفاية علىَّ محمد ابنى يساعدنى لحد ما يخرج أخوه من الحبس، وفى يوم خرجت من الصبح أدوَّر على رزق عيالى، ولما رجعت آخر النهار مالقيتش محمد، قلت يمكن طلع فى شغل مع حد من سواقين الميكروباص، أهُه ساعات كانوا بيطلبوه وآخر اليوم يدولو اللى فيه النصيب ويرجع. لكن عدَّى يومين وأنا مش عارفة عنه حاجة، ومش عارفة أروح لمين أسأله لحد ما جارتى قالت لى الحقى محمد مقبوض عليه فى القسم، ولما رحت عرفت إنه متهم بسرقة باكو شاى، اتهموا اتنين كانت الحكومة مسكتهم، واتفقوا يلفقوا التهمه لابنى عشان يخرجوا هما الاتنين من القضية.

ارتجفت يداها النحيفتان صاحبة العروق البارزة والجلد المتشقق بفعل قسوة العمل وطول الشقا والهم. صمتت، وصبرت، ثم عادت تقول: يا ترى يا ضنايا اتحملت وجعك إزاى؟ كان ربنا مقدرك ومصبرك ولا الوجع كان أكبر من صبرك يا حبيبى؟

مالم تره (أم محمد)، لكنها عرفته فيما بعد، أن صغيرها تعرض لشتى أنواع التعذيب بسبب (باكو شاى)، وأمام عينى أخيه المطلة من خلف باب محبسه بقسم الشرطة قام أحد المخبرين بضرب (محمد). صرخ أخوه وهو ينادى على المخبر أن يترك الطفل، إلا أن

الأخير لم يستجب، ولما اشتد الضرب تعالت صرخات المسجونين من داخل زنزانة الحجز وامتزجت صرخاتهم ببكاء وصراخ «محمد»، وأمام الأخ الأكبر كان زبانية التعذيب يحرقون جسد «محمد» بالكهرباء، بينما يتعالى صوت شقيقه «إبراهيم» متوسلاً أن يرحموا الصغير. مستغيثًا: «أبوس إيديكم سيبوه. حرام عليكم هايموت. كفاية». يحاول محمد مد ذراعه علّه يمسك بيد أخيه فينقذه. رغم الحبس والسجان يبسط محمد كفه باتجاه الزنزانة، وبنظرة مستغيثة، وعين أدماها البكاء، يصرخ: «الحقنى يا إبراهيم».

كلاهما يتعذب، وكلاهما يموت. يومان كاملان من العذاب المحموم، يقف الشقيقان، أحدهما داخل غرفة حبسه، والآخر ملقى أمامه فوق الأرض منهك القوى، مهدر الكرامة التى لم يمهله القدر ليعرف عنها شيئًا منذ ولادته.

عاد المخبر المسعور لاستكمال مراسم تعذيب «مخمد»، فظل يركله بقدمين قاسيتين فى صدره الضعيف حتى سقط الصغير مغشياً عليه، بينما لا تزال صرخات شقيقه تدوِّى من خلف قضبانه لازمتها صرخات مئة وعشرين سجينًا اهتزت لصراخهم حوائط الزنزانة وحجارتها وحديدها، ولم تشعر بها قلوب العسكر وضمائر المعذبين.

ظن الجميع أن محمداً قد مات حتى جاء مخبر آخر وأعطاه حقنة أفاقته من الغيبوبة، (ليته تركه فى غيبوبته، فربما لم يشعر بآلامه وهو غائب عن الوعى. ولكن من يهون عليه عذاب إنسان، ومن يهون عليه توسل وبكاء وأنين طفل فى عمر محمد لا يبالى إن كانت غيبوبته ترحمه بعض الشىء من الألم أم لا).

من خلف القضبان الحديدية امتدت نظرة أمل من عينى (إبراهيم) نحو شقيقه الذى أفاقته الحقنة، والذى اشتدت حالته سوءاً وازداد نزف دمه.

غاب جسد محمد عن عينى أخيه بعد أن سحبه المخبرون إلى رواق آخر بالقسم وقد استدعى الضابط النوبتجى طبيبًا -معرفة- من المستشفى لينقذهم من مصيبة محتملة لو مات الطفل، ولأن المأساة لا بد لها من أن تكتمل حتى نهايتها، ولأن الألم لا بد من أن يبلغ حد النهاية أيضًا، فقد أُجريت لمحمد عملية جراحية بصدره المفتوح بين ممرات قسم الشرطة، وظل ملقى لثلاثة أيام فوق البلاط، كانت جراح محمد تؤلمه حتى تعفنت داخل وخارج جسده، وتسربت رائحتها إلى غرف القسم، وبدا ينفر منها جلادوه، ولم تفلح العملية الجراحية التى أضافت لآلامه ألمًا جديداً، وأضافت لجراحه جرحًا آخر، واضطر زبانية التعذيب لإرسال محمد إلى مستشفى الصدر بالمنصورة، وبعد توصية من قسم الشرطة، واستكمالا لمسلسل تعذيب محمد، قامت إحدى الممرضات بحمله ليلاً وألقته مثل قطعة قماش بالية إلى جانب حائط فوق كومة قمامة بجوار موقف سيارات الميكروباص. ولأن محمد كان يعمل أحيانًا مع بعض سائقى الميكروباص، فقد تعرفوا عليه وحملوه إلى أمه التى صُعقت لما رأت صغيرها على هذه الحال، وهرعت به إلى مستشفى الصدر، وهناك رفضوا استقباله لأنهم طبعًا يعرفون ما حدث له ومن فعل به ذلك. ومرة أخرى تحمل الأم صغيرها المرتجف الذى اصفر جسده ودب الصقيع فى أطرافه حتى تجمدت، وضعفت أنفاسه وهو يئن بجراحه

بين يديها. أسرعت به إلى مستشفى آخر، وهناك قام الأطباء بتطهير وتعقيم جراحه الملوثة ومنحوه بعض المحاليل ليستمر نبضه ثم حولوه بخطاب رسمى إلى مستشفى الصدر مرة أخرى، وسجلوا فى خطاب التحويل أن علاج محمد لا يتوفر إلا هناك، ورغم هذا رفض المستشفى استقباله رفضًا قاطعًا، فلا رسالة إنسانية للمهنة الملائكية، ولا مشاعر بشرية تعرف معنى الرحمة وتدرك قسوة وحجم الألم الذى يعانيه طفل فى عمر محمد الذى لم تجد أمه بديلاً، وهى القليلة الحيلة والرزق، عن العودة به إلى جدران منزلها الطينى الفقير لتضم ما تبقى من أنفاس صغيرها التى تخفت علّه يحصل على بعض من الدفء وشىء من الأمان قبل الرحيل. وبعد يومين من نظر عينى أمه إلى الجسد العليل مات محمد. حملت أم محمد جثمان ولدها وذهبت به إلى النيابة العامة التى بدأت تحقيقاتها وأمرت بتشريح الجثه التى وُضعت داخل ثلاجة المستشفى.

وتحت جنح الظلام عادت خفافيش الليل لتمارس وحشيتها وهمجيتها فسرقت الجثة من المشرحة.

حتى الموتى فى بلدنا لم تعد لجثامينهم حرمة. الموت مجانًا، والقتل مجانًا.

تحت جنح الظلام استدعى مأمور القسم وضباطه «إبراهيم»، شقيق محمد، من زنزانته، وأجبروه على الذهاب معهم لدفن جثمان شقيقه فجرًا دون حضور أحد من أسرته. وهو الشاهد على تفاصيل قتل أخيه. وعند المقابر أُجبر على البقاء داخل عربة الترحيلات التى جاء بها من محبسه بقسم الشرطة، بينما قام المأمور وعمدة القرية

وعضو مجلس الشعب عن الدائرة باستكمال مراسم الدفن لجثة كان من المفترض أن يكونوا جميعهم حماة لحقوق وكرامة وجسد وحياة صاحبها. ثم بدأت المساومات مع إبراهيم وأمه.

كنت أقرأ ملف القضية الذى حصلت عليه من أحد المراكز الحقوقية بينما يعتصرنى الوجع الذى تغلغل فى كل خلايا جسدى وتناثر بين ذرات دمائى وأنسجتى، وجع من قسوة البشر إلى حد لا نهاية له.

وجع من عذاب ألم بجسد طفل لا قيمة لحياته وآلامه على أرض وطنه.

وجع من ضمير أحاول إخماد ثورته وقلب أقسو عليه لأطفئ نيران غضبه.

وجع من مشاعر خوف أجلستنى فوق مقعدى وأخرستنى فوق طاولة مكتبى لأكتب عن مأساة محمد وأمه وأنا ألملم ثورتى وغضبى فلا أصرخ بصوت عال، ولا أحتج ممارسةً لحقى المشروع فى الحفاظ على حياتى وحياة أحبائى وأسرتى وأصدقائى وجيرانى وأبناء وطنى.

وجع من مشاعر خوف جعلتنى أكتب عن قتل محمد ومأساة أمه مجرد موضوع صحفى يطوى صفحاته من يقرأ وتُستخدم أوراقه فى لف بضعة أقراص من الطعمية فى مطعم فول وفلافل، أو يُصنع منهما قرطاس يعبئ فيه «العلاف» بضع حبات من الغلة لإطعام دجاجة أو حمامة نربيها داخل منازلنا المجروحة. أخبرتنى المرأة بأن هناك من أتى لها بعد النشر ليساومها على الصمت. ظن من ساوم أم محمد وشقيقه

بالمال تارة وبالتهديد والوعيد تارةً أخرى للتنازل عن حق الصغير أنهما سيوافقان لأنهما فى حاجة للمال، وفى حاجة للأمان، وهما من لا ظهر لهما ولا سند. فهل توقع المساومون أن أم محمد ستقبل التنازل عن حق الصغير اليتيم الذى لم يقتله الجوع والفقر كما كانت تخشى طوال عمرها، بل قتله الوجع والقهر والألم والظلم والخوف.

صعدت روح محمد إلى السماء تاركةً ما تبقى من جسده المعتل عبرة لكل أبناء الغلابة من الفقراء والبسطاء المطحونين الكادحين الذين أصبحت أجسادهم وأرواحهم وقوداً يستدفئ به عتاة الوطن فى ليل الشتاء، ولعبة يتسلون بها فى أوقات الفراغ.

طالبت أم محمد باستخراج جثة ابنها وتشريح جثمانه، لكننا فى الحقيقة لسنا محتاجين لتشريح جثة محمد لمعرفة ما حدث له أمام عشرات الشهود. إننا فى حاجة مُلحَّة وقصوى إلى تشريح جثث زبانيته لنعرف ماذا يحملون داخل صدورهم بديلاً عن القلوب التى يحملها البشر، وما الذى يسرى فى عروقهم بديلاً عن الدماء.

تذكرت رباعية لصلاح جاهين قال فيها:

أنا كل يوم أسمع فلان عذِّبوه

أسرح فى بغداد والجزاير وأتوه

ما اعجبش م اللى يطيق بجسمه العذاب

وأعجب من اللى يطيق يعذب أخوه.

وأسأل نفسى: كيف لم ترق مشاعر أحد من زبانية التعذيب أمام استغاثة ودموع الصغير التى تساقطت فوق بلاط رواق القسم تختلط بدمائه وتتوسل لهم بأن يرحموه؟

كيف لم تنتب أحدهم رعشة الخوف من الضمير.. من الموت.. من الله؟

ألم يتألم أحدهم حين رفع الصغير كفه يستصرخهم وجعًا وخوفًا ومذلة، ويستحلفهم بأن يتركوه بعدما أفقدوه القدرة على الكلام؟ كيف ينظر هؤلاء إلى أبنائهم؟ كيف يعاملون صغارهم؟ ألم يتخيل أحدهم، ولو للحظة، أن هذا الصغير الذى لا حول له ولا قوة وهو بين أيديهم وتحت أقدامهم، ربما يكون ابنه أو أخاه أو أحدًا من أحبائه!

لقد تحول أطفال الوطن إلى جثث معذبة تحت رماد المقابر وفى ثلاجات الموتى. تحول أمل الوطن إلى ألم مبرح، ومستقبله إلى ماض مشوه مذبوح فى أروقة العدالة وبضع أوراق فى ملفات قضايا المراكز الحقوقية وفوق صفحات جرائد تُطوى داخلها أقراص الطعمية.

أصبح لزامًا على غلابة مصر، بطول البلاد وعرضها، أن يضموا أطفالهم فى صدورهم، يعانقوهم عناقًا طويلاً، كبيرًا، أن يقبلوهم حتى يطفئوا وهج الشوق إليهم، فهم لا يعرفون ما إذا كانوا يومًا سيصبحون ضحايا وجثثًا تتوارى تحت الرماد فى جنح الظلام يغتالها وحوش يعيشون بيننا فى هيئة بشر.

فى نفس هذا المكان بمكتبى منذ شهور جلس مصرى آخر يحكى قصة ابنه أيضًا. ذلك الشاب الذى عمل والده طوال حياته على تعليمه هو وأشقاؤه، وبذل فى ذلك سنوات طويلة من عمره ومن صحته ومن وقته. كان يعمل أكثر من عمل ويواصل الليل بالنهار حتى يتمكن من الإنفاق على تعليم ابنه فى المدارس الحكومية التى

فقدت مجانية التعليم بها بأشكال كثيرة فعادت كما كانت عليه قبل قيام ثورة يوليو، حيث يقتصر التعليم فيها على القادرين فقط. بعد رحلة شقاء تمكن الشاب من الحصول على ليسانس الحقوق بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، وتوافرت فيه كل شروط الالتحاق بالنيابة العامة، حلمه وحلم أبيه أن يعمل وكيلاً للنيابة؛ ينصر المظلومين ويحاسب الظالمين. يحكى الأب عن أنه عندما تقدم بأوراق ابنه تم استبعاده، ولم يُقبَل للتعيين فى النيابة، وأن من تم قبوله وتعيينه زميل آخر لابنه حصل على تقدير مقبول، ولكن والده مستشار، مما أصاب الرجل وابنه بحالة نفسية بالغة السوء.

قصة متشابهة مع حكاية «عبد الحميد شتا»، هذا الشاب المتفوق الذى حصل على بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية مع مرتبة الشرف بتقدير امتياز؛ ظن عبد الحميد أن الدورات التدريبية المكثفة التى حصل عليها فى كثير من المجالات، إضافة إلى تقديره ومؤهله، ستكون جميعها «واسطته» للالتحاق بالسلك الدبلوماسى، وظن أنه يومًا ما سوف يستطيع أن يمثل مصر، وأن ابنًا من أبناء فلاحيها ومزارعيها والغلابة فيها سيستطيع أن يكون يومًا ما سفيراً لبلاده، وربما وزيراً لخارجيتها، ولِمَ لا وهو المتفوق الملتزم صاحب الامتياز والشرف؟ كبر الحلم فى رأس عبد الحميد عندما تخيل نفسه يتحدث فى العالم «باسم مصر»، مصر التى عشقها وتشبث بترابها وولد وعاش وتربى فيها وتفوق لأجلها، وعندما أعلنت وزارة الخارجية المصرية عن حاجتها لحملة مؤهلات بشروط انطبقت جميعها على "عبد الحميد" تقدم، ولم يكن ينتظرّ إلا موعد ارتدائه البدلة الدبلوماسية. إلا

أن انتظاره طال، وعندما توجه للخارجية المصرية للسؤال عن أوراقه فوجئ بإعادة ملفه له، ولكن بعد أن كتبت عليه عبارة: (غير لائق اجتماعيًا). لم يحتمل «عبد الحميد»، المواطن الشاب المصرى، قسوة هذه العبارة التى سُجلت فوق أوراقه وتفوقه ونبوغه واجتهاده وأحلامه وصبره. «غير لائق إجتماعيًا» أدت إلى انتحار «عبد الحميد» وهو يؤمن بأنه لم يعد له مكان فى الوطن، وطنه الذى تبرأ منه ومن أهله الغلابة الذين حملوا الهم فطالهم جرح الوطن.

رغم هذا كله ما زلت أبحث عنك، وعن الوطن؛ أنظر إلى كل هذه الوجوه حولى أستجدى دعوة براحة البال، أنضم إلى الهائمين على وجوههم فى بيوت الله بحثًا عن نفحة رحمة تأتينى من السماء، يتعلق قلبى بكل مئذنة لمسجد وقت الأذان لكل صلاة وكل جرس لكنيسة يدق للتذكرة بالله، أحسك ملء الهواء وملء الأرض وملء السماء، وبالرغم من هذا لا أراك.

أدرك أن أحدًا لا يموت لكونه فارق من أحب، ولكن ما يموت هو أجمل ما فينا، أفضل الأحلام فينا، الحياة فينا، أكثر مشاعرنا بهجةً وأملاً ونورًا. إنك مأساتى وحدى، ألتاع بمرارتها ونيرانها وحدى، تفيض ثورات براكينها فى صدرى وحدى. إنك جرحى الذى أفخر به ويخجل منى. إنك خصوصيتى التى أنزوى بها فى زاويتى وأملى التائه الذى تجتره دومًا ذاكرتى. إنك توبتى وذنبى الأكبر الذى لا غفران له ولا تبرئة منه.

كنت أكره النوم كما كنت أكره كل التفاصيل التى تحرمنى منك، بُعد المسافة بينك وبينى، ساعات عملك وعملى، أيام سفرك وأيام

انزوائى فى زاويتى. اليوم أخشى أن أكرهك أنت لأنك تحرمنى منك.

يا لسذاجتى وحماقتى وضعفى! أمد إليك يدى فتجدد فى جرحى. أشتاقك فتهجرنى. أحنُّ إليك فتغدر بى. أناديك فتصم أذنيك عن لهفتى وصوتى. لماذا يصم الوطن أذنه عن صوتى، عن صوت عبد الحميد شتا و"محمد" ابن قرية شها؟ لماذا تتجاهلنى ويتجاهلنى الوطن؟

زحام شديد ووجوه كثيرة تمر من حولى لمصريين تبدلت ملامحهم تمامًا مثلما تبدلت ملامح الزمن، صاروا أكثر حزنًا وأشد وجعًا وعبوسًا. فماذا أصاب الناس؟ ماذا أصابنى؟ لماذا تبددت ابتسامتنا جميعًا؟

شعرت بصداع ودوار شديدين؛ ربما لأنى لم آكل شيئًا منذ أيام، وربما لأنى أُرهقت من السير الطويل، وربما لأنى أعانى من التفكير فيك.

ها هى بعض الحلوى التى تباع فوق الرصيف؛ قد تعيننى واحدة منها على استكمال طريقى الذى لا أعرف أين ينتهى بى. أمسكت بها وكأنها قرص دواء آمل أن يسعفنى من آلام صداع عاود دق رأسى، بعد أن فتحت الحلوى اكتشفت أنها بلا اسم، بلا علامة تجارية، بلا بلد للمنشأ، بلا أصل أو تاريخ أو ملامح، بلا هوية. وجدت أنها تشبهنى تمامًا. تشبه حكايتى ومعالمى ومشاعرى. تشبه كل شىء حولى. هى مثلى مثل كل شىء فى مصر الآن. مثل هؤلاء العمال الذين يملأون شوارع القاهرة، والذين تحولوا إلى جملةٍ من الهموم محمولة فوق الأكتاف، إلى حصيلة فقر وغياب ضمير وتفشى

فساد وانهيار قيم. تحولنا جميعًا إلى معاناة غربة وسنوات ضياع وحكايات فشل وقصص موت على أعتاب وطن. لقد تحولنا إلى أنصاف موتى، أنصاف أحياء، وأنصاف بشر، وتحولت مصر إلى شبه وطن، فلم تعد لنا، ولم نعد منها، على الرغم من أننا ما زلنا نعيش فيها ولا نعرف أرضًا سواها. مثلى أنا وهى. مثلى أنا وأنت. أنت وطنى الذى لم يعد يشعر بى ولم أعد أنتمى إليه. وطنى الذى عشقته لكننى أحلم بالهجرة منه عبر قوارب موت جماعية فى هجرة غير شرعية، عبر جواز سفر مزور وتحت اسم مستعار، وفى قوارب موت حتمى وجماعى، وعبر جماعات نصب تنهب ما تبقى للفقراء من قوت ومن أحلام ومن كرامة. مثلى ومثلك أنت علاقتنا اليوم بالوطن.

للموت رائحة تميزه أشتمها عن بعد فأستطيع أن أدرك مدى قربه، كما حدث يوم مصرع خالى الذى قتلته رصاصات التهنئة فى ليلة عُرس بقرية أمى.

للموت تفاصيل تسبقه قبل قدومه تثير قبضًا فى القلب وتضع همًّا ثقيلاً يجثم على الأنفاس والصدر.

ضيق لا تعلم مصدره، وألم نفسى لا تفهم سببه. تصيبنى هذه الحالة مع بداية الموسم الدراسى، ومع كل ليلة عيد، ومع بزوغ هلال رمضان فى السماء، حين ترتفع حالات انتحار الآباء من الغلابة الذين يعجزون عن توفير احتياجات أبنائهم مع بداية عام دراسى جديد، أو ملابس جديدة يحلمون بها فى ليلة عيد. هكذا تحولت الأشياء التى كانت مصدرًا لبهجتنا وسعادتنا إلى أشباح نخاف من طلتها علينا وندعو بألا يقترب موعدها.

للموت تفاصيل تسبقه شعرت بها قبل سقوط الطائرة المصرية فى المحيط، وقبل غرق العبارة المصرية فى البحر الأحمر، وشعرت بها قبل رحيل أحلام.

وأحلام.. هى ابنة رجل فقير قادته ظروف فقره للسكن فى حضن الجبل منتظراً اهتماماً تأخر كثيراً. فعندما تمكن أبوها من شراء ملابس المدرسة لها ماتت فرحتها بها لسبب آخر غير عجزه عن شرائها، وكأنه كان لزاماً وفرضاً ألا تعيش أحلام لحظة فرح.

شرع الأب فى الخروج من منزله فى الثامنة صباحاً للذهاب إلى عمله، فأسرعت أحلام -ابنة العشرة أعوام- بالنهوض من فراشها للحاق به قبل أن يخرج.

- بابا.. صباح الخير.

- إنتى صحيتى ليه دلوقتى يا أحلام؟ ده انتى متعودة فى رمضان تقومى من النوم بعد الظهر: يا بنتى ده انتى نايمة والنهار طالع!

- أصلى قلت أفكرك باللى اتفقنا عليه امبارح.

- فاكر والله.. هدوم المدرسة والشنطة الجديدة. مش ناسى إن المدرسة بعد كام يوم. ادخلى نامى واطَّمِّنى.

فى الخامسة من مساء نفس اليوم عاد والد أحلام إلى البيت وفى يديه حقيبة المدرسة الخاصة بأحلام، وزيُّها المدرسى الذى كررت طلبها له منذ أسابيع عديدة. أسرعت الصغيرة نحوه وهتفت فى سعادة عفوية: (هيه.. تعالى يا ماما! شوفى بابا اشترى لى حاجة المدرسة). تأتى الأم والأخوة الصغار والكبار لأحلام، فهى الابنة رقم

أربعة ضمن خمسة من الأخوة، ثلاثة يكبرونها جميعهم بمراحل التعليم، وشقيق يصغرها يكاد يحبو فوق الأرض، ربما بضعة أيام أخرى لو أضيفت إلى عمره لكان استطاع أن يخطو أولى خطواته على قدمه.

مضى اليوم فى البيت عاديًا إلا مع "أحلام" التى تدخل غرفتها كل بضع دقائق تطمئن على أشيائها التى أحضرها إليها أبوها، تشم رائحة ملابس المدرسة، وتفتح حقيبتها، تحدث نفسها بأنها هنا ستضع الأقلام، وهنا الكراسات، وهنا كتب الدين والتاريخ. هكذا مضى اليوم الذى عاشت فيه أحلام أجمل لحظات حياتها، فمنذ زمن لم تحصل على ملابس جديدة، فراتب والدها البسيط بالكاد يكفى وجبة طعام أو وجبتين على أكثر تقدير لأسرتها، وهى تدرك جيداً أن والدها لا حيلة له فى قلة دخله، فماذا يفعل أكثر من كونه يعمل ورديتين فى اليوم ولديه زوجة وخمسة أبناء يعولهم فى ظل غلاء الأسعار المتزايد يومًا بعد اليوم وساعة بعد أخرى، وحياة تقهرهم بتفاصيلها ومعانيها اليومية، ووطن لا يعرفهم! لكنها الصغيرة تفهم، وترضى بالحال، وتحلم بأن تفعل شيئًا فى المستقبل يغيِّر من فقر أسرتها ويُعلى من شأن أبيها وأمها.

بالطبع لم تقرأ أحلام شيئًا عن "عبد الحميد شتا"، ولم تفكر فى أنها يومًا سيكتب على أوراق تفوقها (غير لائقة اجتماعيًا).

احتضنت أحلام أشياءها الصغيرة الجديدة، ثم نامت.

وفى الثامنة من صباح اليوم التالى أفاقت على صوت باب الشقة يقفل بعد مغادرة أبيها لعمله. ضمت ملابسها الجديدة إلى صدرها

وابتسمت، ثم عادت لتنام، فهى ليست بحاجة اليوم لأن تلهث وراء أبيها لتطلب منه أشياءها الصغيرة: ملابس العام الدراسى الجديد.

لم تمض سوى بضع دقائق لتصحو أحلام على صوت انفجارات عنيفة، فظنت أنها تعانى من كابوس كبير، لكنها سرعان ما أفاقت على صوت صراخ أمها وإخوتها الذين اختلط صراخهم بصرخات أخرى لم تفهم مصدرها، صرخات اقتحمت بيتها وأذنيها وأحلامها؛ أفزعتها وألقت فى قلبها الرعب وفى عينيها الصدمة حين رأت جدران منزلها تتساقط بينما أمها هلعى تحاول فى جنون لملمة الصغار. وفى لحظات انهار كل شىء كان يحيط بها ووجدت نفسها تتهاوى، تتخبط بين صرخات وأتربة وعويل ودموع وصخور وصفيح. تزايد الضجيج من حولها إلى حد لم تعد تسمع فيه صوت أمها واخوتها، كل ما تسمعه تعجز عن تفسيره.

لحظات مرت عليها كالدهر الطويل الذى دخل بها إلى بوتقة درب ضيق، مظلم، حالك السواد.

تغيب أحلام عن الوعى، تدخل فى غيبوبة مثل أحلامنا، بعد وقت لا تعرف كم مضى منه، تفيق، شىء ثقيل تشعر به جاثمًا فوق صدرها، ورائحة تراب تملأ الهواء حولها وتعبئ وجهها وجسدها، تحاول إزاحة هذا الشىء عنها، تعافر معه فتفشل، فتعاود المحاولة والصمود. صوت يخترق أذنيها من بين الركام. بكاء شقيقها الرضيع: تناديه: على. إنت فين؟ يشتد بكاء الصغير، تعود أحلام لتعافر مع الشىء الملقى فوقها. إنه جزء من دولاب ملابسها، حاولت الزحف بجسدها من تحته، بعد أن أيقنت عجزها عن زحزحته عنها فى هذه المرة نجحت محاولتها بصعوبة بالغة.

الرماد يملأ عينيها فلا ترى شيئًا. رماد تزيحه الدموع التى تسيل فوق وجهها المعبأ بالتراب، فترى بعضاً من بصيص ضوء ينسل من وسط الدمار المحيط بها، والذى جعلها لا تعرف فى أى مكان هى من الأرض، تتحسس طريقها بين أشياء حادة تجرح قدميها وتلامس جسدها، تزحف ببطء، تزحف نحو صوت أخيها الباكى، بصعوبة تستطيع تحديد مكانه لكنها لا تقوى على الوصول إليه، فبينهما جدار كبير يحول دون رؤيته، تحفر بيديها داخل الجدار باتجاه الصوت، يمضى الوقت ولا تسمع غير ضجيج كبير يأتيها عبر الرماد المتراكم فوقها ضجيج يمتزج مع صوت بكاء شقيقها الصغير.

تشعر بهرولة أقدام وأنفاس تتلاحق فوق الرماد المحيط بها، تحاول الصراخ كى يسمع أحد استغاثتها، فربما يتمكنون من إنقاذها وشقيقها، لكن صوت الضجيج الآتى من خارج محبسها يحول دون سماع صوتها، يضعف بكاء أخيها فتشعر بوهنه، تضاعف من محاولاتها لإحداث فتحة بالجدار الترابى المائل الذى يعزلها عن شقيقها، كادت تيأس من شدة الإعياء إلا أن ثقباً إلى الجانب الآخر جعلها تسترد بعضًا من قوتها لتعاود الحفر مجدداً بالجدار الترابى. يقترب صوت بكاء الصغير فتدقق النظر عبر الفتحة الصغيرة التى أحدثتها، وعبر أدخنة التراب ترى أمها وهى تحتضن الرضيع وقد غابت عن الوعى، بينما يحاول صغيرها إفاقتها بيديه، تناديه أحلام: على. أنا هنا. يبكى على. يتلفت بوجهه باحثًا عن صوت أحلام الذى يأتيه فى الظلام، فهو يعرفه جيداً. تصرخ أحلام منادية أمها علها تستيقظ من نومتها وتفيق من غيبوبتها، ولكن لا

تجدى النداءات والتوسلات. تدقق أحلام النظر أكثر اتساعًا للمشهد الذى تجتره عبر ثقب ضيق أحدثته بأناملها فى الجدار الترابى المائل الحائل دون وصولها لأمها وشقيقها. تفاجأ بوجود أشلاء أجساد تتناثر حول أمها خلف الجدار، تصرخ بينما يرتعد جسدها وتتسارع دقات قلبها الخائف والمذعور والوحيد. يضعف صوت بكاء شقيقها، فتحاول البحث عن مخرج من هذا القبر الذى دفنت فيه، تتحسس الأشياء حولها فتجد شيئًا معدنيًا صغيرًا، تليفون محمول لا تعرف صاحبه. يخفق قلبها مجددًا، فقد يكون أداة إنقاذ لها ولأسرتها. تضغط أزراره على رقم هاتف أبيها وتدعو الله أن يكون بهذا الهاتف رصيد. لحظة وتسمع صوت جرس. تنتظر؛ لا أحد يجيب. تكرر المحاولة مرات ومرات، وفى النهاية يأتيها صوت أبيها، (بابا. الحقنى. أنا أحلام. أنا أحلام). يرد بلهفة وصراخ:

– إنتى فين يا بنتى؟ وفين أمك وإخواتك؟

– أنا تحت التراب لكن مش عارفة أنا فين، وعلى قدامى بيعيط مش قادرة أروح له، رجلى بتوجعنى يا بابا، بتوجعنى قوى. حاسة إنها بتجيب دم. معرفش فين إخواتى. أنا تحت الأرض.

«عفوًا. لقد نفذ رصيدكم». بهذه العبارة انتهت المكالمة. عدة دقائق أخرى من التواصل ربما كانت تنقذ حياة طفلة ظلت ساعات تحت الرماد، عدة دقائق من مليارات الجنيهات التى تربحها شركات المحمول من جيوب المصريين، والتى تحاسبهم عليها بالثانية. عدة دقائق لم تكن لتفرق مع أحد فى شىء سوى أحلام ووالد أحلام.

عادت تنادى (على) الذى يبدو أنه غاب هو أيضًا عن الوعى أو

عن الحياة، كررت النداء بلا جدوى، كادت رائحة التراب المعبأ بالدم تخنقها، فجأة رن الهاتف الذى ما زالت مقبضة عليه بكفها ليأتيها صوت أبيها مرة أخرى يطلب منها أن تحاول تحديد مكانها لكنها تفشل، فهى لا تعرف سوى أنها تحت الأرض. يشتد وجعها وتعبها فتفقد الوعى.

تفيق فتشعر أن الضوء الخافت الذى تسلل إليها عبر الركام يكاد يغيب. يرن الهاتف مرة أخرى. الأب يكرر نفس السؤال الذى لا إجابة له، يخبرها بأنه ينقب عنها بكلتا يديه بين الرماد، فتبكى من الخوف والألم، تصرخ وتسأله إذا كان يسمع أنينها، فيبكى وتبكى. يخبرها بأنه يسمع أصوات بكاء وصرخات استغاثة تتناثر تحت الأنقاض، ولكنه لا يستطيع تحديد مكان أحد، ولا مساعدة أحد، ومع غياب شعاع النهار يتضاءل الأمل فى الإنقاذ، وتزداد رعشة الطفلة ورجفة جسدها مع حلول الظلام، تغيب عن الوعى ثم تعود، تنظر من خلف الجدار الترابى المائل عبر الثقب الذى أحدثته يداها، تنظر إلى حيث أمها وأخيها، كلاهما ساكن، صامت، بلا حراك. تطاردها الهواجس بأنهما فارقا الحياة، يعتصرها الألم فتبكى وتئن وترتجف خوفاً وبرداً ووجعاً، تتساءل عن سر صمت الهاتف المحمول بين يديها وعن سبب انقطاع الاتصال بينها وبين أبيها. إنها البطارية قد نفدت كما تنفد منها الحياة أيضاً. يقسو عليها الألم ويشتد شعورها بالظمأ الذى زاد منه ملء حلقها بالتراب، تسمع صوت هرولة أقدام فوق رماد قبرها، صوت صيحات رجال وصرخات نساء يكبرون: (الله أكبر. لا إله إلا الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله). لا تعرف ماذا

يقصدون، تبتعد الأصوات عنها مرة أخرى فيتسلل اليأس معاوداً مكانه في قلبها وما عليها إلا الصبر والانتظار. يظهر شعاع نور ثم يغيب، لا تستطيع أن تفرق ما إذا كان صادراً من نور الصباح أم من إضاءة مصباح. الوقت يمر ولا تعلم كم مضى منه، تتضاءل فرصتها فى النجاة، يتلاشى الأمل فى قلبها كلما اشتد عليها العطش والوجع ورعشة الجسد المحموم النازف تحت الرماد، تتحول أفكارها إلى مجرد خيالات وأشباح تظهر لها فى الظلام. تقسو عليها رائحة الرماد، رائحة الموت المنبعث من الجثث التى خلف الجدار المجاور لها، والتى من المؤكد أن منها جثتى أمها وشقيقها الرضيع.

تتسرب أنفاسها مع خفقات القلب الضعيفة المتباطئة. يتوه إحساسها بين الحقيقة والخيال، وتأتيها صور مشوشة لأناس يرفعون الركام من فوقها. تتناثر الأتربة فوق وجهها وجسدها أكثر كلما حاولوا رفع تلك الأنقاض عنها، يخفق الجسد، تبطئ نبضات القلب مع أول لمسة يد حقيقية تمتد إليها لتنتشلها من بين الأنقاض والرماد، تتلاحق الصور المشوشة أمامها، تشم بعض الهواء النافذ من فوق القبر الذى صنع لها ولأسرتها، وبصعوبة شديدة يستطيع الأهالي إخراجها، يصرخون ويكبرون: (الله أكبر. لا إله إلا الله. لا حول ولا قوة إلا بالله).

قالوها، لكنها لما رأت نور الشمس ماتت.

رحلت أحلام فى زمن أصبح فيه الموت مجانياً ومستباحاً، نعيش تفاصيله لحظة بلحظة على الفضائيات، ونتابع بأنظارنا خروج الروح

من الجسد فى استباحة لحرمة الموت وقدسيته. ماتت أحلام فى زمن أصبح فيه الموت قدراً ومصيراً محتوماً على كل الفقراء.

كان الأهالى يبحثون عن بطانية يخفون بها وجه أحلام الملطخ بالدماء، ويغطون بها جثة أحلام المبتورة القدم، ويسترون بها جسد أحلام الذى لم يستره الوطن. بطانية ذكرتنى ببطانيات حرب لبنان .. وبطانيات عبارة السلام ٩٨، وها هو عنوان جديد لمهمة إضافية للبطانيات اسمه بطانية لستر أجساد ضحايا صخرة المقطم والدويقة. رحلت أحلام. فبأى ذنب قُتِلَتْ!

نشرت قصة أحلام فى الجريدة، ونشر تحتها تقرير صحفى آخر بعنوان: (شقق سوزان مبارك ذهبت لأقارب المسؤولين).

هذه هى شقق الوطن التى كانت إحداها حقًّا لأسرة أحلام ضنَّ عليها وبها الوطن. فبأى ذنب قُتِلَتْ!

نفدت زجاجة عطرك القديم وجاءنى صوتك عبر الهاتف وأنت تهرول فى كل ما تفعل استعداداً للقاء جديد. تغسل أسنانك وترتدى ملابسك وتمشط شعرك على عجل، وتحدثنى على عجل. تحكم رابطة عنقك ورباط حذائك وتفتح زجاجة عطر جديد أشتم رائحته من هنا. من مكانى. من خلف خيال خصب يرسم تفاصيل لقائكما معًا، ويحكى لقلبى عما لا تراه عينى وما لا تسمعه أذناى. كانت أنفاسك المتلاحقة وأنت تفعل كل شىء فى عجالة تلاحقها نبضات قلبى التائه الذى يلهث وراءك. كان كل شهيق وزفير فى أنفاسك يحرق ويدمر فى صدرى. كنت تستعد للقاء جديد وأنا أستعد للمزيد من الهجر والمرارة والغربة والفراق. أتحمل نزواتك باسم الحب المقترن

بالصداقة. كنت تحلم بوجه امرأة يأتيك من سفر لمئات وربما لآلاف الأميال، وأنا هنا تبعدنى عنك بضعة أمتار، بضع خطوات يصعب عليك أن تخطوها لى، من أجلى، من أجل صبرى وانتظارى ولهفتى وشوقى إليك.

ها هى قد نفدت زجاجة عطرك القديم دون أن تدرى وأنت تفتح عطراً جديداً أن الزجاجة القديمة التى ألقيت بها فى سلة المهملات حملت لك -قبل الآن- الكثير من الذكريات الحلوة. الكثير من الأحداث والأحلام والأمنيات. هل تصدق أننى حلمت أمس بلقاء غرامك هذا؟ لقد كنت أدرك أن هناك امرأة أخرى تهيئ نفسها للقائك غداً. كنت أشعر بحالها، بسعادتها، بتوترها وارتباكها وجنونها وشوقها، وعندما استيقظت من نومى رأيت بحاستى السادسة شتى ترتيباتها للقائك، تفاصيلها الصغيرة المعدة لأجلك أنت، حقيبة ملابسها التى سترتديها لك، ملابس للسهرة، ملابس للبلاج، وملابس للنوم، وأخرى حين تنتابكما نوبات جنون فتهرولان على الأرصفة تحت قرص الشمس تغتالان أمانىَّ معك وفرحتى بك. تعربدان فى شراييني وأوردتى وتشعلان النار فى غيرتى وروحى. وآناء الليل تستبيحان أنوثتى وترتكبان بحقى جرائم حب. إنها لحظات جنونكما التى لا تدركان أنها يُجَنُّ لها آخر غيركما.

كنت أشعر بامرأتك وهى تختار مساحيق تجميلها بعناية لتتزين لك. أقلام أحمر الشفاه تختار أبهى ألوانها وأفضل أنواعها حتى لا يعترض ملمسها شفتيك وهى تحصل على قبلاتها منك. تُرى ما هو اللون المفضل لديك؟ الأحمر الوردى أم القرمزى الداكن؟ وأى الأنواع تحب؟

طلاء أظافر يضيء أصابع اليد، كريم مرطب للوجه، ماسكارا، آى لاينر يعطى لعينيها بعضًا من السحر حين تنظر إليك. وبعناية فائقة وحيرة شديدة تحاول اختيار رائحة العطر. فأى أنواع العطور تحب؟ الباريسية الساحرة أم الشرقية الطاغية المبهرة؟

كنت أرى امرأتك بحدسى الأنثوى وحاستى السادسة. أراها تعيد صياغة شعرها وملامحها وتقاطيع وجهها، تدقق النظر فى تفاصيل جسدها وتؤهل صوتها، وعندما تنتهى من ترتيباتها ومن الاستعداد للقائك، تخبرك بنبرة نسائية دافئة لتزيد من شوقك وفضولك: (هأنا قد هئت لك).

بنبرة فخر كنت تحدثنى عنهن. إحداهن تجيد الإنجليزية، وأخرى الألمانية، وثالثة الفرنسية. كلهن مصريات، ولكن بسلوكيات غربية، وبحرية غربية، وجرأة غربية، فأى منهن ستلقاها غدًا؟ وأى أنواع النساء تحب؟

الإنجليزية التى تجيدها أنت أيضًا؟ أم الألمانية التى تدهشك؟ أم الفرنسية التى تهواها؟ فى كل الأحوال هناك شىء واحد مؤكد، هو أنك تتجاهل قواعد وأصول اللغة العربية والمرأة العربية التى عشقتك، لكنها خافت الاقتراب منك، خافت من أن تكون شيئًا فى الزحام. فماذا ستفعل عربية شرقية مثلى ضلت نضارتها وتاهت عن حضارتها وتاريخها وهويتها وسط صراعات كيانات عظمى فى زمن الانفتاح والعولمة؟ امرأة تبدو مثل عالم ثالث متخلف أضحت صفته اليوم «الجهل». عالم لم يعد يعرف شيئًا عن المدنية أو التكنولوجيا، وهى لغة العصر. امرأة هى هذا العالم الثالث الذى ما زال يحبو إليك!

شيء وحيد مشترك بيني وبين نسائك يا رجل الأحلام الضائعة والأمنيات المبتورة. هي أن جميعنا ضحاياك أنت، فهن أيضًا مثلي، ولكن الفرق بيني وبينهن أن كلاً منهن تستمتع بك وأنا الضحية الوحيدة التي تتعذب بك.

وجاء موعد لقائها بك.

جاء الغد ليسقط كل حصون قلعتي. أشرق نهاري بدونك، لكن نهار امرأة أخرى أشرق وهي بين يديك. تُرى كيف قضت ليلتها قبل أن تلقاك منذ أن استعدت لك؟ هل استطاعت أن تحصل على قسط من النوم أم أن الشوق أضناها مثلما فعل بي؟

الفرق بين سهري وسهرها هو أنني احترقت بنيران قسوتك وهجرك وغدرك بينما احترقت هي بنيران اقترابها منك. يا سيدي أنا امرأة أتعسها الحب وأحرقها الغدر. يا سيد قلبي. يا أوحد. لِمَ كل هذا الخوف الذي زرعته في أرضي؟ لماذا تبدد مساحات صبري وتجرف في أحشائي وتنتزع من روحي جنينها إليك؟ لِمَ تزرعني بالأسى وترويني بالمرارة وتحصدني بالجرح؟ ومن أين لك بكل هذه القسوة والجبروت؟ فهل لبشر آخرين غيرك مثل هذه القوة في الظلم؟ أم أنك متفرد بها وحدك؟ (لِمَ كل هذا الخوف الذي زرعته في أرضي؟ ولماذا تبدد مساحات صبري، وتجرِّف في أحشائي، وتنتزع...؟ لِمَ تزرعني بالأسى وتحصدني بـ.. وترويني بـ..؟).

مثلك أنت. مثل الوطن الذي بخل علينا بقطعة فضاء فوق أرضه رغم امتلاكه لمئات الآلاف من الأفدنة الخصبة. فلم نسكن، ولم نزرع، ولم نرو، ولم نأكل قمحًا من أرضنا؛ صرنا نتسوله من الغرب،

ونموت شهداء على عتبات أفران خبزه، أو مرضًا من سرطان قمحه المستورد المعبأ بالقذارة والإشعاعات والحشرات والموت. وطنٌ غرر بنا بأغنياته الوطنية التى لم تعد تذاع اليوم إلا وقت مباريات الكرة، وببطولات حربه، بينما لم يتذكر هو نفسه من صنعوا تلك البطولات. وطنٌ نسينا عندما وزع غنائم انتصاراته من دمنا ولحمنا وكرامتنا على سارقيه وأثرياء حربه بينما نسى رجاله الحقيقيين وأبطاله الحقيقيين. فلطالما جاءتنى استغاثات من أبطال نسيهم الوطن. قال لى أحدهم يومًا: (أنا صاحب نوط الشجاعة من الدرجة الأولى. أنا بطل من أبطال أكتوبر الذين تركت الحرب بصماتها على أجسادهم وفى قلوبهم وداخل ذاكرتهم. أنا صاحب نوط الشجاعة معنديش معاش. عندى عيال اتخرجوا من الجامعة ومش لاقيين شغل ومضطر أصرف عليهم، أسيبهم يسرقوا ولا يشحتوا؟ عندى عيال، وعندى أمراض، وعندى ضمير وتاريخ مشرف، لكن معنديش دخل أعيش منه. كانوا زمان بيصرفوا هدوم على بطاقة التموين. آى والله. كانوا بيدونا كستور ودمور. دلوقتى تعالى شوفى رز وسكر وشاى وزيت التموين عاملين إزاى! مليانين قرف، وطعمهم زفت. أستغفر الله العظيم! لكن زى ما يكونوا عاوزين الناس تقول لهم يلغوا الدعم أحسن. طيب ما هو اللى بيحصل ده تكريس للرأسمالية؛ يعنى حاجة الغلابة اللى بتدعمها الحكومة تبقى مالهاش لازمة وتترمى فى الزبالة والسلع الخاصة تبقى زى الفل. لكن الناس ها تعمل إيه؟ مش لاقيين ياكلوا. أَهُمْ بياخدوا التموين وياكلوه وخلاص أحسن ما يموتوا من الجوع، وبعد كل وجبة رز مليانة سوس وطوب وزلط وإزاز، وعليهم

شوية زيت مسرطن، يحلُّو بكوباية شاى مجنزرة طعمها يقرف وريحتها نيلة وسكرها عامل زى ريم المجارى على وش الكوبَّاية. وبالهنا!).

وطنٌ تبرأ منا، ولم يخش يومًا أننا قد نفكر فى التبرؤ منه.

علاقةٌ مريضة ومشوهة صارت بينى وبينك. بينى وبين الوطن.

(٢٠ ألف حالة اغتصاب سنويًا فى مصر!).

يا نهار إسود! قلتها ولم ألتفت لزملائى الذين يجلسون على مكاتبهم إلى جانب مكتبى. ولم أنتبه لنظرة الدهشة التى ملأتهم لارتفاع صوتى وأنا أقرأ هذا الخبر فى إحدى المجلات النسائية التى نشرت إحصائية عن جرائم الاغتصاب التى تحدث سنويًا فى مصر.

٢٠ ألف حالة اغتصاب تم تسجيلها من محاضر أقسام الشرطة! ٢٠ ألفًا فى مجتمع يقال عنه إنه مجتمع محافظ، ولأنه محافظ فإن العشرين ألفًا هذا رقم لا يقارن بالرقم الحقيقى الذى تخجل الضحية فيه من اللجوء للشرطة حتى لا يفضح أمرها وسط الناس وبين أهلها وجيرانها، فنظرة المجتمع للمُغتَصَبَة تدينها دائمًا وأبدًا. ٢٠ ألف حالة ليس فيها من يخشى اللجوء للمحاكم حتى لا تكون فضيحة "على الفاضى"، فثغرات القانون ودهاليز التلاعب بألفاظه كثيرة؛ ربما يخرج الجانى مثل الشعرة من العجين، بينما تظل الضحية داخل قفص الاتهام محكومًا عليها بالخزى والعار هى وأهلها حتى انتهاء سلالتها.

عشرون ألف جريمة اغتصاب لم يسجل فيها من يقومون بالأخذ بالثأر، لأنهم لا يعترفون بقضايا الشرف التى يتم تداولها فى المحاكم

لسنوات، و(يا عالم ها يحصل فيها إيه وها ترسى على إيه!).

عشرون ألف جريمة اغتصاب لم تسجل فيها حالات الاغتصاب التى يتكتم عليها الأهل ويحاولون إنهاء الأمر وديًّا، إما بالسعى لتزويج الفتاة من الفاعل، وإما رتق بكارتها فى صمت وقهر وكمد لسترها ولستر سمعتهم.

عشرون ألف جريمة اغتصاب لجأ أصحابها للشرطة، بينما هناك آلاف أخرى تبتلع فيها الفتاة فضيحتها وغصتها فى حلقها ولا تخبر بها أحداً من أهلها، ولم تسجل قضيتها فى دفاتر الشرطة ولا سجلات المحاكم.

عشرون ألفًا سببها البطالة والخصخصة وانعدام فرص الحياة والإحباطات المتتالية التى يعيشها أبناء الوطن. سببها إهمال الوطن مما سبب عدم الانتماء له ولا لأهله ولا لشرفه.

سببها علاقة مريضة ومشوهة بينهم وبين الوطن الذى استباح كرامتهم فلم يترددوا فى أن يستبيحوا شرفه.

عشرون ألف جريمة اغتصاب لفتاة لم تسجل فيها حالات اغتصاب الأطفال والشذوذ الجنسى الذى أصبح طاعونًا يستشرى فى جسد المجتمع.

عشرون ألفًا لم تسجل فيها حالات الاغتصاب التى تتم بين أطفال الشوارع تحت الكبارى، وخلف أسوار أماكن العبادة، وفى الحمامات العامة، وداخل فصول مدارس الحكومة المظلمة بعد إغلاق بواباتها، وفى شوارع أُحرقت أعمدة إنارتها، وتحت ستار الليل يُهتك ستر الحياة. حتى أطفال الشوارع، تلك القنبلة التى حذر كثيرون من

انفجارها فى وجه المجتمع، ولدت وتربت وعاشت وانفجرت دون أن يدرى أحد أن هناك ثلاثة ملايين لقيط مجهولى النسب يعيشون فى شوارع مصر وفى طرقاتها وحواريها. رقم لم ينضم إليه عدد اللقطاء ومجهولى النسب فى دور الأيتام ودور الإيواء ومصلحة الأحداث. أطفال الشوارع الذين أصبحت لهم عصابات ابتداء من عمر السادسة. ولدوا فوق الأسفلت بين ذرات التراب، وعاشوا فى أحضان الأرصفة الجامدة القاسية. عانوا مرارة القهر والجوع والظلم، وباتوا وجرحوا فوق أسفلت الطرقات الذى لا تجف فوقه الدماء التى تسيل وتنزف بلا ثمن. كبروا فى قلب شوارع لا تعرف الرحمة، وأمام عيون لم تمنحهم يومًا نظرة شفقة أو يدًا تمنحهم لمسة حنان. كبروا ولم يعلمهم أحد أن هذا عيب وهذا حرام، ولم يذكر أمامهم يومًا أحد كلمةً عن قيمة الدين أو معنى الضمير.

كبروا ولم يعرفوا يومًا لهم أبًا أو أمًّا أو بلدًا أو دينًا. دخلوا الزنازين، واجهوا القضايا الملفقة التى لم يكن لها فاعل، فأصبحوا – دون أن يفهموا– هم الفاعلين. عانوا الافتراء والصفع على الوجه والضرب على القفا دون أن يخبرهم أحد شيئًا عن الحياة الكريمة، ولم يفتح لهم أحد بابًا أمامهم. فلم يفهموا كيف يأمن الناس منهم، لأنهم أنفسهم لم يشعروا يومًا بالأمان بين الناس. ولم يفهموا كيف يصونون عرض وشرف الوطن لأن الوطن نفسه لم يصن يومًا عرضهم ولا شرفهم، ولم يعترف بوجودهم ولا بآدميتهم.

عالمٌ آخر، وبشرٌ آخرون ولدوا فى الظلام وعاشوا فى الجحور بلا أمل. بلا ومضة نور، أو لحظة رعاية، أو لمسة حب من الآخرين. ناموا

يحملون فى بطونهم قرصة جوع، وفى صدورهم مشاعر خوف، وفى أحشائهم مرارة ذل، وفى عيونهم نظرة انكسار، وفى أجسادهم رعشة برد. ناموا وأصبحوا يحملون قلوبًا لا تعرف كيف تخاف الآن ولا ممن تخاف؟

صاروا جيلاً بلا أب أو أم أو هوية، بلا بطاقة شخصية ولا جواز سفر يمكنهم من المرور عبر بوابات البشر والوطن. هؤلاء هم الحاكم القادم لمصر.

هؤلاء الذين أصبحوا لا يعرفون الخوف هم من سيحكموننا، وهم من سيفرضون قوانينهم التى علمها لهم الشارع وفرضناها نحن عليهم. هؤلاء هم "التوربينى" الذى كان يغتصب الأطفال ذكورًا وإناثًا ثم يلقى بهم مستمتعًا من فوق سطح القطار فتغريه أنّات الموت فيسعى للمزيد. هؤلاء هم "بلية" الذى شوه جسده صاحب ورشة لم يرحم ضعفه ويتمه. و"تونة" الذى لا يمضى يوم إلا وتطارده الشرطة لتلقى به فى زنزانة قاسية لا تحترم آدميته ليصفعه مخبر بالقفا، أو يلطشه مسجل خطر بالكفٍّ على وجهه لتحوّل عينه ويتوه وعيه وتهدر كرامته. هؤلاء هم بانجو وكُلّه وأفيونه. مسميات أُطلقت عليهم بنوع المخدرات التى يتعاطاها كل منهم. مسميات ألحقت بهم بعدما غابت أسماؤهم الحقيقية. هؤلاء هم مستقبل الوطن الجديد.

عشرون ألف جريمة اغتصاب تحدث سنويًا فى مصر، وجريمة فساد كل سبع دقائق يتم رصدها وتسجيلها يوميًا فى أوراق رسمية، بينما لم تسجل دفاترنا اليومية الرسمية قضايا الغش فى الأطعمة وفى ألبان الصغار وأدوية المرضى والبنج الفاسد الذى يعطى لهم

أثناء الجراحات. ورشاوى الأدراج المفتوحة بدءًا من السعاة والفراشين ومرورًا بالمديرين ووكلاء الوزارة، وليس انتهاء بالوزراء والمحافظين وكبار المسؤولين بالدولة.

جريمة فساد كل سبع دقائق فى مصر. قالها وزير ما زال فى منصبه. لم يستقل ولم يعلن أى مسؤول فى حكومتنا الرشيدة التى تختبئ من شعبها داخل قريتها الذكية المحصنة عن اعتراضه أو استقالته. قالها وزير دون أن يثور شعبه ولا مرؤوسوه.

جريمة فساد كل سبع دقائق فى مصر، بينما فى الإمارات حجم الجريمة: صفر.

يا بوى!

إحنا فين؟ ومصر فين؟ ورايحين على فين!

عارف! كان نفسى أشوفك دلوقتى. أكلمك. أفضفض معاك. أبكى بين إيديك. أزعق. أعيط. أصرخ.

أقول بعلو صوتى: زهقت. زهقت من اللى بيحصل فى مصر. زهقت من هموم المصريين ومشاكلهم وشكاواهم، من أحلامهم المدفونة تحت صخر الدويقة وجبل المقطم، وعيشتهم وسط الأموات فى تُرَب الغفير. زهقت من آمنياتهم الغرقانة فى بطن البحر، واللى بيتعشى بيها سمك القرش. زهقت من ريحة لحمهم المحروق فى قطْر الصعيد ولّا فى قصر ثقافة ولّا بأنبوبة غاز فاسدة تنفجر كل شوية فى وش عيلة كاملة، ولّا تسرب غاز يقتل عريس وعروسه فى ليلة زفافهم. زهقت من العيال اللى نايمة فى حضن مقالب الزبالة، واللى بيموتوا تحت عجل التريللات مع كل طلعة صبح. التريللات اللى

بيحتموا فيها من خوفهم ويدفّوا فيها من البرد ومن عضة الكلاب السعرانة والحيوانات الضالة ومن ولاد الليل.

زهقت من تفاصيلهم المجروحة وعيونهم المدبوحة ونظرة الخوف اللى بتطل من وشوشهم مع كل رحلة شمس ومع كل طلة فجر.

زهقت من الرعب اللى بيتربى فيهم وفى قلوبهم جيل بعد جيل، وكرباج ورا كرباج، وصفعة فوق التانية على الوش تدب، وجمر الكف اللى بينزل على القفا وينصب.

زهقت من الخرس بفعل الخوف تحت قمع الأمن وبيادة العسكر ونبابيت المخبرين.

زهقت من القضايا اللى بتتلفق جاهزة وبتطلع مطبوخة من قلب درج المكتب مع حتة حشيش وباكتة بانجو وسلاح أبيض مطوة ولا سكين.

زهقت من اللى بيبيعوا عيالهم وعرضهم على الرصيف فى وسط البلد أو فى شارع جامعة الدول العربية.

زهقت من قضايا سرقة أعضاء البشر وأكل لحم البشر وشفط دم البشر، وكله بقى بالفلوس على عينك يا تاجر. مصر للبيع يا ولاد. الوطن للبيع يا ولاد. ذهبك يا مصر. أموال بنوكك يا مصر. مصانعك يا مصر. حديدك يا مصر. لحمك يا مصر. ولادك يا مصر. مصر للبيع يا ولاد. مين يشترى ترابك يا مصر مين يشترى! أمنك يا مصر مين يشترى! عمرك، تاريخك، حضارتك، عظمتك، سلامتك، كرامتك، وحضنك ونيلك وأرضك وزرعك ودمك واسمك!

آلا أونا. آلا دو. آلا ترى!

مصر أهي شروة في بالة الزمن يا ولاد. مين يشتري؟

كان نفسي أقول لك تعالى ندوّر على سكة فيها نور نمشيها سوا. ناخد حبايبنا وأصحابنا وأهلنا والناس اللي مننا، ونروح ندوَّر على وطن. على بلد. على مصر. لقيت إن الفهلوة هي لغة العصر، و«مشّي حالك» نظرية، وتوجه، ووجهة نظر صارت جديرة بالتفكير والاحترام. يا ترى إيه أخبارك إنت كمان وحاسس بإيه وإنت عايش على أرض مصر؟ يا ترى حواليك صُحبة وناس وأهل ودفا؟ ولا زيِّي؛ حاسس إنك عريان وسط أهلك، وغريب وإنت في بلدك؟ يا ترى عامل إيه دلوقت؟

كم أنا بحاجة إلى رقوة من جدتي الآن، ونفحة من بركتها. جدتي التي رحلت ولم تمنح الوطن رقوتها وبركتها فتركت جسده معتلاً يعاني المرض وكثرة المصائب وقسوة العلل. (١٤٠ سورة على جتتك منشورة. يكفيك شر الحسد والنفس والعين والضرر. والعين عنك يا وطن تفترق.. كما افترق الندى عن الورق. والعين عنك يا وطن تفترق.. كما افترق الندى عن الورق. إطفِّي يا عين.. إطفِّي يا عين).

أين إبرة جدتي لتثقب بها عين الحسد التي أصابت جسد الوطن؟ أين بَرَكةُ جدتي لترتق بها جسد الوطن الذي امتلأ بالثقوب والنتوء والعلل؟

النيل هادئ كعادته. لا يثور ولا يتغير بمرور الزمن. ما يتغير هو إحساسنا به، فلو نظرنا إليه ونحن سعداء نشعر بوجهه سعيداً يطل علينا من أمواجه الهادئة، ولو نظرنا إليه ونحن تعساء لرأينا وجهه حزينًا. إنه يسعد لسعادتنا ويحزن لحزننا. إن تفاصيل ملامحنا تُرسَم فوق مياهه. أظن أن هذا هو السر فى ارتباط المصريين بالنيل. السر الذى لا يعرف سببه، فالنيل ينقل ما بداخلنا ويتلون به. أما اليوم فالنيل حزين. حزين مثلى. حزين لى. منذ زمن كنا هنا، وكان وجه النيل فرحاً كمن يحيا ليلة عرس. كانت أمواجه تتراقص وكأنها تسمع طربًا أصيلاً. منذ زمن كنا هنا، وكان وجه النيل سعيداً. قلت لك:

– شايف العصفورة اللى واقفة دى؟ بتتحرك وكأنها بترقص. كان نفسى أكون حرة زى العصفورة دى: أطير ويكون لى جناحين أطير بيهم فى السما. أنا سعيدة قوى، حاسة إن نفسى أطير معاك.

نفسى أجرى، أضحك بصوت عال، وأصرخ بصوت عالى، أنادى عليك وأهتف باسمك، أقول بحبك. نفسى الدنيا كلها تسمعنى. نفسى أطير زى العصفورة دى. يا سلام لو كان لى جناحين!

– مش لازم يكون لك جناحين عشان تقدرى تطيرى؛ ممكن تحسى إنك طايرة لو روحك فرحانة ونفسك راضية ومبسوطة. لو سعيدة ها تحسى إنك طايرة. مش لازم نطير بأجسامنا، لكن ممكن نطير بأرواحنا.

ظللت أتابع بعينى حركة العصفورة ترقص بحرية وسعادة فوق الرصيف المطل على النيل مزهوة بجناحيها وحريتها، وربما بقصة عشق لا يعرف أحد عنها شيئًا، قلت لك:

– عارف نفسى فى إيه؟

– إيه؟

– نفسى أجرى آنا وإنت بطول الرصيف ده لحد ما نلاقى آخره.

– بس ده آخره بعيد قوى.

– طيب وإيه يعنى! ها تتعب من الجرى؟

– لأ طبعًا. ياللا بينا.

جذبتنى من يدى وجريت بى وأنا أطلق ضحكاتى الحرة بلا قيود وأردد: إنت مجنون.. والله إنت مجنون.

حتى فى أقصى حالات سعادتى وذروة شعورى بأنى حرة وأنا أحلِّق معك بين السماء والأرض كنت أخاف من نظرة الناس حولى. كنت أخاف من نهاية تلك اللحظة. كنت آخاف مثلى مثل كل المصريين عندما يكونون فى آكثر حالات سعادتهم ومرحهم وضحكهم يقولون:

«اللهم اجعله خير».. «اللهم اجعله خير». لأننا شعب اعتاد ألا تدوم لحظات سعادته وأوقات فرحة قليلة، اعتاد أن يعقبها دومًا حزن. ولا أدرى كيف وممن ورثنا هذا الإرث؟

سعدت، وجريت، ولعبت، وطرت، وفرحت، وضحكت، ثم قلت: اللهم اجعله خير. ثم ورثت حظى من إرث أجدادى وقسمتى من حزن لا بد من أن يأتى بعد الفرح. كان صوت كاظم الساهر يشدو بأشعار نزار قبانى حولنا مثل تغريدة العصفورة: (مرهقةٌ أنت وخائفة.. وطويلٌ جداً مشوارى.. ثورى بالحب أو انفعلى.. أنا بحر من غير قرارِ).

وددت أن أقول لك: صدق كاظم وصدق نزار، وصدقت أنت عندما قلت لى: (لسة خايفة. مش كدة؟). نعم مرهقة وخائفة، أما "مشوارك" فهو حقًا طويل. طويل جداً يضيف المزيد إلى إرهاقى وخوفى. هل تعلم أنى عشت سنوات طويلة أحلم بك، أحلم بأن أحبك؟ كان احتياجى إليك يزداد وشوقى إليك يستعر كلما مررت بأوقات ضيق وأيام حزن أو غضب، وكلما وددت أن أثور لأمر أو أغضب لآخر فأكتم غضبتى وثورتى فى صدرى، وألوذ بصمتى ورغبتى فى أن ألقاك وأن أحبك.

كنت كلما ضاق بى العالم، وفاض بى الشوق إليك، وكلما اشتدت حيرتى وغضبى، أنزوى فى غرفتى. هنا. فوق هذه الأريكة التى أجلس عليها وحيدة اليوم أقرأ ديوان شعر من دواوين فاروق جويدة. أطوى الصفحة تلو الأخرى وأقرأ قصيدة بعد الأخرى وأنا أبكى. أبكى بحرقة الكلمات التى أقرأ، والمشاعر التى أحس. لم تكن قصائد فاروق إلا إلهامًا جديداً للتعريف بالمشاعر الصادقة وبمعنى الحب، وكلما قرأت أكثر بكيت أكثر واشتقتك أكثر وأحببتك أكثر.

«وحين افترقنا
تمنيت سوقًا يبيع السنين..
يعيد القلوب ويحيى الحنين
تمرد قلبى وقال: انتهينا..
ودعنا من العشق والعاشقين..
تمنيت سوقًا يبيع السنين..
أبدل قلبى وعمرى لديه..
وألقاك يومًا بقلب جديد..
تمنيت لو عاد نهر الحياة..
يكسر فينا تلال الجليد..
ولكن قلبى.. ما عاد قلبى..
وما عاد يعرف ماذا يريد..
وحين افترقنا
تذكرت عينيك يوم التقينا..
وساءلت عطرك كيف انتهينا؟
تشردت فى الأرض بين الليالى..
فأصبحت أحمل كل الصفات
شباب وحزن.. رماد ونار..
وطير يغنى بلا أغنيات
أداوى الجروح بقلب جريح..
أمنِّى القلوب بلا أمنيات..»
أبيات شعر مزقتها الذاكرة ثم أعادتها كلمات مبتورة

مرت ملامحها على وجهى ووشمت حروفها على قلبى. تذكرتها ثم بكيت، شعرت بحنين جارف للقائك. شعرت بقسوة حبى فى قلبى. شعرت بلهفة شوقى إليك.

ساقتنى أقدامى إلى الشوارع المطلة على النيل بمنطقة جاردن سيتى. وأمام السفارة الأمريكية بالمنطقة المحاصرة هناك وجدت عدداً من المواطنين يجلسون فى نهر الشارع وفوق الرصيف. مشهد لطالما رأيته دون أن أسأل. اليوم قررت أن أعرف، فاتجهت ناحية سيدة تجلس فوق الرصيف المقابل للسفارة وقلت:

- أنا كل ما اعدّى من هنا ألاقى ناس كتير قاعدة. هو انتو مستنيين إيه؟

- مستنين دورنا.

- دوركم فى إيه؟

- مقدمين أوراقنا فى السفارة الأمريكية. فينا اللى طالب الحصول على فيزا، وفينا اللى عاوز يجدد إقامته، واللى بيدوّر على شغل، واللى عاوز يخلص إجراءات السفر.

- طيب مش قاعدين جوا السفارة ليه؟ مش المفروض يكون فيه استراحة جوا للناس اللى ليها مصالح بدل قعدة الشارع؟

- محدش يقدر يدخل إلا اللى عليه الدور لما ينادوا على اسمه. كل أربع أو خمس ساعات موظف يطلع ينادى على واحد من اللى قاعدين دول رغم انهم هما اللى ادونا الميعاد النهاردة، لكن ها نعمل إيه؟ مضطرين نستنى لما ييجى علينا الدور.

هززت رأسي وانصرفت في أسى وسألت نفسي: لماذا لا يغضب المصريون من هذه المعاملة؟ وهل يقبل أي أمريكي أن نعامله بالمثل؟ لماذا لا تحتج وزارة الخارجية المصرية على هذه الإهانة التي يعيشها المصريون الذين يبدون كمتسولين ينتظرون منحة السفارة لهم بالساعات وهم «مهدودو الحيل» على الرصيف؟ لماذا لا نغضب ولا نحتج ولا نطلب حقنا في احترام آدميتنا؟ وإذا كان هذا هو الحال معنا ونحن على أرض بلدنا وداخل وطننا، فما الذي يحدث لنا بالخارج؟ بالطبع من يهن داخل وطنه لن يكرم أو يُصان خارجه. واللي بيتهان في بلده لازم يتهان براها. لماذا تحولنا في وطننا إلى غرباء؟ لماذا تحول الوطن إلى أرض نتحرك عليها ليست لنا؟ ولماذا يسعى هؤلاء المصريون –الراضون بالإهانة– للسفر إلى البلد الذي أهانهم في وطنهم، إلى البلد الذي أهان جنسهم وعرقهم واغتصب حضارتهم وتاريخهم وثرواتهم ومستقبلهم؟ لماذا يرونها دوماً هي أرض الأحلام والآمال حتى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من اضطهاد وعنصرية ضد العرب بالخارج؟ لماذا نكره أمريكا ونهتف ضدها في المظاهرات ومن داخل بيوتنا ومن قلوبنا وحرقتنا ثم «نتلطع» أمام سفارتها بالساعات نحلم بالسفر إليها؟ ربما فضل هؤلاء أن يعيشوا غرباء عن الوطن من أن يعيشوا غرباء فيه. ولكن لماذا الغربة في أمريكا دون غيرها؟

غرباء هم كما هو حالي معك حين فضلت أن أعاني نار غربتي عنك على أن أعيش غريبة معك. على أن أعيش غريبة فيك.

هل يصدق أحد أن ضحايا حوادث الطرق في مصر –خلال

العشرة أعوام الأخيرة- يفوق أضعاف المرات ضحايا الثلاثة حروب التى خاضتها مصر مجتمعة، حرب ٤٨ و٦٧ و٧٣؟ أى وطن يفعل هذا بأبنائه! أى وطن آخر يذبح نفسه من الوريد إلى الوريد! أى وطن آخر يقتل أبناءه فى السلم وليس فى ساحة حرب! أى وطن يغتالهم بأبشع أنواع القتل. إما غرقًا فى المحيط أو البحر، وإما حرقًا فى قطار فى ليلة عيد أو داخل مسرح حكومى فى ساعة عرض ترفيهى، وإما صرعًا تحت الصخر وتحت الردم، وإما صدمًا فوق الأسفلت على الطرقات، وإما انتحارًا بسبب ضغوط الحياة أو العنصرية والقهر! أى وطن آخر يذبح نفسه من الوريد إلى الوريد؟

الغربة. عندما ماتت ابنة عمتى قالت أمها وهى تبكيها بحرقة ولوعة: (يا عينى عليكى يا بنتى! مُتِّى لوحدك بعيد عن حضن أمك. مُتِّى فى غربة!).

غربة! لم تكن رقية -ابنة عمتى- سافرت خارج مصر، ولم تخط يومًا خارج حدودها. لكنها عاشت فى غربة، وماتت فى غربة، كما قالت وكما رأت عمتى.

عاشت رقية حياة مثل بقية بنات عائلتى. عارها وذنبها أنها "بنت"؛ كل ما تفعله عيب. كل ما تقوله عيب. أحلامها عيب. رأيها عيب. صوتها عيب. ضحكتها عيب. بكاؤها عيب. شكلها. جسدها. أصحابها. كله عيب.

كانت ابنة وحيدة بين ثلاثة أبناء ذكور، وأب يميل -بطبيعة حال وتقاليد وجينات الذكورة فى عائلتنا- إلى الأولاد الذكور. فلم تجد رقية رجلاً من بين أربعة رجال عاشت بينهم ووسطهم من يحتوى

أنوثتها وجنسها، فعاشت فى بيت أبيها تعانى مرارة الأحلام المبتورة، وتبحث عن منفذ تتسول منه حريتها وأحلامها. تمنت لو تستطيع أن تغنى، فهى ترى أن صوتها جميل، ولكن صوت المرأة عورة. فإذا كانت المرأة نفسها فى مجتمعنا، وفى بيتنا، هى نفسها عورة؛ كيف لا يكون صوتها كذلك! خرس صوت رقية الذى كانت تمتعنا به خلسة فى جلسات مغلقة خلف باب غرفة مغلقة تضم بعضاً من بنات العائلة.

كنا نغنى ونحن صغار، إلا أن أهلنا خافوا فمنعونا من الغناء. خافوا من أن يكبر الحلم فى صوت رقية وفى قلبها. ونحن أيضاً خفنا أن يسمعوا صوتنا. و(الخائفون لا يصنعون الحرية، والمترددون لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء). قالها الخالد عبد الناصر، وعشناها نحن المترددات الخائفات من بنات العائلة. خفنا وترددنا، فلم نبن حلماً، ولم نصنع أملاً، ولم نحقق أمنيةً باتت محمومة فينا.

كانت عمتى وابنتها رقية هما طرف الحبل السُّرى الموصول بأهلنا من عائلة أبى، وكلمة السر للم شمل تلك العائلة التى كبرت وكبرت فتناثر أفرادها وما عاد أحد منهم يعرف أحداً إلا القليلين فقط، بينما كانت رقية وأمها حريصتين على صلة الرحم بالجميع.

فى أى مناسبة تتحمل رقية وأمها تفاصيل الإعداد لها، فتأتيان للمبيت قبلها بأيام، وتخدمان عن رضا وعن ود وعن حب. تقومان بجميع التفاصيل بداية من إعداد المكان ومروراً بالطهو وتزيين العروسة فى ليلة الخطوبة أو الزفاف. لم تكن تخلو مناسبة إلا ووجدت فيها رقية وأمها يمارسان صلة الرحم بكل حب. لا سيما

رقية. كم من ليلة فرح أعدت لها! كم من يوم ميلاد لحفيد وُجدت فيه ودقت "إيد الهون" إلى جوار أذن المولود وهي تضحك وتغني وتقول: (اسمع كلام أمك وما تسمعش كلام أبوك. اسمع كلام ستك أم أمك وما تسمعش كلام ستك أم أبوك. يا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدِّنا. وتبقي واحد مننا. يارب يا ربنا)!

ذات يوم تزوجت رقية. تزوجت في صمت، دون أن تقام لها ليلة عرس. كان هذا هو جزاءها لأنها أصرت ألا تكمل خطوبتها الأولى، وأصرت على إعادة "الشبكة" لعريسها، ورأى أهلها في ذلك عيبًا وقلة أدب، فما دامت وافقت على الخطبة منذ البداية؛ وجب عليها أن تتمها. ولكن رقية لم تشعر برغبة في استمرار خطبتها، وكان لديها الكثير من التحفظات على خطيبها، ودون تحيز كان لديها ألف حق. وعندما تقدم لخطبتها رجل آخر أصر والدها وإخوتها الذكور على تزويجها في صمت كنوع من العقاب لها. ويكفي -كما رأوا- أن الناس حضروا حفل خطوبتها الأولى. ومش كل شوية ها نعمل فرح ونغير عريس. وفي صمت لم يخلُ من عدة زغاريد وعدة أغان مبتورة وبعض دقات جافة فوق الطبول، تزوجت رقية وسافرت مع زوجها إلى الغردقة، حيث كان عمله وسكنها الجديد.

ووقفنا كعادتنا متفرجين. مجرد متفرجين. ولأننا لم نتمكن من تقديم خدمة لعمتي وابنتها اللتين خدمتا كل بنات العائلة في أفراحهن؛ أجَّلنا خدماتنا ليوم يجيء فيه مولود جديد لرقية. ومضت الشهور وحملت رقية، وانتظرنا قدوم مولودها حتى لا نحرم عمتي وابنتها من إحساسهما بقيمة ما كانتا تفعلانه لأجلنا نحن بنات

العائلة جميعًا. تلك الخدمات التى حرمت من أن نردها إليها فى ليلة عرس ابنتها، أول فرحتها.

وكما انتظرنا انتظرت عمتى حفيدها الأول، وبدأت تعد تفاصيل استقباله فى الحياة، تحيك ملابسه بيديها، وتطرز له جواربه وقفازاته الصغيرة، وتشترى حاجاته: بطانية للمولود رغم أنه لن يولد فى فصل الشتاء، وملابس للخروج، وملابس للبيت، طاقية تحميه من نسمة الهواء، أو "كاب" يضعه فوق رأسه لحمايته من شمس الصيف الذى سيولد فيه، أجذية، وببرونة، ومشط وفرشاة شعر، وقصافة أظافر للأطفال، وعباية ترتديها رقية يوم حفل "السبوع". وفجأة.. رحلت رقية.

ماتت وفى أحشائها فرحتها الأولى. الفرحة البكر لعمتى. ماتت وحيدة فوق أحد أسرة المستشفى الذى نقلت إليه فجأة لإصابتها بفيروس بالمخ لم نعلم له سببًا. ماتت غريبة كما قالت عمتى: (مين ضمك فى حضنه يا ضنايا وقت ما جت لك رعشة الموت! مين شالك وإنتى فى غربة! مين سترك ومين غطاكى! مين ضمك فى حضنه يا ضنايا وإنتى فى غربة لما جاكى الموت!).

عاد جثمان رقية إلى القاهرة بعد ساعات من انتظاره، ووسط البكاء والنحيب والأنين كان زفافها وجنينها المختبئ فى أحشائها إلى القبر. وفى الظلام التقت وجوهنا بوجوه كثيرة أخرى لا نعرفها لندرك -فيما بعد- أن هؤلاء هم أبناء الأعمام الذين كبروا ولم نعرف عن بعضنا شيئًا. فقط كلمة السر الوحيدة التى كانت تعرف، والتى حرصت على صلة الرحم، والتى كانت همزة الوصل بين جميع أبناء العائلة فى الحياة وفى الممات، كانت رقية.

تلك التى رحلت ودفنَّاها للتو تحت ستار ليلة ظلماء. وفى العزاء كانت بنات العائلة كثيرات، كثيرات تذهبن وتجئن أمام عينى عمتى الباكيتين الحزينتين، كثيرات بينما رحلت ابنتها الوحيدة التى كانت ترجوها من الحياة، كثيرات هن بنات العائلة، فلماذا يختار الموت وحيدتها وفرحتها الأولى التى لم تفرح بها بعد؟ نظرة عتاب للقدر لم يلفظ بها لسانها، لكننى قرأته فى عينيها. عتاب ما بعده عتاب.

تبادلنا أرقام هواتفنا. نحن الأقارب من الدرجة الأولى. نحن من ارتوت عروقنا وأوردتنا من نفس الدماء بحكم صلة الدم. نحن من تشابهت، بل تطابقت، أسماؤنا. تبادلنا هواتفنا، وبمجرد أن افترقنا نسيناها واكتشفت أننا -كلانا- لم نعتد أن ننطق أسماء بعضنا البعض. لم نعتد أن نقول: ابن عمى. أو ابنة خالى. لم نذكر تلك المصطلحات منذ زمن بعيد. بعيد جداً. لم نعتد أن ندير قرص الهاتف لكى نسأل عن بعضنا البعض، ولم نكن فى يوم من الأيام العِزوة والعيلة والأهل، ولم نفهم يوماً قيمة صلة الدم. فقط شعرنا بمرارتها عندما التقت وجوهنا كأغراب يوم مأتم رقية، ولم نكن نعرف بعضنا البعض لو التقينا فى شارع، ولو رأى أحدنا الآخر دماءه تسيل فى الطريق لانصرفنا فى صمت بعد مصمصة الشفاه. يوم التقينا فى العزاء ملأنا الحماس أن نعاود صلة أرحامنا. أن نتزاور ونتعارف، ولكن وهج هذا الحماس انطفأ بمجرد أن افترقنا ودخلنا مفرمة الحياة وترسانتها. وقلما تذكرنا أننا يوماً التقينا، وقلما تذكرنا ملامح وجوهنا وبكاءنا وحماسنا.

رحلت رقية وجلست فى منزلها يوم مأتمها أسترجع ذكرياتنا معًا. هنا ضحكنا. هنا لعبنا. هنا تخاصمنا، ثم سرعان ما تصالحنا. هنا سهرنا ليلنا. بكينا وحكينا أسرارنا وتفاصيلنا الصغيرة، فلماذا قُدِّرَ علينا الرحيل؟ ولماذا لزام علينا الفراق؟ هنا كبرتُ وكبرت رقية. ومن نفس المكان ودعتها فى حزن وفى صمت وفى أنين.

فهل حان موعد رحيل أبناء جيلى، الجيل الذى يرحل فجأة، ويموت فجأة، ويصاب بفيروسات المخ فجأة! وما كنا من قبل نسمع عن هذا الرحيل المفاجئ لجيل فى مثل أعمارنا. فماذا يخبئ لنا القدر؟

يلح علىَّ السؤال: (الموت شبح ولَّا ملاك!). الموت وحش قاسى لابس اسود فى اسود بنخاف منه لإنه بيسرق أيامنا.وأحلامنا وفرحتنا وأحبابنا، ولَّا ملاك لابس أبيض فى أبيض بييجى لما الدنيا تقسى علينا بمرارتها وتكسرنا بأحزاننا وأمراضنا وأوجاعنا، فييجى ملاك الموت الأبيض يفرَّحنا وياخد أرواحنا وينجينا من الألم.

الموت شبح أسود بيمنحنا العذاب ولَّا ملاك أبيض بيرحمنا من العذاب.

بيتهيألى إنه الاتنين فى بعض؛ مش عارفة إزاى! لكن الموت اللى رحم محمد وأحلام من الفقر والألم والشقا والعذاب هو نفسه اللى سرق من رقية عمرها وشبابها وسرق من عمتى فرحتها وضحكتها ووشم الحزن فى قلب مصر لما ولادها غرقوا فى البحر.

كان يوم زفاف شقيقتى وجاءت عمتى. وبين الزغاريد سالت الدموع. انطلقت الزغرودة الأولى من فم عمتى -أم رقية- التى أرادت أن تجامل كعادتها محاولة طرح الفرحة فى قلوبنا، وكنا قد استحيينا من أن تطلق إحدانا زغرودة فرح، ولم يكن مضى عام على رحيل رقية، فأرادت أم رقية أن تبدأ هى، لكنها زغرودة ممزوجة ببكاء، بحزن وأنين ودموع زغردت وهى تبكى، وبدلاً من أن تطرح زغرودتها الفرحة فينا أحيت بها الوجع وعذاب فراق رقية وفقدها، خاصة فى هذه اللحظة التى اعتدنا عليها أن تكون فيها دائماً بيننا. ترقص وتغنى بصوتها العذب، تضحك وتمرح وتخدم وتعين فى كل أعمال البيت؛ مكانها لم يملأه أحد. ما زال شاغراً. خيالها وطيفها وصوتها يحوم حولنا جميعاً، فهى لم تغب رغم الموت ورغم الفراق.

حين وقعت عينا عمتى على شقيقتى التى ارتدت ثوب الزفاف الأبيض لم تتمالك نفسها من البكاء: احتضنتنى لتخفى وجهها الباكى فى صدرى. أجهشت ببكاء مرير. تذكرت ليلة عرس رقية التى حرمت من أن تعيشها، والزغرودة التى حلمت أن تطلقها فى فرح ابنتها، إلا أن الظروف آنذاك منعتها من أن تخرجها، فماتت مقتولة فى صدرها.

وكأن أم رقية أرادت أن تتحدى حزنها. تتحدى الفراق والرحيل والموت، فنهضت لترقص حتى لا يظن أحد أنها حزينة فى ليلة مثل هذه. رقصت حتى البكاء. رقصت حتى الانهيار والوجع.

لم تكن مطالبة بذلك كله. لم تكن مطالبة لأن تتحدى ألمها لتشتد قسوته عليها فيفتك بها. لم تكن صاحبة القلب الكسير ليلتها سوى أم أعياها الموت بنيرانه وقسوته وشدته. رقصت كما يرقص الطائر الجريح فوق صفيح ملتهب اشتعلت تحته النيران.

وأضرمت فى قلبها النار على أمل الحصول على الرحمة، كما يفعل الهندوس مع جثث موتاهم. تحدت الحزن فقهرها وأبكاها وأعياها وعاد ليقتلها ويغتال روحها من جديد فى يوم زفاف كان كالفرحة المنقوصة دائمًا لنساء العائلة الثكالى دائمًا حتى فى أيام الفرح.

كأنى وضعت داخل ماكينة حديدية حادة التروس تفرى لحمى وتدغدغ عظامى وتسحب الهواء من صدرى. أدخل فى دهاليز طويلة ملتوية. أتهاوى من سرداب إلى سرداب. أتضاءل. أتلاشى حتى أنى لم أعد أشعر بجسدى الذى أصابته "تنميلة" وثقل.

وجوه كثيرة تلتف حولي. وجه أبي الصارم الذي يخفي وراء صرامته حنانًا كثيراً وقلبًا ضعيفًا أخفاهما خلف قسوة الخوف علينا. على بناته وسمعته وشرف تقاليده الموروثة منذ بدء الخليقة رافعًا دومًا شعار (طوبى للخائفين). وجه أمي الباكي التعس الحزين دائمًا والخائف دائمًا من كلام الناس ومن الناس أنفسهم. الخائف دائمًا على مستقبل ست بنات ولدن في زمن ومجتمع وعائلة لا تنصف أبداً أنثى. وجه عمتي التي ارتدت السواد. ووجه رقية. لا أعرف كيف جاءت رقية إلى هنا الآن. ألم تمت من قبل؟

وجوه كثيرة لأهل وجيران، جميعها تحمل ملامح واجمة، بعضها يبكي بحرقة وبعضها لا يبالي. الشيء الوحيد المشترك بينها أنها جميعًا تنظر نحوي متشحة بسواد داكن كثيف. يهمهمون بأصوات لا أسمعها وإشارات لم أعد أفهمها. الوجوه الباكية تستجديني للاستجابة لها وأنا لا رغبة لي. بل لا قدرة لي على الإجابة أو على فعل شيء.

تتناثر حولي صرخات وبكاءات محمومة. يأتيني صوت جدتي من العالم الآخر وهي تردد رقوتها الفطرية البريئة بكلماتها العفوية: (والعين عنك يا ضنايا تفترق.. كما افترق الندى عن الورق). وفجأة ينفضُّ الناس من حولي؛ يخرجون من غرفتي ويوصدون بابها جيداً.

همهمات خفيفة تتسرب من خلف الباب المغلق لا أستطيع تفسيرها، لكن بينها أصوات نحيب وأنين نساء.

لحظات مضت لا أدري كم تعد في عمر الزمان حتى دخلت امرأة غريبة عني إلى حجرتي وأحكمت إغلاق الباب خلفها. ظلت تردد

بعض الكلمات وهى تسكب فوقى دوارق من الماء، وعندما انتهت وضعتنى فى ثوب أبيض كبير غطت به وجهى فلم أعد أرى شيئًا. سترتنى وأحكمت رباطها حول خصرى، ثم نادت بصوت عال فانفتح باب الغرفة ليدخل شخصان آخران سمعت صوتهما وهما واقفان إلى جوارى، ولفظ كبيرهما ببعض التمتمات الغريبة لم أفهم منها سوى لفظ الجلالة (الله)، ثم ألقى الآخر بثوب أبيض آخر كبير لا خيط فيه؛ قذف به إلى آخر الحجرة بينما أمسك طرفه بين يديه بجدية حتى لا ينفلت من بين أصابعه الغليظة، ثم سترنى غطاء أبيض آخر.

صوت التمتمات يلفظنى إلى غمغمة ليست مفهومة. ينتقل وجودى من مكان إلى آخر؛ لا سيطرة لى على حركة جسدى. تتعالى الأصوات حولى وتتزايد كلما هوى الجسد لأسفل.

يتلاشى بعض الضوء الذى كان يتسرب من فوق غطائى الأبيض يؤنس وحدتى، أهوى إلى قبو تشتد ظلمته ويفيض صمته. أعبر ممرات ضيقة أضيق من هذه التروس الحادة بتلك الماكينة الحديدية. ينتهى بى الأمر إلى قرارة هذا القبو. أستكين بلا إرادة منى، بينما لم يعد حولى غير الصمت الذى يسبب لى صفيرًا يكاد يخرق أذنى. لا أشعر بهذا الصداع الذى كان يدق رأسى منذ سنوات طوال. هدوء عميق يطبق على صدرى. لا أشعر بأن هناك زفيرًا أو شهيقًا يخرج أو يدخل فى رئتى. تمتد يد ترفع النقاب الأبيض عن وجهى، وإذا بهما أمامى. لا أستطيع تحديد ملامحهما، لكنهما ينتصبان فى مهابة وجلال!

يرتعد جسدى، وتنتفض أوردتى خوفًا ورهبة. ينطلق صوت الأول. يقطع صفير الصمت ويمزق وحشة الهدوء بصوت حاد ورزين:

– ما اسمك؟

– فأجيب فى نبرة ضعيفة متلعثمة. ليلى. ليلى عابد. عاد يسألنى: وأمك؟

– عايدة عبد الرحيم.

– هل تعلمين أين أنت؟

– لا.

– ما عمرك؟

– أنا فى الثلاثينيات من عمرى.

– ماذا فعلت بهذه السنوات؟

– أحببت الناس. أصبت وأخطأت. ظلمت وظُلمت. تمنيت فتحققت بعض أمنياتى وتاهت أخرى. صليت وأذنبت. تعلمت أشياء وجهلت أكثر. أسأت إلى بعض الناس وأحسنت إلى آخرين. فعلت أشياء كثيرة لا أعرف لماذا فعلتها. غفلت عن أشياء أخرى لا أعلم لماذا أغفلتها. ضحكت حتى سالت دموعى، وبكيت حتى تورمت عيناى. تعلمت أموراً فى السياسة، وأموراً فى الحب، وفى الحياة. لكنى أدركت أنى لا أفقه فيها شيئًا. ولكن أقسم بأنى لم أقصد شراً فى حياتى قط.

ظل يسألنى بينما كانت نظرات الآخر تربكنى بعد أن شعرت بأنها غاصت فى عمق كيانى. اضطربت روحى فحاولت الحصول على شهيق يجلب لصدرى بعض الهواء، لكنى اكتشفت أن أجهزتى كلها معطلة. ليس بى سوى عينين ترقبان هذين اللذين كشفا الغطاء عن حالى واقتحما سكونى وصمتى. الأسئلة تلاحقنى، وإجاباتى

يسهل بعضها ويتلعثم باقيها. لكنى أجيب بالصدق حتى لو لم تكن تلك هى إرادتى! وفجأة أشار الآخر بيده إلى أعلى، ولأول مرة أسمع صوته: ماذا تتوقعين أن نفعل بك الآن؟ تسقط كلماته على قلبى كرعد مجنون: أتردد قليلاً ثم أجيب: لا أدرى! يعود فيسألنى: أترغبين فى الذهاب إلى الجنة أم النار؟ تقع كلمة النار على أذنى وقع اللهب فيضطرب كيانى وأنا أجيب: وهل يرغب أحد فى الذهاب إلى النار؟ يجيبنى بصوت حاد: كثيرون.

– بالطبع أنا لست منهم. أقصد ممن يرغبون فى النار.

– هل تخافينها؟

– نعم. وهل يحبها أحد؟

يرد فى أسى: كثيرون.

– أنا لست منهم.

– هل ترين أنك تستحقين الجنة؟

– لا أدرى. وهل أستطيع أن أقيِّم ذلك؟

تمر لحظات صمت كأنها أعوام طويلة. يخترق سكونها هذا الواقف عن يسارى قائلاً:

– لقد أخطأت وقصرت فى أمور ما كان يجب أن تستهينى بها.

فيجيبه الذى عن يمينى:

– لكنها أيضاً فعلت كثيراً من الخير لا يصح أن تتجاهله.

يسأل الآخر:

– وماذا ترى؟

أرتجف. أنتفض خوفاً من هذا المصير المجهول الذى ينتظرنى.

تتزايد رعشة جسدى وتتملكنى برودة تجمد أطرافى. يسألنى فأجيب، فأنتفض، فأجيب، فأنتفض، فيسألنى.

أستيقظ من رجفتى فإذا بالطبيب يحاول إفاقتى من غيبوبتى التى رحت فيها نتيجة انخفاض فى ضغط الدم. أفقت فوجدته يدلك بأصابعه جبينى فى قسوة مفرطة.

عاد الصداع يدق رأسى فأدركت أننى ما زلت على قيد الحياة، فهل صار الألم دليلاً على الحياة؟ تمنحنى أمى بعضًا من البكاء وكثيرًا من الحنان والدعوات بينما امتدت يداها الناعمتان تجفف العرق الذى يتصبب من جبينى ووجهى. تردد أمى رقوة جدتى (١٤٠ سورة على جتتك منشورة.. تكفيك شر الحسد والنفس والعين والضرر.. والعين عنك يا ضنايا تفترق.. كما افترق الندى عن الورق).

أتعجب من حالتى، فها هو الموت كان قريبا منى. قريبًا جدًا. تُرى كيف رأيته وكيف شعرت به؟ كيف استقبله خالى، أول من وعيت على موته فى حياتى؟ ثم كيف استقبلته جدتى؟ وكيف رأته رقية ومحمد وأحلام و..؟

هل كان الموت شكلاً واحدًا رأيناه جميعًا أم أن شكله قد اختلف؟ هل كان وحشًا قاسيًا أم ملاكًا رحيمًا؟ كيف رأيت الموت فى غيبوبتى؟ كل ما أذكره أنه كان قاسيًا جدًا أخافنى فى وحدتى وغربتى.

تصاعدت حدة التظاهرات فى نقابتى الصحفيين والمحامين، النقابتان المتجاورتان فى المبنى المتشابهتان فى التظاهرات، وكنت

أشارك فى تظاهرة نقابتى ولم أكن أعرف أنك أنت أيضاً مشارك فى تظاهرة أخرى مجاورة لى!

كان صوتنا يهتف من وسط القاهرة يهز شوارعها وأبنيتها ويرجف جدران سجونها وحديد عرباتها المصفحة، ويلقى الرعب فى قلوب حاملى السلاح الميرى فيها. صوتنا أمام أسلحتهم وهراواتهم. صوتنا الذى كان ينادى بفك الحصار عن غزة ويطالب بفتح معبر رفح أمام أهل غزة حتى لا نكون شركاء العدو فى تجويع أهلنا وقتلهم ببطء. صوتنا الذى ملأ سماء القاهرة، لكنه لم يحرك ساكناً فيها، فقد كانت أعداد العسكر ورجال الشرطة يفوق أعداد المتظاهرين على الجانبين بعشرات الأضعاف. كنا محاصرين بهم كما هم محاصرون بنا أهل غزة. كنا نهتف بينما السيارات تسير بشكل طبيعى من أمامنا، ووجوه من فيها لا تتعدى حدود السؤال عما يحدث. تبدو ملامحهم كمن يسأل: المجانين دول بيزعقوا ليه؟. كنا نهتف بينما تمر من أمامنا الأتوبيسات السياحية وتلتقط الصور من داخلها لوجوهنا الغاضبة، لملامحنا الثائرة التى يجب ألا تتخطى حدود الحواجز الحديدية المحيطة بنا، ويجب ألا تتعدى الحد الفاصل بيننا وبين العسكر. كنا نهتف، وعلى حدود رفح كان مشهد آخر فى الليل.

شتاء قارس شديد البرودة والصقيع، وليلة فلسطينية حزينة وباكية. صوت الرعد يخترق الآذان كأنه صوت انفجار دموى جديد، وضوء البرق يخطف الأبصار وينهكها فى ليل ظلامه دامس وكئيب فتخفق له القلوب وترتعد أجساد الصغار فتضاء للحظة ظلمة السماء

والشوارع والبيوت. ووسط احتشاد المئات أطفالاً ونساء وشيوخًا عند الحدود المصرية الفلسطينية بمعبر رفح وقفت امرأة تهمس فى أذن صاحبتها: تعالى نعود لدارنا؛ ما فى أمل، الأمن المصرى ما هيتركنا نعبر. غرقونا بخراطيم الميه. ما عاد عندى أمل فى العبور.

– ما أقدر أعود؛ طفلى مريض وجائع، يبكى من شدة الألم ويصرخ من قرصة الجوع ويرتجف من الخوف والظلام. ما أقدر أعود قبل ما أحضر له علبة حليب وزجاجة دواء وبعض الوقود أدفئ جسده المرتعش.

– الأمن المصرى ما ها يتركنا نعبر. ها يطلقوا علينا الرصاص.

– كيف تقولين ها الحكى. المصريين إخواتنا وأحبابنا؛ إن وقف قدامنا العسكر أهلنا هناك ها يساعدونا. كيف يتركوننا نموت من الجوع؟ إحنا ما بدنا شىء إلا بعض الطعام والماء ونعود لديارنا. نريد فقط ما يبقينا أحياء. صغارنا بيموتوا، ومرضانا بيموتوا، والاحتلال ناقص يمنع عنا حتى الهوا لو قدر يمنعه ما كان انتظر.

على بُعد بضعة أمتار قليلة من السيدتين جلس شيخ عجوز يبكى، ترتعد أطرافه وجسده النحيل بفعل الصقيع ولسعة البرد وبلل ملابسه إثر خراطيم المياه التى قوبل بها عند محاولة العبور إلى الجانب المصرى. فقط جلس يبكى ويرتعد ولا قدرة له على الهتاف مع الآخرين المطالبين بفتح المعبر، فإعاقة جسده، وعكازه، وكبر سنه، وشيبة شعره، وتجاعيد وجهه، وحالته الصحية، و«الحزن اللى هادد حيله» منعه من الصراخ. ورغم هذا لم يجد بدًّا من الانتظار عند المعبر، سألته إحدى الفتيات المنتظرات. ما لك يا بوى؟ كيف تبكى

وتشمِّت فيك اليهود! انهض يا شيخ، أصبر والله ما نهون على المصريين؛ راح يفتحولنا المعبر. ما ها يتركونا هيك فى العراء نموت من البرد والجوع.

– يا بنتى ما بخاف من الموت ولا من برد ولا من جوع. أنا حزنان على ولدى؛ استشهد اليوم فى غارة اسرائيلية، ولما رحت المستشفى ما لقيت فيه مكان فى الثلاجة حتى تحفظ جثته لحين الدفن، ولما ذهبت للمقابر ما لقيت مكان لدفنه؛ المقابر امتلأت بجثث الشهدا وماعاد فيها مكان لولدى. رجعت البيت وجثمانه ما زال بين أمه واخواته. وين أرمى لحم ولدى بلا كفن ولا دفن! غزة ما عاد فيها أسمنت لأبنى قبراً وأستر جسد ولدى الشهيد. حتى القبور يا ناس ما عاد لشهدانا فيها مكان.

– إيه! الله الباقى يا شيخنا، والدوام لله. لكن ما كنت تعبت نفسك سيدى وكنت طلبت من أى حدا يحضر لك طلبك بدل سيرك كل هدى المسافة على الأقدام.

– والله بسير على الاقدام والأيادى كمان؛ ما يهمنى. المهم أستر جسد ولدى وما أنكسر ولا راسى تنذل.

وتحت جنح الظلام كان يدور حديث جانبى آخر بين شابين ملثمين:

– لن أرحل قبل أن يعبر الغزاويون الحدود.

– يا أخى كيف نعبر بعد ما حدث من الأمن؟ إيش بدك تسوى؟ هاتشتبك مع المصريين! مستحيل. نرحل ونموت من الجوع أكرم من إننا نقاتل المصريين.

– مين قال إننا ها نقاتل المصريين! إحنا نعدى نحضر حاجاتنا ونعود. أخي الصغير يتضور جوعًا وأمي مريضة بالسكرى والأنسولين نفد من غزة منذ أيام. إيش أسوى وهما بيموتوا قدام عينى؟ تقدر تقول؟

– نعبر بالرحمة فى قلب الناس. بالعدل وبحقوق الإنسان اللى بيتشدق بيها العالم ليل ونهار. راح نعبر نحضر طعامنا ودوانا. ما بدنا نترك ديارنا. كيف ما بيقولوا بدنا نعيش فى سُينا، نموت من المرض والجوع وما نترك ديارنا ولا أرضنا؟ والله ما بيكون ولا بسيل الدم، ولا بطلوع الروح.

دقائق قليلة مرت بعد هذا الحديث ثم انفجرت الحواجز وانفك الحصار، غابت الحدود بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية، والتقى الطرفان بالعناق والدموع بينما رفع فلسطينيو غزة العلم المصرى.

وفى رفح المصرية اكتظت المحلات التجارية ومحطات البنزين والطرقات بآلاف الفلسطينيين الباحثين عن الستر. ربما يكون الانفجار منتقداً لدى الكثيرين، ولكن هل ترك لمن يموتون خياراً آخر للحياة؟

انفجار دوى انفك معه حصار غزة، وأيضًا حصار مصر، فحلمت كما حلم الكثيرون غيرى بأن يُفجر هذا الدوى قنابل صمتنا. يميتها ليحيينا. حلمت كما حلم الكثيرون غيرى بأن تعود مصر قلب الأمة النابض بالحب والحياة بعد سنوات طوال غابت فيها مصر عن دائرة صنع القرار وعن قلوب الكثيرين، وإذا غابت مصر غابت الأمة، وإذا حضرت مصر حضرت الأمة. والأمة الآن لم تعد على مرمى العين.

كان صوتى وصوتك يصرخان. يهتفان: (ارفع ارفع راية النصر.. ارفع فى فلسطين وفى مصر. غزة الحرة ها تفضل حرة.. رغم ليالى العتمة المرة. لا للجبن ولا للخوف.. فى فلسطين بيموتوا ألوف).

كان صوتى وصوتك يصرخان معًا. يهتفان معًا. وكنت على بعد خطوات معدودة منى. لكننى لم أرك ولم ترنى. التقى صوتانا ولم يلتق وجهانا. غاب وجهك عنى فى الزحام، وتلاشت نبرة أصواتنا فى زخم الهتاف. كان لنا نفس الهدف، نفس الحماس والهتاف والخوف على الوطن ومن الوطن، لكننا لم تكن لنا نفس الحياة.

عدت إلى غرفتى مرهقة، منهكة، فقد فقدت بعضاً من صوتى ومن كرامتى وأنا أصرخ وأمامى المئات من العسكر يشهرون فى وجهى هراواتهم. أهتف بينما تضطرب نبضات قلبى ولا أشعر بأمان وأنا أمارس أبسط حق لى فى وطنى. حق الرفض أو الاحتجاج والسلام والأمان. حق إبداء الرأى بشكل سلمى على سلم نقابة رأى وإلى جوارى دار حق نهب حقها فى أن تفعل الـ«لا». فقط نصرخ أمام العسكر والهراوات والعربات المصفحات. نصرخ وأمامنا مئات البيادات. أصرخ بين أناس يبحثون مثلى عن كرامتنا وعن حق الإنسان فى الحياة.

ضغطت زر التلفاز لأتابع آخر تطورات الأحداث فى غزة على الفضائيات، وفوجئت بوجهك بين الناس، وسط المتظاهرين الذين جاوروا تظاهرتى.

وجهُ ثالث أعرفه تملأ ملامحه شاشة تلفازى فيقتحم علىّ وحدتى وغرفتى.

كنت على بُعد بضع خطوات منى ولم أر وجهك إلا عبر الأقمار الصناعية، ومن وراء شاشة زجاجية وخلال بث غير مباشر. هكذا كانت علاقتى بك. نبضُ حى. غير مباشر.

غارقة فى دمائها غزة. منتحبة وحزينة وباكية ومقهورة ومغتصبة ومقاومة. محرومة من النوم، من كسرة الخبز، من شربة ماء تخلو من رائحة العلقم ولون الدم. محرومة من ومضة ضوء لشمعة تزيل بعضاً من بقع الظلام الممتدة باتساع الأرض. محرومة غزة من قرص دواء يسكن آلام الجراح النازفة أو يمنع تلوث جرح مفتوح لم يجد الأطباء خيطًا لرتقه. محرومة من قطعة أرض تستوعب جثامين شهدائها.

إنها غزة المحاصرة بصواريخ الصهاينة بعد أن كتبوا عليها: (إهداء لأهل غزة. كل عام وأنتم فى المحرقة بمناسبة أعياد رأس السنة).

إنها غزة المحاصرة بطائرات الأباتشى والـ«إف ١٦» وقاذفات الدبابات ودانات المدافع. المحاصرة بالكلاب المسعورة التى لا تطفئ شهوتها النيران ولا الدماء ولا طوابير نعوش الشهداء ومحافل الموت الممتدة بلا نهاية. إنها النيران تشتعل وتستعر فى غزة وفى أهل غزة، لكنها النار التى لا تعرف طريقها للضمائر. وبينما نعيش الموت لحظة بلحظة، ونرقب ونسمع آخر لفظة نفس تخرج من جسد جريح يستشهد للتو على شاشات التلفاز، لا نسمع إلا صفير الصمت المطبق الذى لطخ وجه العالم بالعار.

بعد رحيل الطائرات الصهيونية عن المكان أسرع الناس لتفقد ما فعله القصف بجيرانهم، فسمعوا أصوات صراخ وأنين يأتى من تحت

الأنقاض، وبصعوبة بالغة تمكنوا -بمساعدة رجال الدفاع المدنى- من فتح ثغرة داخل جدار المنزل المجاور للمبنى المنهار، واستطاعوا استخراج رب أسرة وزوجته واثنين من أطفاله، وبسبب الظلام والتراب لم يتمكنوا من مشاهدة الصغيرات. حاول أحدهم إحضار بطارية إضاءة فوجد يداً صغيرة تستغيث من بين الأنقاض، وبعد معاناة استطاعوا استخراج الطفلة ثم سحب جثامين شقيقاتها الأخريات اللاتى كن نائمات تحت بطانية فى إحدى زوايا الغرفة. (البطانية تعود من جديد). هذا المشهد بثته الفضائيات، حيث بدت الطفلة التى لم يتعد عمرها الثمانية أعوام محشورة داخل الأنقاض لا يظهر منها سوى رأسها ويديها، وإلى جوارها رقدت جثة شقيقتها الصغرى.

«فى أرضنا حلم، وفى أوطاننا شعب يغنى الحب ينعم بالخيال. لا فرق فى أوطاننا بين الصليب أو الهلال، فالدين دين الله تحمله جوانحنا بكل الحب فينا والجلال. عشنا مع الأيام أحبابًا نداوى الجرح، نقتسم الرغيف المر، نسكر بالجمال حتى أتت جيوش الموت طافت فى الشوارع بين أطلال المساجد فوق أعناق الرجال. كانت دماء الأرض تصرخ فى الربوع وحولنا تبكى الظلال. لم يبق غير بكاء ثكلى أو عجوز أو صغير أطبق الفم الجريح على الرمال».

عادت كلمات فاروق جويدة تحتل نبضى وتملأ السمع والبصر؛ أراها وأعيشها صوتًا وصورة تجسدت فى عيون غزة وأطفالها. هكذا عاشوا على مر السنين. هكذا يعيشون الآن. وآه آه من جرح غزة ومن جراح أطفال غزة!

على أرض غزة، وفى محرقتها، تدرك كيف تتقلص الأحلام بالوطن الفسيح المحرر إلى مجرد أمنية بالحصول على مقعد متحرك أو طرف صناعى لبطل فقد ساقين أو ذراعين فى حرب تدور رحاها بين أحجار وكلاشينكوف وطائرات ودبابات وصواريخ. بطل يحلم بألا يظل أبد الدهر أسيراً ما بين جدار عازل ممتد بطول وعرض الوطن ومعابر مغلقة بقرار حصار غير آدمى، والإقامة الجبرية داخل حدود فراشه بفعل العجز.

على أرض غزة تختزل أمانى الأمة فى دعاء وقت أذان الفجر بعودة الكهرباء لجهاز تنفس اصطناعى موصول بقلب رضيع لم يفتح عينيه للحياة بعد، أو إلى جهاز غسيل كلوى لأم قتل الخوف قلوب صغارها لئلا تفارق الحياة. على أرض غزة تتحول الأحلام الكبرى إلى رغبة محمومة فى الحصول على قرص دواء ليس ملطخاً بدماء الأبرياء. بضع دقائق من الأمان يستطيع أن يغفو خلالها الصغار بعيداً عن أزيز الطائرات الحربية وأصوات القذائف الفسفورية والحارقة والارتجاجية، ويزداد الحلم بالحصول على قطرة ماء تخلو من رائحة الدخان ولون الدم أو مياه الصرف الصحى. هكذا تُختزل الأحلام بالوطن المحرر إلى مجرد أمنية بالحصول على مقعد متحرك أو شربة ماء.

ظل سؤال يتردد داخلى وداخل كل ضمير ما زال يشعر بالمرارة والخزى:

ما هذه الاسلحة التى استخدمت ضد أهل غزة؟ أسلحة تهتك ستر الجسد، تمزق الثياب وتكشف العورات لينفذ شىء ما عبر عدة

ثقوب ويتوارى فى الجسم ثم ينفجر بكل الحقد والغل الصهيونى ليذيب الأجهزة والأعضاء ويسممها فيقف الأطباء عاجزين عن فعل شيء لجرحى تقطعت أوصالهم وتآكلت عظامهم بشكل غريب فظلوا ينزفون ويتألمون حد الموت.

وأعجب لماذا يصمت المجتمع الدولى أمام عمليات القتل العمد والإبادة الجماعية التى اغتالت، ولا تزال، أكثر من مليون ونصف المليون فلسطينى داخل قطاع غزة وحدها ما بين قصف بالطائرات والبوارج البحرية وقاذفات الدبابات وقناصة العدو الصهيونى الذين يقفون خلف كل نافذة وباب، ويهبطون فوق كل سطح بيت فلسطينى، يقفون على قارعة كل شارع، وكل حارة؛ يستهدفون الرضع فى مهدهم، والأجنة فى بطون أمهاتهم، والأطفال فى مدارسهم، والنساء داخل بيوتهن، والمصلين داخل المساجد والكنائس، والمعزين فى سرادقات عزاء الشهداء! أين المجتمع الدولى وأين رقوة جدتى وبركتها؟

اللعنة على المجتمع الدولى، واللعنة على احتياجى إليك. أنت من تركتنى أبكى وحدى وسط هذا الزخم الزاخر بالأحزان والأوجاع ومواكب الشهداء.

أنت الذى لم تسعفنى حين أعجزنى سؤال «زياد»، وحين قهرنى ألمه وبكاؤه.

«زياد» طفل فلسطينى جاء إلى مصر للعلاج أثناء العدوان الهمجى على غزة. جاء بعدما ضجت المستشفيات الفلسطينية بجراح الأبرياء وجثامين الشهداء، فلم تستطع توفير شربة دواء ووخزة من

حقنة لعقار مسكن تهدئ أوجاع «زياد» الذى فقد أطرافه كما فقد كل أفراد عائلته.

سألنى الصغير: هو ربنا متجوز؟

فأجبته: لا.

عاد يسألنى: طيب هو عنده ولاد؟

فقلت: لا. ربنا لا متجوز ولا عنده ولاد.

غضب «زياد» وقال متذمرًا من إجاباتى: هو ربنا مش بيعمل اللى أنا عاوزه ليه؟

انزعجت من هذه الأسئلة قدر تَعَجُّبى منها، فنحن لم نعتد أن نتحدث فى مثل هذه الأمور، فأنا لا أذكر يومًا أننى سألت عن حياة الله الخاصة، وما إذا كان لـ«ربنا» حياة خاصة لا نعلم عنها شيئًا. أقصى ماكنا نسأله ونحن صغار: هو ربنا ساكن فين؟ والإجابة دايمًا كانت بتبقى (فى السما)، ولما كبرت شوية ابتديت أفهم إن ربنا ساكن جوانا وحوالينا. ساكن فى قلب وضمير كل واحد فينا. ساكن جنبى وجنبك وجنب الناس اللى بتحبه، وحتى جنب اللى بيرفضوا يؤمنوا بيه. ربنا ساكن فى كل حته مش بس فى السما. ربنا ساكن جوا الضمير الحي. وأنا صغيرة كان عندى أسئلة كثيرة لربنا وعن ربنا، لكن كنت بخاف أسألها. كنت بخاف بابا يزعّق ولا ماما تغضب ويقولولى حرام ما يصحش نتكلم كده ولا نسأل كده، وأصبح الخوف من الخوض فى مثل هذه الأسئلة جزءًا من العقيدة ومن المحرمات. لكن «زياد» كان ليه سبب لسؤاله غير الفضول اللى كان عندى وأنا فى مثل عمره.

- قول لى يا زياد.. بتسأل الأسئلة دى ليه؟ وإيه اللى يضايقك إن ربنا مش متجوز وما عندوش ولاد؟

- أصله لو كان متجوز وعنده عيال كنت هاطلب منه يخدنى أعيش معاه لأن أهلى كلهم استشهدوا: قتلوهم الصهاينة وبقيت لوحدى ومش عارف لما هارجع غزة هاعيش فين. بيتى دمروه اليهود. مش عارف هاعيش مع مين؟

«إيه رأيك فى البقع الحمرا..

يا ضمير العلم يا عزيزى! الدرس انتهى.. لموا الكراريس»

يمكن الدرس انتهى فى بحر البقر، لكنه بالتأكيد لسه ما انتهاش فى غزة ولا فى بغداد.

(توت.. تش.. تووت.. تش.. توووووت.. تش).

صوت قطار يملأ أذنى وصفير صمت يتناويان فى تناقض فج على سمعى وذاكرتى. فمن أين يأتى صوت القطار بينما أجلس مستكينة داخل غرفتى؟ من أين يأتى صوت القطار ومشهد الرحيل ولحظة الوداع وما زلت لاجئة فوق أريكتى؟

من أين يأتى صوت الصفير؟ ولماذا تختلط المعانى؟ من بعيد تُلوح فى الذاكرة بمشهد عرس وأغنيات فرح كلما سمعتها فى أى حفل تبكينى. فستان زفاف أبيض كلما رأيته فى أى مكان شعرت بوخز فى صدرى، فستان زفاف أبيض وعروس لُطخ وجهها بلون الطين تبكى وتصرخ فى ليلة عرس.

(توت.. تش.. تووت.. تش.. توووووت.. تش).

ربما يكون هذا صوت قطار العمر الذى يرحل بكل سنواتى

وصبرى، وربما بمستقبلى وأحلامى أيضًا، يرحل تاركًا لى خوفى وذكرياتى وذاكرتى.

يرحل حاملاً أيام طفولتى وصباى وشبابى وسنوات أنوثتى الجافة. يرحل قطار عمرى تاركًا لى خوفى من أن تظهر التجاعيد بوجهى، خوفى من شيخوخة أخرى تجتاح أنسجتى وتسكن قلبى.

تووت.. تش..

يرحل القطار تاركًا صداعًا قاسيًا يعاود من جديد دق رأسى..

مضى فصل الشتاء بطقسه الذى لم يعد لا باردًا ولا دافئًا، لا ممطرًا ولا عاصفًا ولا معتدلاً. طقسٌ غريب؛ لا يستطيع وصفه أحد رغم ما يُذاع فى النشرات الجوية. مضى فصل الشتاء، فأين أنت الآن؟ أتراك فى رحلة نيلية على ظهر مركب صغير فى فينيسيا تمارس الحب على ضوء الشموع؟ أم أنك الآن فى باريس تعيش حكاية جديدة تبدؤها من حيث نهاية غير سعيدة لامرأة مثلى؟ أم أنك اليوم فى مصر تعانى مثلى مرارة الطقس الغريب الذى لا معالم له، حيث لا ثلج ولا صقيع ولا ممطر ولا دافئ ولا صيفى ولا شتوى ولا خريفى ولا ربيعى! يبدو أن الحياة تخفى لنا أكثر مما تظهر تمامًا مثل ذاكرتى، فقد اكتشفت أننى على الرغم مما تذكرته من أحداث ومن حكايات، لم أتذكر سوى بعض من قشور لبعضٍ من أحداث طفت على سطح الذاكرة؛ تمنيت لو كان هناك نوع من البطاطين يصلح أن يخفيها مثلما أخفت البطاطين جثامين شهداء العبارة المصرية وشهداء الحرب على لبنان وشهداء غزة.

كانت الذكرى الثالثة لضحايا العبارة السلام ٩٨، والذين ندعوهم بـ«الشهداء»، شهداء الرزق.. شهداء البحر.. شهداء الفساد.. شهداء الإهمال.. شهداء الصراع الجديد بين أصحاب المال والنفوذ والغلابة المطحونين. فهم شهداء الوطن.

كانت الذكرى الثالثة لشهداء العبارة تحييها نقابة الصحفيين بإحدى قاعاتها. تجددت الجراح. تجددت الآلام. تجددت الأحزان التى لم تهدأ ولم تكف يومًا عن الأنين. تحدث الكثيرون، وفى أسى كنت أسمع -مثلى مثل غيرى- صرخات الأهل والأحباب المكلومين. تحدث الواقع المر، وكنت أرصد -مثلى مثل غيرى- ما يحدث فينا وما آل إليه حال المصريين، وكيف تدار الأمور حولنا، وكيف يباع دمنا ولحمنا بأبخس الأثمان. طُرحت كثير من الأسئلة عن أناس كانوا من ضحايا العبارة ظهروا على شاشات التلفاز وقت الحدث،

كانوا قد نجوا من الموت، وفجأة اختفت هذه الوجوه من الحياة تمامًا: لا أحد يعلم أين ذهبوا وكيف اختفوا ولماذا؟ وبدأت التفسيرات تتجه إلى أن معظم من اختفوا بعد ظهورهم فى التلفاز هم من طاقم العبارة، وعلى رأسهم ربان السفينة، وبرر اختفاؤهم لصالح مالك العبارة. يقول البعض إنه يؤويهم فى مكان ما فوق بقعة ما من أرض العالم لحين انتهاء القضية وصدور حكم نهائى فيها، لأن ظهورهم قد يحمل من الأدلة والاتهامات ما قد يدين مسؤولين كبارًا.. كبارًا جدًا. أحدهم هو مالك العبارة الذى لا نعرف كيف استطاع الهروب والخروج من مصر رغم فداحة الكارثة! ولماذا لم يمنع من السفر؟ وكيف سُمح له بمغادرة البلاد؟ ومن سمح بذلك وساعده عليه؟

أسئلة وعلامات استفهام لا نهاية لها تزيد من عمق الجرح ومن اتساعه فى القلوب وفى الصدور.

لكننا فى النهاية أمام حقيقة لا جدال فيها. أمام قتلى بلا قاتل معروف، أمام مجنى عليهم ولا يوجد جانٍ فى قفص الاتهام، أمام مصريين حملوا همومًا أثقلت ظهورهم فغرقوا فيها حتى الرمق الأخير.

ظلت قاعة المؤتمر تضج بكلمة من هنا وصرخة من هناك حتى صعد أحدهم إلى المنصة فصمتت القاعة تمامًا حين قال: اسمى طارق شرف الدين. أب لأربعة أبناء غرقوا فى حادث العبارة. أنا زوج لامرأة أحببتها كثيرًا. غرقت أيضًا فى حادث العبارة. أربعة أبناء وزوجة هم أسرتى وعائلتى وأهلى وأصحابى ودنيتى. فقدتهم

جميعًا فى لحظة واحدة. صمت للحظة ثم عاد يقول: كنت أتابع سفر أسرتى على العبارة المنكوبة السلام ٩٨، وكان آخر اتصال تليفونى مع محمد -ابنى الأكبر- وهو على العبارة عندما سألته:

- أخبارك إيه يا محمد؟

- إحنا بخير. الحمد لله. ما تقلقش يا بابا.

- عملتوا إيه. حجزت كابينة؟

- لأ. ما فيش كباين فاضية؛ كلها مليانة وحجزنا فى البولمان.

- إزاى تحجز فى البولمان! إنت معاك أمك واخواتك بنات؛ المفروض تاخذ كابينة بأى طريقة.

- خلاص يا بابا ما فيش مشكلة؛ إحنا فى البولمان، وقدامنا التليفزيون، وإحنا مرتاحين. ما تقلقش. والسفينة خلاص اتحركت والخط ها يقطع.

- طيب خد بالك من إخواتك وأمك؛ إوعى تنام وتسيبهم يا محمد.

- حاضر يا بابا. مع السلامة.

«مع السلامة. مع السلامة يا أغلى من رآت عينى. مع السلامة يا كل اللى فات واللى جاى فى حياتى، يا كل دنيتى وعمرى. مع السلامة يا كل ضحكه وبسمة ونكتة. مع السلامة يا مدرسة ودكتور وغدا وعشا وعلاج. مع السلامة يا أدب وتربية وأخلاق، يا نور الشمس وضى القمر. مع السلامة يا سند يا عكاز. مع السلامة يا لمة وشلة ورحلة، يا فيلم وكتاب ومسرحية، يا سهرة تليفزيونية، يا لب وسودانى وشوية فول وطعمية مع السلامة يا مش بالطحينة وأكلة رنجة وفسيخ يا رز وسلطة وشوية طبيخ، يا كيلو لبن وحتة جبنة

بيضا مع بطيخ. مع السلامة يا رمضان ودخلة العيد، يا عيدية ولبس جديد، مع السلامة يا جنينة ومويايل وملاهى فى يوم سعيد، يا ريحة حلوة وأكلة طعمة فى النادى قدام البسين. مع السلامة يا قلوب طيبة، يا حنينين، يا خناقة كروية ومين كسب مين، يا غنوة حلوة فى العربية، يا إحرام جميل لبسناه فى الحرمين، يا طواف وسعى ومنى وعرفات ومزدلفة ورجم الشيطان الرجيم. مع السلامة يا شواية وفرخة ولحمة وهبشة وخطفة وضحكة، يا بلطية مقلية وشوية بطاطس محمرين، يا بحر وشمسية لما كنا مصيفين. مع السلامة يا كتاب وكراسة وقلم وبراية ومين آخد ألوان مين. مع السلامة واغسل العربية وخلى بالك من البنزين، يا كارت شحن والرصيد خلص يا ترى كنت بتكلم مين! مع السلامة يا رنة ورسالة وكمان ميدالية المفاتيح، يا مصلية ويا سبحة للتسابيح، يا عباية وجيبة وبدلة، يا مريلة وشراب وشنطة، يا شجرة زرعتوها، أساميكم عليها اسه مكتوبين. مع السلامة يا لعبة وعجلة وعروسة وعربيتين، يا جهاز الولاد وكمان البنتين، يا شيكولاتة وشيبسى ومصروف المدرسة والكانتين. مع السلامة يا شوارع تعدوها تبصوا شمال ويمين، يا شيلة حلوة على السلم لما كنتم نايمين. مع السلامة يا شهادة المدرسة. مع السلامة يا ناجحين يا ضابط يا دكتورة يا مهندسين، يا حلم حلمتوه صاحيين. مع السلامة يا أتوبيس وتاكسى معاكم فلوس ولا مفلسين، مع السلامة يا شريط كاسيت وكمبيوتر وأسطوانة سى دى، يا أتارى وبلاى استيشن وچاكات بايظين. مع السلامة يا خناقة على ماتش أو فيلم وانتم سهرانين، يا صحة وتطعيم يحميكم من

المرض اللعين، يا سلسلة وغويشة دهب أو متقلدين، مع السلامة يا خضة يا رعشة لما كنتم عيانين. مع السلامة وانتم ماشيين يا فرحتى بيكم وانتم راجعين. مع السلامة ياابامبرز وكفولة وملاية اتغيرت لما كنتم فى البرد نايمين. يا طفولة وصبا وشباب، يا بنات حلوين. مع السلامة يا تيتا وعمو وخالو، يا دنيا انطفت كنتم فيها منورين. مغ السلامة يا كل العالم أجمعين، يا شجرة زرعتها بقت فروعها مقطعين. مع السلامة يا بنت فاروق، ويا ولاد شرف الدين».

شرف الدين كان زعلان عشان محمد ابنه مقدرش يحجز كابينة لأمه واخواته وفيهم بنات. كان خايف عليهم من الهوا فى ليل الشتا. كان خايف عليهم من نظرة الناس وهمًّا نايمين. كان خايف عليهم من شر البنى آدمين. كان خايف عليهم من نزلة برد ورعشة صقعة البحر فوق ضهر السفينة، وما جاش فى باله إنهم كلهم ها يموتوا متجمدين فى مية البحر المتلجة. ها يموتوا غرقانين فى البكا والاستغاثات وفى وحشة الليل وقسوة الموج والشتا. ماجاش فى باله إن لحمهم اللى كان عاوز يستره جوا كابينة السفينة ها يكون وجبة عشا وفطار وغدا لأسماك القرش السعرانة. يا عينى عليك يا شرف الدين! يا صاحب القلب الموجوع والحكاية المأساة إزاى قدرت تصبر! ومنين جالك الصبر يا غلبان! ده كل حياتك ضاعت وغرقت فى المية. ويا ريتك قدرت تاخد حقك وحق لحم ودم ولادك ومراتك اللى راح هدر، لكنك اتفاجئت يا غلبان إن ما فيش متهم واضح ومعروف! ومش عارف إنت وغيرك من المجروحين المكلومين تتهموا مين وتحاسبوا مين!

مين يسمع حكاية شرف الدين وما يحزنش؟ مين يوصل له حزن شرف الدين وما يندبحش؟ مين يعرف آلام شرف الدين وما يغلبوش البكا؟ وأنا.. غلبني البكا. وللمرة الألف حسيت بالعجز والقهر. فوجئت بأحد المذيعين يدعوني للحديث عبر إحدى القنوات الفضائية، فقلت له: أنا مش من أهالي الضحايا. «أنا صحفية». نظر إليَّ متعجبًا ومندهشًا وسأل في استنكار: صحفية!

كان يتعجب من كثرة بكائي وأنا لست صاحبة المأساة، وكأنني يجب أن أتعامل مثله مع الأمر بحياد لأنني صحفية. هي وجهة نظر تُحتَرم، لكنها لا مجال لها هنا.

في كارثة مثل هذه تمس روح وحياة وكرامة وعرض الوطن. فمن يملك أن يتمالك نفسه. ومن يستطيع ألا يبكي؟

شعرت وقتها بغربة قاسية. وحشة ومرارة وصرخة اختنقت في صدري عجزت عن النجاة مني حتى ولو عبر دموعي. شعرت بغربة في وطني، بغربتي في نقابتي، بغربتي فيك. لقد تجاهلني الوطن. تجاهل دموعي وحزني ووجودي. تجاهل حرمتي ولحمي ودمي الذي عبأ مياه البحر. تجاهل أطفالاً لم يمهلهم القدر فرصة أخيرة لوداع أبيهم. لعناق أخير لم يفلحوا فيه وهم هائمون على وجوههم في مياه البحر في ظلمة ليلة شتاء موحشة.

عاد الصداع يدق رأسي، وشعور مرير بالوحدة في قاعة تضج بمئات المطحونين المحزونين مثلي، ورعشة خوف تنتابنا جميعًا من قسوة غربة في وطن لم يعد لنا. لم يعد وطننا. وطن عشقناه، فقتلنا.

القاهرة. أكتوبر ١٩٨١ ..

كان عمرى نحو الستة أعوام حين فتحت باب الغرفة التى يجلس فيها أبى وفوجئت به يعصب رأسه برباط يحكمه جيداً وقد تورمت عيناه وأصابهما الاحمرار من شدة البكاء. كان وجه أبى مكفهراً حزيناً جداً، وقد كسا بشرته السمراء لون أحمر داكن ممزوج بغضب وألم دفين حاول إخفاءهما فى صدره فاختنق بالمزيد من البكاء.

أذهلنى وجه أبى الغارق فى حزنه الصامت. بكيت وأنا أسأله عن السبب فازداد بكاؤه ولم يجب.

كنا نجلس أمام شاشة التلفاز مثلنا مثل ملايين المصريين الذين كانوا يتابعون احتفالات يوم السادس من أكتوبر من كل عام منذ ١٩٧٣. يوم النصر. وفجأة حدث ارتباك شديد فى أثناء بث مراسم العرض العسكرى، حالة من الفوضى أعقبها انقطاع غريب للإرسال ثم آيات من الذكر الحكيم. قرآن متواصل وتكرار للآية الكريمة: (يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعى إلى ربك راضية مرضية.. فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) صدق الله العظيم.

كلما أعيدت تلاوة هذه الآية علا صوت بكاء أبى وانهمرت دموعه. لم يكن الأمر بحاجة لذكاء حتى أدرك أن شيئًا خطيراً قد حدث خاصة عندما تابعت بعد ذلك على الشاشة بث فيلم تلفزيونى لباقى المشاهد التى حدثت فى أثناء العرض العسكرى، وكان التليفزيون المصرى قد قطع الإرسال فى أثناء حدوثها. أشخاص ببدلات عسكرية يحملون أسلحة نارية ويهبطون من قلب عربات جيش كانت تشارك فى هذه الاحتفالية التى كنا نتابعها منذ دقائق بكل الفرحة

والسعادة والفخر والزهو، أشخاص أطلقوا نيرانهم باتجاه رجلٍ أسمر يرتدى بزة عسكرية. قالت أمى: استر يارب. دول قتلوا أنور السادات. قتلوا رئيس الجمهورية!

مشهد فرح أعقبه حزن. نفس مشهد العرس القديم المحفور فى حنايا الذاكرة. تذكرت هذا الحادث اليوم عندما رأيت موكبًا رسميًّا لمسؤول هام يمر بسيارته بمنطقة وسط البلد. لم أعرف من هو هذا المسؤول، ولكن ما أعرف هو أن شوارع وسط البلد أُغلقت تمامًا ومُنع عبور السيارات وحتى المشاة قبل مرور سيارة المسؤول. وبعدها بدقائق أيضًا وقفت -مثل بقية المواطنين- فوق الرصيف فى انتظار انتهاء الموكب، وخفق قلبى وشعرت بنبضه يتزايد بدرجة تسببت لى فى رعشة بجسدى واضطراب بدمى وتصلب بأطرافى حينما شاهدت حرس هذا المسؤول يصوبون فوهات بنادقهم وأسلحتهم من نوافذ السيارات التى يستقلونها. يصوبونها باتجاه المواطنين المنتظرين عبور الموكب. يشهرونها فى وجوههم وفى وجهى. نفس مشاعر الخوف التى انتابتنى يوم اغتيال السادات حين شاهدت على شاشة التلفاز أسلحة مماثلة يحملها أشخاص من المفترض أنهم حراس أيضًا، لكنهم قتلوا بها رئيس الجمهورية.

اليوم شعرت أن هذه الأسلحة المصوبة تجاهنا قد تغتال مواطنى الجمهورية أنفسهم.

قد يكون للدواعى الأمنية الحق فى هذا الفعل الذى لا أحتمله، إلا أن هذا الحق لم يمنعنى من الشعور بالخوف وعدم الأمان فى وطنى.

وددت لو أجد أحدًا يجيبنى. لو أن هذا المسؤول «العابر» الهام

ترك منصبه كيف سيكون حاله! وتذكرت كثيرين كانت لهم نفس الأهمية وهم فوق مقاعدهم وفي مناصبهم، وعندما تركوا المنصب ارتدوا «الجلاليب» وقعدوا في بيوتهم رغم أن منهم ناس كان ممكن يفيدوا البلد بخبراتهم وعلمهم، لكن ها أقول إيه! عند حكومتنا مثل شهير بيقول:

(آخر خدمة الغُز عَلقة)!

لا أدرى لماذا بكى أبى آنذاك كل هذا البكاء لموت السادات. أبى الذى عشق عبد الناصر ورأى مثل غيره أن السادات حاول محو ناصر من ذاكرة المصريين بتغيير أسماء شوارع أو مدارس، أو بأفعال تنسب باسمه مثل (معاش السادات) الذى خصص للأرامل وذوى الحاجة، أو بتغيير سياسات الدولة والتوجه نحو أمريكا صاحبة العداء المُعلن مع عبدالناصر.

بكى أبى لموت السادات. أبى الذى عشق عبد الناصر لكنه تحفظ على اعتقاله للإخوان. هؤلاء الإخوان الذين غضب لهم أبى هم الذين أحزنوه حين اغتالوا السادات. السادات الذى أبرم صلحًا مع العدو الصهيونى، وهو الصلح الذى رفضه أبى مثل الملايين غيره وارتأوا فيه هدرًا لدماء الشهداء الذين اغتالتهم يد الغدر الصهيونى على كل شبر من أرض مصر، ولم يشفع للسادات أنه كان سببًا فى حقن دماء المصريين، وهى الدعوات التى دعا لها حين وقَّع كامب ديفيد. دعوات بالسلام مع كيان لا يفهم معنى السلام. لم يشفع للسادات انتصاره فى أكتوبر ولا اتفاقيات تحرير سيناء. لم يغفر له المصريون صلحًا مع عدوهم اللدود. صلحًا رفضه أبى. إذن لماذا بكى رحيل

السادات؟ سؤال لم أعرف إجابة محددة له رغم مرور كل هذه السنوات!

أحب أبى جمال عبد الناصر، وحزن لاعتقال الاخوان المسلمين، ثم بكى لاغتيال أنور السادات.

ثلاثية غريبة لمشاعر تكاد تتناقض جميعها لو حاولنا تفسيرها بالمنطق أو الانتماءات السياسية، لكننى، ورغم هذا، أرى أنها مثل مشاعرى تجاهك. حب وخوف، انتماء وغربة وتفاصيل فرح ومراسم وجع.

بعد رحيلها بأيام وقفت أمام قبرها. جدار صغير صارم وبضعة سنتيمترات تفصل بيني وبين جسد أمي الذي يرقد داخل تلك البناية المتواضعة. تساءلت: هل يأكل الدود الآن جسد أمي ويعبث ويعربد في أنسجتها وخلاياها؟ هل تتلاشى الآن يداها الحانيتان رغم قسوة المرض عليهما؟ هل تذوب كفاها الرقيقتان اللتان طالما اشتممت رائحة طيبهما كلما مررتهما على وجهي وهي تباركني وتدعو لي: «ربنا يسترها معاكي دنيا وآخرة ويوفقك. ربنا يحبب فيك خلقه»؟

عطرٌ وطيبٌ ومسكٌ وعنبر وطيبةٌ وحنانٌ وأمان. كلها أشياء ربانية اجتمعت بين يديها الطاهرتين اللتين يلتهمهما التراب الآن. وعاودني السؤال: هل يأكل الدود الآن وجهها الباسم دائمًا والصبوح دائمًا رغم شراسة آلام المرض الذي اقتحمها منذ شبابها، ورغم تعذيبه المتواصل لها؟ هل تتلاشى ملامح أمي من فوق الأرض الآن؟

كدت أجن حين ارتسم هذا المشهد فى مخيلتى، بينما لا أملك لها إلا الدعاء: اللهم ارحم أمى. اللهم آنسها فى وحدتها وآنسها فى وحشتها وآنسها فى غربتها. اللهم انقلها من مواطن الدود وضيق اللحود إلى جنات الخلود. اللهم انظر إليها نظرة رضا، فإن من تنظر إليه نظرة رضا لا تعذبه أبدًا.

للموت رائحة أشتمها عن بعد، وتفاصيل تسبقه قبل قدومه تثير انقباضة فى القلب وضيقًا فى التنفس وإحساسًا بالهم يجثم على الصدر، إلا أنى هذه المرة خاننى حدسى واحساسى، فرغم محاصرة الموت لى من كل اتجاه لم أشعر به، لم أشتم رائحته، ولم تسر انقباضة فى قلبى، ولم يجثم الهمُّ على صدرى.

كان فجر الجمعة حين انصرف الطبيب الذى استدعيناه فى تلك الساعة المتأخرة وقد أوصى بضرورة إعادة أمى إلى المستشفى. إلى تلك الغرفة الباردة الخالية من كلمة حب أو ضمة دفء أو نظرة عطف. إلى هذه الأجهزة الموصولة بخراطيم قاسية تقتحم كل جزء من جسدها بدءًا من وجهها وحتى قدميها لتعربد داخل أوردتها المنهكة الرقيقة! قلت: هل من أمل؟ فأجاب: واحد فى المئة.

هل الواحد فى المئة يستدعى تجاهل طلبها فور إفاقتها من غيبوبتها الأولى بأن تعود إلى بيتها تستدفئ فى سريرها بين أحضان أبنائها؟

حين أفاقت فى المرة الأولى قالت لى: «احضنينى». ضممتها على عجل إلى صدرى للحظة واحدة قبل أن يأتينى صوت الممرضة القاسى: «من فضلك دى غرفة رعاية وممنوع الدخول». تركتها

مشتاقة لحضنى، لضمة حب فى صدرى، وخرجت أجلس على باب غرفتها وصوتها يتردد ملء سمعي: «عاوزة أروَّح عشان خاطرى. عاوزة اتدفًا فى سريرى».

وفى اليوم التالى خرجنا -بناء على طلبها- رغم سوء حالتها، وبعد يوم عاشته بيننا فى البيت راحت فى غيبوبة ثانية فنقلناها إلى المستشفى، وفور إفاقتها من غيبوبتها ألحت بإصرار غريب على العودة إلى البيت مرة أخرى، وللمرة الأولى أطلب من الأطباء أن تغادر أمى المستشفى وأنا التى كنت أصر فى كل المرات السابقة على أن تظل فيه حتى تتعافى. قلت لها: «إنت غالية أوى يا أمى. أغلى من الدنيا كلها وأغلى من نور عينى اجمدى عشان خاطرنا. أزمة وها تعدى زى كل مرة.

فبكت فى صمت.

كانت تدرك أنها النهاية، وتعلم أن هذه الآلام هى الأخيرة المصاحبة للرحيل، بينما كنت أرفض تصديق إحساسى بذلك، فقد كانت رغبتى فى أن تعود لنا، وحلمى بأن تتعافى يفوق كل ما هو علمى أو منطقى وعقلانى. كانت أجهزتها كلها قد ضعفت ووهن القلب، وكنت أعلم ذلك من الأطباء المعالجين لها، لكننى رفضت الاستسلام كعادة امرأة صارت متمردة حتى على ما هو مصيرى ومحتوم.

كانت بداية النهاية حين اشتد الألم وفاق القدرة على الاحتمال، وعلى الرغم من نصائح الأطباء بضرورة البقاء فى المستشفى، فإنها أصرت على ألا تحتجز فيه إلا بعد الاطمئنان على شقيقتى التى على

وشك أن تضع مولودها. تلك كانت أمي دائمًا. لا أهمية لما يخصها حتى وإن كانت ستدفع حياتها مقابل الاطمئنان على أحد أبنائها فى أقل وأبسط الأمور، كانت تعلم أنها بالنسبة إلينا كل الأهل والأحبة والأقارب والأصحاب والناس. بل كل الدنيا. كانت لنا وكنا لها.

قالت يوما: «أنتم شقيقاتى وأشقائى وعائلتى التى غابت عنى ولم أعد أعلم عنها شيئًا. أنتم الأهل الذين جحدوا فرحمتمونى، والذين جفوا فوصلتمونى، والذين خانوا فأمنتمونى. أنتم الأحباب الذين رحلوا عن دنياى فجئتم لتعوضونى وترحمونى من عذاب الفراق وغربة الزمان والمكان. أنتم الحنان الذى افتقدته بفعل الموت أو الجفاء أو الطمع. أنتم النور الذى أرى، والصوت الذى أسمع، والنبض الذى يسرى فى وريدى. كل الدنيا». كنا لها وكانت لنا.

ذهبنا إلى المستشفى فتبين إصابتها بفشل كلوى. فشل كبدى أدى إلى فشل كلوى، ثم من فشل إلى فشل، فالقلب أيضًا معتل أنهكه الوجع بينما أعانه الحب على الألم.

تفشل الكلى لأسباب قدرية، كما حدث لأمى أو بسبب الفساد والطمع والسرقة والخيانة للوطن وأبناء الوطن. مياه شرب ملوثة، وزراعات ولدت من رحم أسمدة صهيونية مسرطنة عبرت حدودنا الشرقية فى صفقات سرية مشبوهة، ومن خلال تجارة محرمة. وتلك هى النتيجة. أمهات تتألم وأبناء يتعذبون.

كانت آلام أمى المبرحة كفيلة بقتلها منذ زمن، إلا أن ارتباطها بنا نحن الأبناء كان سببًا فى أن تتحدى الألم وتتمسك بالحياة. هو التمرد الوحيد الذى حاولت أمى فعله. التمرد على الألم من أجلنا نحن فقط.

عندما قرر الأطباء إجراء غسيل كلوى لها كانت لدى مشكلة هى إبلاغها بذلك، فقد عانت بما فيه الكفاية ولم يعد جسدها قادراً على احتمال المزيد، أو هكذا كنت أظن. جلست أمام باب غرفتها بالمستشفى لساعات طويلة ما بين أسئلة محمومة للأطباء عن بديل آخر غير عملية الغسيل، فإن لم يكن منه بد فلنمنحها بعض الوقت لتستوعب حالتها بدلا من قسوة المفاجأة.

أعود إلى غرفتها فأجد عينيها الطيبتين وقد تعلقتا خارج النافذة المقابلة لسريرها، تتشبثان بأمل يحلق فى السماء ولا تطوله يداها، أمل يقترن بدعواتٍ ذليلةٍ بالشفاء، بملائكةٍ تحوم حولنا وقت الغروب تعلن عن نهاية النهار، وتحمل فوق أجنحتها دعوات المحرومين والضعفاء.

قلت لها بكلمات متعثرة وعبر حوار مرتجف يشفق عليها من الأوجاع: «عاوزة أقول لك على حاجة من غير ما تزعلى منى. الدكاترة بيقولوا إن.. إن فيه مادة فى الجسم زيادة شوية اسمها اليوريا، وفى الحالات دى بيضطروا يعملوا غسيل كلى مرتين تلاتة بالكتير».

صدقينى يا أمى مش أكتر من كدة.

كنت أكذب وكانت تعلم بذكائها الفطرى أنى أكذب عليها، وأن الأمر سيستمر للنهاية. قالت: «عاوزة أرجع البيت». حارت الكلمات فى فمى. كيف أخبرها بأنها لن تتمكن من العودة للبيت قبل إجراء عملية الغسيل الكلوى التى ترفضها بشدة دون أن تدرى خطورة هذا الرفض، لكنها كانت تدرى أن هذه هى بداية النهاية.

ساعات أخرى جلستها على باب غرفتها أستجدى الكلمات أن تسعفنى والصبر أن يلازمنى والدعوات أن تستجاب.

ما أحوجنى اليوم إليك! وما أبخلك! فكم نحن بحاجة للحب حينما تقسو الحياة ويشتد الألم. ما أحوجنى إليك وما أقساك أنت! ماذا لو استطعت أن ألقىَ إليك ببعض همى وشىء من وجعى؟ ماذا لو حملت عنى بعضًا من خوفى ومنحتنى قليلا من الأمان والسكينة والحب لتعيننى على الزمن؟

كم أنت قاس قسوة الزمن! وكم أنت موجع وجع مرض أمى!

ثلاثة أيام مضت فى محاولات إقناع أمى للتغلب على خوفها واتخاذ خطوة الغسيل التى كانت الأمل الوحيد للنجاة من سموم تنتشر فى جسدها الطاهر المتعب، بينما كانت ترى أن ما يحدث سيكون بلا فائدة غير المزيد من التعذيب لجسد أعيته الحيلة أمام جبروت المرض. ثلاثة أيام مضت انتهت ببكاء ذلك الطبيب الشاب أمام سريرها وهو يرى الخوف يكاد يهلك جسدها ويتركها تستسلم للموت خوفًا من وسيلة النجاة!

خائفة أمى حتى وهى على فراش الموت!

قلت لها: «أبوس إيدك يا أمى حاولى تتحملى عشان خاطرنا. الدكاترة بيقولوا دى عملية سهلة وها تخرجى منها بسرعة».

كانت أمى من هذا النوع من البشر الذين يخافون من مشارط الأطباء ونزف الدماء وغرف العمليات الجراحية، إلا أنها -من أجلنا نحن فقط- تحملت ما هو فوق آلام البشر، فقد اضطر الأطباء لإجراء عملية جراحية لها استمرت لأكثر من ثلاث ساعات دون إعطائها حقنة

مخدر. حقنة واحدة بوخزة واحدة كتلك التى تعطى لها فى اليوم الواحد مرات ومرات. حقنة واحدة كانت كفيلة بأن تغيبها عن الوعى لبضع ساعات لترحمها من آلام مبرحة. كثير من الغرز بالرقبة والصدر. كثير من الجروح لتركيب جهاز تستطيع عن طريقه استكمال رحلة الغسيل الكلوى. لم يكتف المرض بإيلامها ووجعها، بل إنه أيضًا حال دون الرأفة بها خلال تلك الساعات الثلاث. ممنوع عليها حقن التخدير بسبب طبيعة مرضها. ممنوعة عليها الرحمة إلا بصبر رزقها الرحمن به.

دخلنا إلى وحدة الغسيل الكلوى، كان المشهد قاسيًا وبالغ الصعوبة، حيث امتلأت الأسرة بالمرضى من مصابى الفشل الكلوى الذين داهمهم المرض. وعلى الرغم من مرارة آلامهم، فإننا لم نسأل أنفسنا يومًا: كيف تتم عملية الغسيل؟ وما المخاطر التى قد يتعرض لها المريض فى أثناء هذه العملية؟ شاهدت شبابًا من خيرة أبناء الوطن، ونساء من أطيب الأمهات، ورجالا من أفضل الرجال، وأطفالا من أرق البشر، جميعهم يعيشون بيننا ويسيرون وسطنا دون أن نشعر بآلامهم، لكنك حين تراهم يرقدون لساعات طويلة موصولة شرايينهم بخراطيم معبأة بدمائهم التى تسرى داخل ماكينة حديدية، وقتها فقط ستدرك معنى كلمة فشل كلوى.

كانت أمى من أكثر الناس الذين يتعرضون لمشكلات فى أثناء عملية الغسيل، ورغم ذلك هى من أكثرهم صبراً و إيمانًا بقضاء الله.

كانت أقصى أمنية لها أن تعيش عامًا واحداً بلا مرض، بلا ألم، بلا خوف على الأولاد والبنات. عامٌ واحد بلا وخزة من إبر تقتحم جسدها الهزيل فى اليوم الواحد مرات ومرات. عامٌ واحد تمنت أن

تعيشه بلا ألم. عام بخل به الدهر واستكثره عليها القدر، بينما ظلت تردد حتى النهاية. وعلى الرغم من سكرات الموت: الحمد للّه!

قلت: سأتحدى المرض، سأكافح معها من أجل البقاء ونقاوم حتى الرمق الأخير. سأعطيها الدواء عن طريق الحقن والمحاليل بدلاً من الطعام، فالغيبوبة تمنعها من تناول الدواء والطعام عن طريق الفم.

صليت فجر الجمعة ودعوت الله: «يا رب اشفها أو اعف عنها. هي كدة لا عايشة ولا ميتة يا رب. إذا كنت ها تشفيها فعجِّل بشفائها، وإن كنت ها تعفو عنها فامنحها فضل الرحيل في يوم الجمعة وهي متدفية في سريرها زي ما طلبت، مش في أوضة رعاية باردة ووسط خراطيم داخلة وخارجة في جسمها تعذبها حتى وهي في الغيبوبة، وصوت قاس للممرضة يحرم أمي من ضمة في صدري لحظة الوداع، وقدّرني يا رب أن أنفذ وصيتها. يا رب أكون جنبها لو أردت العفو عنها». ثم أخذتها في حضني وأنا أعلم أن جسدها أوشك على فقدان الحياة. ذراعان ترهلتا ولم تعودا تقويان على ضمي في صدرها، ووعي مفقود لم يعد يدرك أني أنام الآن في حضنها. لا أعرف ما إذا كانت تشعر بلمستي لها أم لا، وعلى الرغم من هذا بت ليلتي في حضنها أستدفئ بها، تذكرت صوتها حينما قالت لي: «احضنيني». كانت مشتاقة لحضني ولم أستطع ضمها لصدري وهي داخل غرفة الرعاية الباردة.

مضى نهار الجمعة خفيف الظل بلا انقباضة في القلب ولا ثقل في التنفس، فظننت أن اليوم سيمضي دون مفاجآت. وللمرة الأولى تطول جلسة أبي بجوارها، فقد تعود -منذ مرضها الأخير- أن

يتابعها عن بعد، فهو لا يستطيع تحمل غيابها عن الوعى وهى شريكة وحبيبة العمر. كان يطيل النظر إليها دون سبب، ربما ليتابع تنفسها المرتبك الذى أثرت عليه حالة الاستسقاء التى كانت تعانيها بسبب الكبد. قبيل أذان المغرب انصرف أبى استعداداً للصلاة، فجلست إلى جوارها أقرأ لها سورة الرحمن، فربما تسمعنى وتشعر بى على الرغم من غيبوبتها وصمتها.

غرفتها فى ذلك اليوم كانت تفوح منها رائحة مسك قوية دون أن نعطرها، كانت شديدة الإضاءة بلا مصابيح إضافية، فيها حالة غريبة من الهدوء الذى لم نعتده فى بيت أمى، بيت العيلة الذى يضم الكثير من الأبناء والأحفاد والأحباب من الأقارب والجيران، من أين جاء هذا الهدوء اليوم والبيت ملىء بالأبناء والأحفاد؟ غمرتنى حالة من السكينة، بينما يتزايد النور حولى، الكثير من السلام النفسى الذى افتقدته منذ أن تكالبت الأمراض فى الآونة الأخيرة على أمى.

وضعت المصحف إلى جوارى وشىء هادئ دعانى للنظر إلى وجهها فبدا وكأنها تنعم بنوم هادئ بلا ألم، وسألت نفسى: «من أين أتى ذلك النور المتدفق فوق ملامحها، وهى التى صبغها المرض خلال الأسابيع الأخيرة بزرقة احتلت أنسجتها وخلاياها، وهى التى لا تأكل منذ شهور وتحيا على المحاليل فقط، وهى التى أفقدها المرض كثيراً من جمالها فلم يعد الناس يتحاكون عن جمال وبياض وحلاوة بنت عبد الرحيم!».

هدأت أنفاس أمى وانتظمت عندما ملأ غرفتها صوت أذان المغرب من المسجد المجاور لمنزلنا، فوجئت بها وقد فتحت عينيها قليلا

فظننت أنها أفاقت من غيبوبتها، ثم غاب النفس. كان زفيراً هادئًا بلا شهيق. حاولت البحث عن نبض فى رقبتها، فى وريد يدها، لكننى لم أجد سوى صوت رقيق داخلى يبشرنى برحيل أمى لتلحق بركب الشهداء وتحظى بفضل الرحيل فى يوم الجمعة. سألت: هل تلك هى النهاية، نهاية رحلتنا معًا، وحكايتنا معًا، وحياتنا معًا؟ لكم قاسية هى لحظة الرحيل!

بنفس حالة السكينة التى ملأت قلبى وامتلأت بها الغرفة من حولى أغمضت عينيها الرقيقتين وأنا أردد: «أشهد ألا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. لا حول ولا قوة إلا باللّه». «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون». الحمد للّه. قلتها كثيراً جداً، فقد صعدت روحها إلى الفردوس الأعلى حيث لا ضيق ولا خوف و لا ضجر ولا ألم.

يقولون إن الله عز شأنه يسأل ملائكة الموت: «ماذا فعل عبدى حينما أخذتم فلذة كبده؟» فيقولون: «لقد حمد الله»، فيقول الرحمن: «ابنوا له قصراً فى الجنة وسموه الحمد». فهل تسكنين اليوم يا أمى فى القصر الذى طلبته من المولى لك عندما حمدته لما أخذك ملائكة الموت يا فلذة كبدى؟

صدقنى أنا لا أعرف كيف استطعت أن أحتمل هذا الرحيل الموجع الذى جرى بين يدى وأنا من كنت لا أحتمل وخزة لإصبع أمى من سن قلم الأنسولين. ألم أقل لك إنى أحتمل اليوم ما لم أكن أحتمل أقله من قبل؟

حانت لحظة الاستعداد للقاء الله. ماءٌ من زمزم جاء هدية من إحدى مُحبات أمى، مسكٌ ربانى يملأ غرفتها، كافور وعودان بخور

من عنبر جاءت بهما تلك المرأة التى تعدها للغُسل، ودموع تجمدت فى عينى -فى تلك اللحظة شديدة القسوة والألم- أملاً فى أن أحظى ببشرى الصابرين من أجل أمى التى لطالما أوصتنى وإخوتى بالتماسك عند الرحيل، كانت تشفق علينا من آلام الفراق ومن وجع البعاد وأحزان الموت، قالت: «خلُّوا بالكم من نفسكم وما تزعلوش؛ كلنا ها نموت. يعنى فى النهاية هانروح فين؟ أمى ماتت وحزنت عليها، لكن قويت نفسى بيكم عشان خاطركم، فعشان خاطرى تخلوا بالكم من نفسكم لو حصل لى حاجة. وسيبونى بقى عشان عاوزة اروَّح».

قلت لها: «يا ماما إنت فى البيت يا حبيبتى، تروَّحى فين! إنت روَّحتى خلاص»!

كنا قد خرجنا لتونا من المستشفى فى المرة الأخيرة، فقالت: «لأ.. سيبونى واخرجوا.. عاوزة اروَّح». فهمت أنها ترغب فى الذهاب لوطن آخر غير وطننا، وعمر آخر غير عمرنا، وزمان آخر غير زماننا، وبيت آخر غير بيتنا، إنها تريد الرحيل الأكبر والمكان الأبقى. كنا لها هذا الخيط الفاصل بين الحياة والموت والرابط الذى يربطها بدنيانا، وكان تعلقها بنا يفوق حد الوصف والتخيل والمنطق.

لقنتها شقيقتى الشهادة قبل أن ترحل إلى غيبوبتها، وكنت أشفق عليها وقتها من أن تدرك أن ما تعانيه هو سكرات الموت، لكنّ ذكاءها الفطرى كان يجعلها تدرك كل شىء حتى النهاية. غابت عن الوعى، ثم عن الحياة بين يدى وحدى، فى لحظة استثنائية بينى وبينها فقط. لحظة لا أعرف من أين جاءتنى القدرة على احتمالها، وكيف هيأنى

زوار أمى -القادمون من السماء- لاستقبالهم بهذا الهدوء وتلك السكينة! كنت أشعر بوجودهم، لكنى لم أر سوى نور زائد فى حجرة أمى، نورٌ بلا مصابيح إضافية.

عزاء أمى كان مهيبًا. تظاهرة حب لامرأة عرفت كيف تحب، وكيف تسامح، وكيف تمتلك قلوب من حولها بلا جدال. تظاهرة أكبر من تلك التظاهرات التى كنت أشارك فيها لفلسطين وللوطن، وما كنت أعرف يا أمى أنك امرأة بحجم دولة وبقيمة وطن، وفى كرم أمة. فهل هكذا تزول الأوطان وترحل الأمم؟ هل -هكذا- تختفى الدول من فوق خرائط الحياة؟ أى منطق وأى عقل يصدق هذا الرحيل الهادئ الذى بلا ثورات ولا انتفاضات؟ كنت أعلم أن شفاء أمى يتطلب معجزة ربانية كبرى، وقد ولى زمن المعجزات، فلم يعد بيننا نبى، ولن يولد فى زماننا رسول، لهذا دعوت الله فى فجرى هذا ألا يطيل عليها بالألم رحمةً بها، فهل تعجلت بدعائى؟ ربما كان نبيًا يعود، ربما عاد المسيح ابن مريم فى زماننا فيحنو عليها بلمسة من يده فتشفى بأمر الله. لماذا لم أطلب المسيح لكى يعود ربما شفيت أمى؟

سافر جثمان أمى إلى حيث ولدت، إلى قريتها. ودفنت حيث وارى الثرى أجساد أحبائها: أمها التى تركتها تعانى يتمًا جديدًا عانت منه على كبر، وشقيقها الذى اغتالته رصاصات الفرح والتهانى فى ليلة عرس. يومها قال أهل القرية إن ليلة وداع أمى كانت جميلة مثل ليلة عرسها، وإن جنازتها كانت مثل زفاف عروس بلا طلقات رصاص أو أعيرة نارية. عاشت أمى طيلة حياتها غريبة عن قريتها وأهلها وعندما ماتت دفنت غريبة عنا -نحن العشق الأوحد لها- مثلها مثل

رقية ابنة عمتى. كان محبو أمى كثيرين جداً. منهم من أعرفهم، ومنهم من لم أعرفهم، ومنهم من جاء لحضور الجنازة والمأتم محبة لسيرة أمى دون أن يكونوا قد التقوا بها من قبل. وقتها فقط أدركت معنى أن تحب وأن تسامح، كما أدركت أن تلك المرأة الذكية بالفطرة والطيبة بالوراثة والمتسامحة الباسمة المحبة دائمًا، لم تحصل منا – نحن الأبناء– على الحب والاهتمام الذى تستحقه. انشغلنا بأمورنا الشخصية وحياتنا الخاصة عن القرب من أغلى الأحباب، وانشغلت أنا بقصة حب عقيمة عن الحب الحقيقى الأصدق والأكبر فى حياتى. دعت لى أمى كثيراً فقالت: «ربنا يحبب فيك خلقه». فهل صدقت دعوتها؟ هل أحببتنى يومًا حقًا؟

اليوم أنظر حولى، جميع الناس معى جاءوا من بعيد ومن قريب إلا أنت. الغائب الحاضر دائمًا. لا أعرف إذا كنت قد علمت بموت أمى أم أنك تتجاهل حزنى كما كنت دوما تتجاهل حبى. ترى أين أنت الآن وماذا تفعل بالزمن؟

رحلت أمى ولم يتبق منها سوى بضع صور نتبادلها على الموبايل أو نضعها داخل ألبوم للذكريات. لم يتبق سوى قلوب جريحة يعذبها وجع الفراق. برحيل أمى كان يجب للشمس أن تغيب وللقمر أن يطفئ نوره والنجوم أن تغلق مصابيحها، على القلوب أن تحزن والعيون ألا تجف دموعها والحياة أن تتوقف عامًا للحداد. عام تمنت أمى أن تعيشه بلا ألم بلا وخزة إبر فى اليوم مرات ومرات.

أسأل ولا أعرف هل يصل إليها صوتى الآن؟ أنا يا أمى من كسرها وجع الرحيل. أنا يا أمى من قهرها الحلم المستحيل. أنا يا

أمى من أضناها السهر والشوق فى انتظار لقائك، ومن بخل عليها المنام برؤيا وحيدة لوجهك تطفئ بعض نيران الشوق إليك. أنا يا أمى من أفسد القدر عليها الحياة. أنا يا أمى من خارت قواها أمام قسوة المرض. أنا يا أمى ابنة العمر كما كان يحلو لك أن تنادينى وتقولى لى. أنا يا أمى من تواطأت مع القدر وطلبت إلى الله أن يعفو عنك فى ليلة فجرَ حزينة، فهل تغفرين لى! فقد كنت أدرك أن الزمان ليس زمن الأنبياء، ولا هو زمن المعجزات. فهل ترضين عنى يا أغلى الأحباب؟ هل تشعرين بشوقى إليك وغربتى ووحشتى دونك؟ إن كنت غاضبة منى لإصرارى على بقائك فى المستشفى وفى غرفة الرعاية التى كنت تكرهين فسامحينى، فقد كان لدى أمل فى الشفاء، وإن كنت قد غضبت لانشغالى عنك يومًا بأمورى الخاصة فقد أدركت الآن ذنبى ولن أكرره. فهل تصفحين؟ كنت دومًا تتحملين وتعانين من أجلى، ولم تخذلينني يومًا، فهل تتبرئين اليوم من جرحى ومن ألمى؟ إن كنت قد خذلتك مرة فسامحينى، وأقسم بأنى لن أكرر تلك الخطايا. أقسم بأنى سأقدم عمرى قربانًا لو تعودين. عشت طوال حياتك تعلميننى معنى التسامح والعفو ومعنى المحبة والإحسان. فهل تعفين اليوم؟ هل تسامحين؟ هل تحسنين إلىّ اليوم؟ يقول الإنجيل: «الرب يدافع عنكم وأنتم صامتون». فهل يدافع الرب اليوم عنى أمام أمى؟

دعينى أقبل قدميك الطاهرتين مرة وحيدة أخرى قبل الرحيل لعلى أطفئ بقبلتى بعضًا من شوقى واشتياقى ولوعتى دونك. دعينى أحظ بقبلةٍ أخيرةٍ ولمسةٍ أخيرةٍ ودعوةٍ أخيرة، فهل تغفرين؟

يقولون إن أمهاتنا لا ينسين ولو مر على رحيلهن عشرات السنين، فإن كان هذا هو الحال لكل الأمهات فكيف يكون الحال بالنسبة إليك وأنت من كنت وما زلت الدنيا ومن فيها؟

كل الأماكن التى ذهبنا إليها بالأمس عندما أدخلها اليوم أموت فيها، بينما تحيين أنت، تعيشين أنت، وكأن الموت أخذنى أنا منك وبقيت حيةً متوجةً بالحياة والحب كما هى دومًا أنت.

اللهم آنسنى فى غربتى وآنسنى فى وحدتى وآنسنى فى وحشتى. يا رب. لماذا يموت الأخيار صغارًا؟ لماذا ينتقى الموت أجمل ما فينا ومن فينا؟ كم هى قاسيةٌ تلك الحياة! وكم هو قاس ذلك الموت! وكم هو قاس أن أفكر فى أنى لن أرى أمى مرة أخرى ولن أستطيع تقبيل يديها وقدميها الطاهرتين! فلماذا يرحل كل أحبتى عنى حتى أمى؟ لا أدرى هل يمكن أن ألقاها ثانية حين تصعد روحى للسماء؟ فإن كان الموت هو الوسيلة الوحيدة للقائى بها، فأهلا أهلا بالموت حين يكون سبيلا للقاء الأحباب.

كنا لك الأشقاء والعائلة التى غابت. كنا الأهل الذين جحدوك فرحمناك كما قلت، والذين جفوك فوصلناك كما قلت، والذين خانوك فأمناك كما قلت. كنا الأحباب الذين رحلوا فجئنا إليك لنعوضك ونرحمك كما قلت. كنا لك النور الذى ترين، والصوت الذى تسمعين، والنبض الذى يسرى فى وريدك كما قلت. فمن لنا الآن برحيلك يا أمى؟ لم أعتدك قاسية أبدًا، فلماذا تقسين الآن وتستسلمين للرحيل تاركة خلفك قلوبًا ملتاعة مشتاقة إليك؟ فهل غضبت منى حين طلبت إلىَّ أن أضمك إلى صدرى فلم أمنحك سوى لحظة واحدة فى حضنى

-فى عجالة- قبل أن يأتينى صوت الممرضة القاسى وهى تقول: «من فضلك دى غرفة رعاية وممنوع الدخول». أقسم بأنى لو أعلم أنك ستغضبين منى إلى حد الرحيل لكنت تحديت قوانين غرفة الرعاية، وقوانين وزارة الصحة، وقوانين الحياة، وقوانين الموت. لكننى - صدقًا- لم أكن أعلم، فهل تعودين لأضمك ولو مرة واحدة فى حضنى؟ مرة أخيرة أشتاق لها الآن وأمس وغداً.

كم قاسية هى الحياة! وكم قاس هو الموت! وكم قاس هو قلبك كقسوة رحيل أمى، كقسوة قبر أمى!

اليوم أبدل كل ما هو ملون داخل خزانة ملابسى. يحط اللون الأسود فى كل زاوية منها. لون الحداد الذى اقتحم خزانة أمى فى شبابها حين ارتدته حزناً على شقيقها ثم على أمها ولم يمنحها القدر فرصة لاستبدال لون آخر به يوماً. فهل أستطيع يومًا استبدال لون الحداد أم أن مصيرى مثل حال أمى التى تركتنى أعانى يتمًا على كبر، يتمًا عانت منه قبلى؟ وما أقساه من يتم!

لقد نسيت أن أقول لك وأنا معك إن هناك أشياء قدر لها أن تموت قبل أن تولد. مثل الأجنة التى تتدلى من أحشاء أمهاتهم كما فى قانا. مثل أحلام الصغار التى دفنت تحت صخرة الدويقة. مثل الرحلة التى بدأت من سفاجا وماتت قبل الوصول إلى ضبا. مثل أمنية أمى بأن تحيا عامًا واحداً بلا مرض.. بلا ألم.. بلا خوف على الأولاد والبنات. عامًا واحداً بلا وخزة إبر فى اليوم الواحد مرات ومرات. مثل الدعوات المحمومة وقت الغروب بالشفاء تحملها الملائكة فوق أجنحتها من قلوب

المحرومين والضعفاء، ومثل قصص الحب المبتورة في قلوبنا، ومثل حكايتي معك.

بعد أربعين يومًا من موتها أعلن أبي عن رغبته في الزواج. وكأنَّ أمي ماتت اليوم من جديد. هل هكذا تموت الذكريات في ساعات؟ هل هكذا نسي أبي عمراً من الزمن يقدر بنحو الأربعين عامًا؟ هل بهذه السهولة يمكن للبشر أن يستخدموا نعمة النسيان قبل كر الأيام؟ هل بهذه البساطة نتجاوز الآلام والأوجاع وقسوة الأحداث؟ كيف استطاع أبي أن يتجاوز جراح فقدان أمي، تلك الأسطورة الاستثنائية في زمن يخلو من الأساطير والحكايات؟ كيف جرؤ قلبه على النظر إلى امرأة أخرى غير تلك التي باتت بين أحضانه قرابة الأربعين عامًا؟ كيف انهار في كل هذا البكاء وقت الوداع وكيف يبدأ اليوم من جديد بداية مختلفة تمامًا؟

عندما بكيت عجبًا وانكسارًا وشعورًا بأن اليوم قد ماتت فيه أمي من جديد، وأنا أكاد أجن قهرًا وكمدًا وعجبًا وحزنًا، سألتني صديقتي:

- «انت بتطلعك دقن؟». تعجبت من سؤالها لكني أجبت:

- «طبعًا لأ».

فردت:

- يبقى ما تقدريش تعرفي الرجالة بيفكروا إزاي.

لدى صديقتي ألف حق. كيف أستطيع أن أفهم ما يدور برأس أبي وما جعله ينسى شريكة العمر في أيام معدودة؟ كيف أستطيع أن أستوعب هذين المشهدين المتناقضين حد النهاية؟ ما بين انهياره حين أخبرته بموت أمي وموقفه بعد أيام قليلة من رحيلها يؤكد أنه

رجلٌ آخر غير أبى. رجلُ آخر غير هذا الرجل الذى تزوجته أمى ووهبت حياتها لخدمته والحفاظ عليه. رجل آخر أعجز عن استيعاب مشاعره وطريقة تفكيره. إنه رجلٌ آخر غير أبى الذى أحبته أمى، والذى تجاوزت عن سجنه لها ولحريتها مرةً بأمر الحب، ومرةً بحجة الغيرة، ومرةً بفعل التقاليد والعادات، ومرات بفعل الرجولة التى لا يراها هو وغيره سوى فى السيطرة على الطرف الأضعف متشبثين بقول أن الرجال قوّامون على النساء، ولأننا نحيا فى زمن ذكورى بحت، فقد تُرجمت القوامة هنا على أنها السيطرة والتحكم فى مصائر الطرف الأضعف، وهى الأنثى بطبيعة الحال التى بلا عضلات، وبلا صوت عال، وفى قبيلتى بلا أية حقوق أيضًا. تناسى أبى، وكذلك الرجال كافة، أن القوامة هى الاحتواء والعطاء والوفاء لنساء يكاد الرجال يمثلون لهن كل حياتهن فى مجتمع ما زالت فيه أصوات تنادى بعودة المرأة للبيت، وتضع حولها مئات الدوائر الحمراء. مجتمع ما زلت أبحث فيه عن نفسى، ووطن ما زلت أبحث فيه عن هوية.

وسألت: كيف استطاع أبى أن ينسى قصة حب وسنوات عشرة وزواج بينما لم أستطع نسيان أو تجاهل حكايتى معك، ولو لبعض الوقت، يرتاح فيه ذهنى عن التفكير فيك؟

عامان مرا على ذكرى رحيلى عنك. عامان من العشق المشوّه والحب المريض والجرح النافذ الذى يأبى أن يندمل. عامان من الصراع معك، والحياة معك، والهذيان معك. عامان من الذوبان فيك.

سألتنى يومًا: إيه رأيك يكون الاتنين شبه بعض ولا يكملوا بعض؟

فأجبتك: لو بيكملوا بعض ها يكونوا شبه بعض. أتراني أشبهك؟ لماذا عندما أنظر في مرآتي أرى ملامحك أنت؟ لماذا عندما أتحدث أسمع صوتك أنت؟ لماذا عندما أرغب في إبداء رأيي أقول رأيك أنت وأفكر بفكرك أنت؟

تعبت من السير فقررت الجلوس في أحد «كافيهات» وسط البلد للحصول على بعض الراحة وفنجان من القهوة بالحليب، جاءني صوت الجرسون يسألني ما أطلب فتذكرت «مبروك» جرسون قهوتك الذي لم أره، قلت: «نسكافيه». مشروبنا المفضل، كان صوت عبد الحليم يخرج خافتًا من المذياع: «ابقى افتكرني. حاول تفتكرني». أنصت باتجاه الصوت، ثم وقعت عيني على علم مصر منتصبًا فوق سطح بناية حكومية مقابلة للكافيه الذي أجلس فيه. علمٌ متهتكٌ وممزقٌ وباهتٌ. لم يتبق منه سوى رقعة من القماش الأسود وبعض الخيوط الحمراء، وقدسية ذابلة بفعل الإهمال والزمن والجهل والتجاهل.. و..

عاد صوت حليم يستحوذ على اهتمامي ويعيد تركيزي من فوق البناية الحكومية حيث العلم الممزق (على بالي على بالي يا حبيبي.. على بالي ليل ونهار.. وانت على بالي).

تنهدت تنهيدة طويلة ساخنة خرجت من صدري مثل آهة وجع شعرت بعدها ببعض الراحة الذابلة، بينما ما زال صوت حليم: (ومنين اجيب الصبر يا اهل الله يداوينا، واللي انكوى بالحب قبلينا يقول لينا.. سافر من غير وداع).

سألتني يومًا بالإنجليزية: هل أنت سعيدة؟

إذا كنت سعيدة فأنت محقة فى مشاعرك نحوى. وكررت السؤال لنفسى: هل أنا سعيدة؟ لا. لم أكن يوما سعيدة، بل كنت استدعى السعادة حتى أسعد بك. حتى أسعد بحياتى ومشاعرى وبوجودى. لكننى لم أكن يومًا فى حقيقتى سعيدة بصدق. سعيدة بالحب. سعيدة بالحياة. لكننى على يقين من أنى دومًا كنت أشعر بالخوف. الخوف من كل شىء حتى أنى خشيت من أن تكون حكايتى معك مجرد حبر على ورق. حب على ورق. حرب على ورق.

ووجدت أنك قد قرأت فىَّ ضعفى ولم تتعرف يومًا على قوتى. تلك القوة التى أحاول أن أستنهضها اليوم. تلك القوة التى خارت يومًا بين يديك. وكما تمردت بالأمس من أجلك أتمرد اليوم على مشاعرى لك.

خرجت من الكافيه لأتابع مسيرتى حيث لا هدف. عدت مرة أخرى إلى الضجيج، إلى زحام البشر، إلى رائحة عادم السيارات وأصوات أبواقها، إلى اختناق هواء الشهيق فى صدرى ونيران زفير يرتد منه، إلى صراع مع الحياة يفقدنى الإحساس بها. مضيت تاركةً خلفى ذكرياتى وذاكرتى التى تهرول ورائى وتلاحقنى بجراح تأبى أن تندمل ومخاوف تأبى أن تزول. رحلت تاركة فى عينيك نظرة لوم، وفى فمك لهجة عتاب، وسألت نفسى: هل كان قرارى بالانسحاب متسرعًا؟ هل كانت أمامى فرصة لأن تتغير من أجلى أو أن أتحمل من أجلك؟

تمضى الأيام ويعاودنى الحنين إليك، إلى لمسة يد وحيدة أخرى قبل الوداع، مثل وداع أخير رجوته فى حضن أمى، إلى قبلة أخيرة فوق الجبين تهدئ ثورة الأفكار وتؤنس وحشتى فى ليالى الغربة، تحيى موات الأمل

المدفون في مقبرة الذاكرة، إلى جوار جثمان أمي. قبلةٌ أخيرة فوق الجبين تسحق آلام الرأس وتمحو عذابات سنوات مضت وعذاب سنوات مقبلة، وتمنيت لو أن الأيام تعود فأبلغك بأني ما حلمت إلا بأن أعيشني. أعيش هذه المرأة السجينة داخلي. أن أحيا امرأةً كاملة لا نصف نصف، أن أكون أنا هي تلك التي تضحك وتبكي وتحلم وتعشق وتكره وتحب وتلهو وترسم وتحيا وتموت، لكن الخوف لم يمنحني الفرصة لذلك.

عدت أسأل نفسي: هل حقًّا انتهت القصة وأسدل الستار على بطليها؟ على حدث أسطوري في حياتي؟ هل انتهت القصة وخلت ساحة العرض من كلينا؟ هل عدت مرة أخرى إلى وحدتي، إلى زاوية انزوائي، إلى الضوء الخافت الذي لا أريده أن يشتد حتى لا يكشف عن تعاسة وجهي وتاريخي.

كأسطورة إغريقية جئت أنت، ثم رحلت لتصبح في عالمي كحدوتة سندبادية عراقية أسردها وأحكيها مع ظلام كل ليل وحتى بزوغ شمس الصباح مثل حكايات شهرزاد ألف ليلة وليلة. لقد استعمرت أوردتي وشراييني ونبضي وجعلت مشاعري مثل حضارة فرعونية مصرية تذهلني وتثير الأسئلة حول خفاياها التي تتخطى اللامعقول وحدود المنطق والنظريات العلمية وأسرار الكون.

فهل يصدق أحد أن هذا المارد الذي انطلق من مصباحه عملاقًا يتحدى الكون ويملأ الدنيا حياةً وبهجةً وفرحةً ونورًا وأملاً وألوان زهر وروائح عطور قد عاد مجدداً إلى محبسه، إلى مصباحه محكم الغلق لأعود أنا إلى قارورة الموت ورائحة القبور. إلى وحدتي. إلى زاويتي. فلماذا أعود دائمًا إلى نقطة البداية،

إلى حيث بدأت، إلى وحدتى وغربتى وخوفى، إلى لا شىء، إلى الصفر؟

يزداد الشارع أمامى طولا بلا نهاية ولا آخر، بينما يضيق اتساعه ويشتد زحامه. كتل متحركة من أجساد البشر لا أستطيع تحمل السير بينهم. لقد نسيت أن أخبرك بأنى أخاف من الزحام ومن قدوم الليل، فقد كان قدوم الليل دومًا يعنى العودة للبيت قبل غياب الشمس. العودة إلى حضن أمى وحماية أبى. العودة إلى تلك الجدران التى تحمى فتيات عائلتى من مخاطر الظلام وفضائح الشوارع وذئاب الطريق. هكذا كان يقول أبى، وكأن ذئاب الطريق لا تظهر إلا فى الليل فقط! مسكينٌ أبى، فقد عاش طيلة حياته يظن ذلك، «العودة قبل مغيب الشمس» كان هذا من أهم شروط أبى عندما سمح لى بممارسة العمل. شرط كان يتابعه ويشرف عليه بشكل يومى، وحينما تضاءلت متابعة أبى لى صرت أنا المتابع والرقيب والمعاقب لنفسى لو خالفت عادتى وتأخرت قليلاً عن موعد عودتى للبيت. العودة قبل قدوم الليل، قبل المغيب. موعد مثل موعد سندريلا لزامًا على كلينا الالتزام به. لم يتغير موعد سندريلا الحكايات على الرغم من مرور السنين والزمن، ولم يتغير موعدى على الرغم من تغير العادات وتفاصيل الحياة حولى. صار قدوم الليل مصدر خوف لى حتى فى غياب رقابة أبى.

شعرت باختناق وسط الزحام فوق الرصيف، فنزلت لأسير فى نهر الطريق. كان صوت عبد الحليم يملأ السمع والقلب، ينبعث من داخل أحد المحال التجارية فيجذبنى إليه. إنها «رسالة من تحت

الماء». لِمَ تأتينى الآن.. اليوم؟ وكأننى أبعث بها إليك: «لو كنت حبيبى ساعدنى كى أرحل عنك.. لو كنت طبيبى ساعدنى كى أشفى منك.. اشتقت إليك فعلمنى ألا أشتاق.. علمنى كيف أقص جذور هواك من الأعماق.. علمنى كيف تموت الدمعة فى الأحداق.. علمنى كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق.. يا من صورت لى الدنيا كقصيدة شعر.. وزرعت جراحك فى صدرى وأخذت الصبر.. إن كنت أعز عليك فخذ بيدى.. فأنا مفتون من رأسى حتى قدمى». إن كنت أعز عليك فخذ بيدى.. خذ بيدى.. خذ بيدى. لعلك هذه المرة تسمعنى وتشعر بى! كانت كلمات الأغنية تزلزلنى وتسعفنى ثم تعود لتبعثرنى وتلملمنى وتعيدنى إليك. يراودنى نفس السؤال: لماذا أنت اليوم.. وأمس وغداً؟ يعاودنى نفس الحنين إليك. نفس الأمنية المستحيلة للقائك، وأسأل: كيف أنت الآن؟ أتراك تذكرنى؟ وماذا تفعل اليوم بالزمن؟ هل تجلس فى المقهى تطلب من مبروك الجرسون الحلبة بالحليب أو النسكافيه؟ أم أنك تأكل التوست محشواً بالشيكولاتة؟ هل تذكرنى؟ أى امرأة اليوم تصاحب؟ شقراء أم سمراء؟ عربية أم غربية؟ وكيف كنت -ذات يوم- لى ولها؟ وهل يجوز أن تكون لنا قبلتان للصلاة؟ الصلاة.. ترى أى صلاة تلك التى كنت تؤدى اليوم؟ صلاة القلب أم صلاة الجسد؟ أم صلاة تستغفر بها عن خطاياك التى بلا هدف؟

أيها المعبد المسحور المغطى بالطلاسم والمرصع بقلوب الحسناوات والعذارى، من منهن الآن تستعد لكى تقول: هأنا قد هئت لك؟ من أتعسها الحظ بالسعادة فى هواك؟ ومن أحرقها الشوق

بنيران اقترابها منك؟ أنت الرجل الذى أحببت ولم تكن يومًا على نفس ديانتى، فلكل منا طريقة فى العبادة والصلاة، ولكل منا طريقة فى الحب وفى الحياة.

أرهقنى طول السير وزحام البشر الذى امتد حتى نهر الطريق. يبدو أن كثيرين ممن حولى هاربون مثلى من زحام الأجساد فوق الرصيف. فهل يحملون نفس الخوف من الزحام؟

أسرنى صوت حليم فلم أستطع السير حتى تنتهى أغنيته، وقررت أن أنتظر أمام أحد المحلات القريبة من صوت الكاسيت. كان محلاً لبيع اللوحات الفنية. وجدت لوحة كبيرة معروضة للبيع موقعة بحروف أولى كتبت باللغة الإنجليزية باسم فنان مجهول. لوحة رسمت عليها دوامتان للمياه تصبان فى بئرين منفصلين عميقين متشابهين. أطلت النظر إليهما وكأننى أبحر وأغوص فى مياههما. وتساءلت: لماذا اختار الرسام أن يرسم بئرين بدلا من بئر؟ ودوامتين وعمقين بدلاً من عمق واحد؟ وكيف استطاع أن يستحوذ على البصر داخل رقعتى الظلام لهاتين الدوامتين اللتين تبدوان بلا آخر أو نهاية؟ وكيف انشغل بهما البصر عن باقى تفاصيل اللوحة مثل قمر مكتمل، وسماء بلا نجوم، وظلال وألوان؟ محصلة رؤيتى لتلك اللوحة الآن ولهاتين الدوامتين هى محصلة رؤيتى لنفسى. دوامتان كل منهما كعمرى الذى رحل وعمرى الذى أنتظر. وأنا أقف تائهة وغريبة ووحيدة دائمًا بين العمرين وكأنى أبحث فى هذا التيه عن عمر ثالث أصبو إليه ولا يجىء. بئرين كعمر رحل وعمر قد لا يجىء.

«حظى حلو قوى إنى عرفتك». جاءنى صوتك فى درب التيه الذى

أقف عليه بين الدوامتين. عبارة اجترتها الذاكرة مرة أخرى. ترى كم مرة نطقتها؟ ولكم امرأة غيرى قلتها بنفس الصدق وذات الإحساس؟ يوم سمعتها أذابتنى، وأصمت سمعى، وأعجزت لسانى عن أى كلمات أخرى قد أسمعها أو أنطق بها وكأننى رغبت لتلك العبارة أن تبقى هى الوحيدة التى تملأ جميع حواسى آنذاك.

هى نفسها الكلمات التى أستعيدها اليوم بمزيد من الوجع والمرارة والأسى. أود أن أقول لك: «الحظ الحلو مش معناه إننا نعرف الناس، الحظ الحلو إننا نعرف إزاى نحافظ عليهم ونخليهم دايماً فى حياتنا حتى لو ابتعدنا عنهم نقدر نخلى بيننا ذكرى حلوة لكلمة حلوة وأيام جميلة ومشاعر صادقة».

وددت أن أسألك: ترى ما حال حظك الآن؟ وهل أصابه السوء بعد فقدانى أم ما زال يحلو بغيرى؟ لقد التقينا فى غربة خارج الوطن، وافترقنا فى غربة أخرى داخله.

لا أدرى لماذا أنا غاضبة؟ ولماذا أغضب؟ ولم يعد هناك ما يغضب؟ ألم أغضب بما يكفى طوال سنوات عمرى التى لم أعرف فيها سوى ما يُغضب؟ فهل هناك شىء تبقى لى لم أغضب له من قبل؟ لماذا أغضب وأنا من بدَّلت بنفسى شخصاً آخر غير ذلك الشخص الذى سكننى بطول عمرى؟ لِمَ أغضب وقد قررت مسبقًا -دون مقاومة منى- أن أحتمل معك ما لم أحتمل أقله أبداً من قبل؟ لماذا أغضب وقد أصبحت أنا نقيضى الذى تبرأت منه من قبل. كيان آخر غير ذلك الذى حاربت لئلا أكونه فصرت أسأل: أين أنا من هذين الكيانين اللذين يسكناننى؟ من أنا؟ وماذا فعلت بى؟ وماذا حدث لى؟

لماذا أغضب من مشاعر خوفى وأنا من اخترت -بملء إرادتي- أن يكون الخوف هو طريقى للأمان، وأن يكون العشق هو طريقى للموت، وأن يكون الموت هو طريقي للحياة. وهل لغضبى الآن معنى وأنا من كنت أقنع نفسى دومًا بأن ليس كل الخوف جبن، وليس كل الخوف سيئ وسلبى، وأن هناك خوفًا صحيًّا وإيجابيًّا، خوفًا للستر، وخوفًا للتسامح، وخوفًا لتجنب العذاب والألم. موروث من الخوف ورثته عن جدةٍ وعن أم. موروث من الغضب الداخلي الذى يخشى أن يعلن عن وجوده. موروث من الضعف الأنثوى لنساء عائلتى. موروث من رد الفعل السلبى أمام انتهاكات صارخة لمشاعرى واستباحات لأحلامى وقتل عمد لسنوات طفولتى وصباى وشبابى.

تعاودنى الأسئلة التى لا نهاية لها: كيف منحتك صكوك امتلاكى؟ كيف صنعتك من حكمتى؟ وكيف صنعتنى من جنونك؟ كيف وافقت أن أستبدل بحريتى أسرى في معتقلات حبك وسجون هواك؟ كيف تحولت أنا المتمردة الثائرة الغاضبة لكرامتى وكرامة أنثى، إلى امرأة مستكينة تستبيح أنت كبرياءها صباح مساء؟ امرأة صاحبة ثورات مكبوتة وخيال خصب يلاحقك فى كل زمان ومكان؟ كيف آمنت لقلب تعود على الغربة والسفر، قلب تعود على الرحيل؟ كيف آمن لرجل عشقه الترحال والسفر بين البلاد والنساء؟ إنه عشقى لك. إنه العشق الذى يمنحنا مفاتيح الرضا ولو لم نكن بما لا نرتضيه أو نرضاه. إنه العشق الذى يبدلنا ويحرقنا وينثرنا ويبعثرنا ويطرحنا بقايا فوق أرصفة الطرقات أو شظايا حرائق تتطاير فى الهواء. إنه العشق الذى يأتينا قبل أو بعد فوات الأوان، لكنه أبدًا لا يأتى فى حينه..

(هل أنتِ سعيدة).

سؤالَ ذو إجابة مرة.

فكرت في أن أستقل سيارة أجرة، لكننى لا أعرف بما أجيب السائق لو سألنى «إلى أين؟»، فأنا لا أعرف إلى أين أريد الذهاب، فقررت أن أستقل المترو؛ ربما التواجد وسط الناس يقلل من تركيزى ومن التفكير فيك وفى رحيل أمى التى اشتد شوقى وافتقادى لها. ربما أجد مقعداً أستريح فوقه لحظة أو اثنتين.

«تصدق.. طالبين دمغة للمدرسة بتاعة الواد بخمسة وسبعين جنيه؟».. قالها الرجل البدين لرجل آخر يجلس فوق المقعد المقابل له فى المترو. لا أحد يرغب فى أن يبارح مكانه لامرأةٍ منهكة، ولا حتى لأخرى تقف إلى جوارى تحمل فى أحشائها جنيناً يثقل حملها، ولا لثالثةٍ ربما يتعدى عمرها مرة ونصف مرة عمر أحد الشباب الكثيرين الجالسين فوق تلك المقاعد. لم يعد أحد يهتم بتلك الأخلاقيات التى أصبحت بالية وعفا عليها الزمن!

– ليه كل ده! هو الواد ابنك فى سنة كام؟

– قال عشان يقبلوا الورق بتاعه.. لولا كده لولا ما يقبلوه فى المدرسة. ده لسه يا عم فى الإعدادية.. أمال لما يدخل الجامعة ها يطلبوا كام!

– جامعة إيه؟ وانت فاكر إن الزمن ده، وبالطريقة دى، ها يخلونا نقدر ندخّل ولادنا جامعات؟ خلاص يابا دول لغوا مجانية التعليم وما عادش فيه حاجة ببلاش، واللى غاوى تعليم وعاوز يعلم عياله لازم يدفع. زى قبل ثورة يوليو بالضبط. رجعت تانى حكاية النفوذ ورؤوس الأموال والمحسوبية. تصدق! حتى المصانع

اللى اتبنت أيام عبد الناصر هدوها وبنوا مكانها عمارات، وشركات القطاع العام -أديك شايف- كل يوم والتانى شركة مخروبة ومنهوبة ومتباعة بحجة إنها مفلسة. أى والله بص كده على منطقة شبرا الخيمة؛ كانت أكبر مدينة صناعية بتصنع نسيج وتصدره للعالم كله، دلوقتى خلاص بقت أكبر مدينة بتصدر تلوث وبلطجية ومصايب سودة. ولا مصانع حلوان والمحلة عمالهم كل يوم والتانى مرميين على الرصيف بيدوروا على حقوقهم وقوت ولادهم.

- والله عندك حق.. وكله كوم وحكاية أنفلونزا الخنازير دى كوم تانى. صدقنى بيضحكوا على الناس عشان يلموا فلوس وخلاص. شوية بحجة تطعيمات وشوية بحجة إنهم بيشتروا مطهرات وينضفوا المدارس. ولاد الكلب دول.. مدارس إيه اللى عاوزين ينضفوها! والمدارس ما فيهاش ميَّه، والمجارى طافحة على أبواب الفصول، والزبالة حواليها من كل ناحية، ده غير سبوبة التاميفلو. قال إيه هايشتروه بملايين الجنيهات عشان يجربوه على المصريين.. ويا عالم الأضرار الجانبية بتاعته ها تكون إيه!

قال يعنى الحكاية ناقصة أسمع هموم زيادة. أروح فين وأهرب من المشاكل دى إزاى! خلاص دماغى ها تنفجر. أسرعت فى النزول من المترو قبل سماع المزيد من المشكلات وحكايات أوجاع المصريين التى لا تنتهى. صعدت درجات السلم بصعوبة، فقد كان السلم الكهربائى معطلا. خرجت من المحطة إلى سطح الأرض. زحام آخر، وتفاصيل أخرى تمتزج بملامح البشر.

مشيت كثيراً أتجول بلا هدف. أكتب بلا هدف. أحلم بلا هدف، ثم اكتشفت أنى بعد كل هذه السنوات أحيا بلا هدف. لا أدرى كيف يتحول هدف إنسان إلى أن يتجول بلا هدف. تلك هى أبلغ أمنياتى اليوم.

فى دوامة حزنى وجدتنى متلبسة بابتسامة كادت تضل طريقها إلى شفتى حين أطل على وجهك من حنايا الذاكرة. حينما تذكرت عينيك اللتين عادتا تذكراننى بأنك أنت سرى الأكبر والأوحد والأجمل والأبقى. ضبطتنى متلبسة بابتسامتى حينما عاودنى وجهك، حينما أدركت أنى ما زلت بنفس حنينى إليك وأكثر، بنفس اشتياقى إليك وأكثر، بنفس اللهفة لكلمة أحبك تقولها بكل الصدق، وأحتاجك. أقولها بكل الحب. كلمتان تلخصان الحياة والأحلام والأمنيات. ما زالت بيننا أحلام لم نحلمها بعد. ما زالت بيننا حكايات لم نسردها بعد. وقصائد عشق لم نقرأها بعد. وأسرار لم نبح بها بعد. ما زالت داخلنا مشاعر لم نحيها بعد. فماذا لو التقينا اليوم؟ أعود فأقول إن الأشياء الثمينة فى عمرنا قد تفقد قيمتها ومعناها إذا ما جاءت بعد الأوان، مثل حضن لأمى بعدما أصابتها الغيبوبة فلم تقو على ضمى بذراعيها المترهلتين، ولم تشعر بضمة دفء فى صدرى وهى تائهة فى غيبوبتها. نحن لا نصلح لبعضنا اليوم، فهناك خطايا لا يمكن لها أن تغتفر، وجراح لا يمكن لها أن تلتئم، مثل هجر وخيانات بلا مبرر، ومثل خطاياى مع أمى، والتى لن تغفرها لى، ولن تصفح عنها لأنها لن تعود.

تقرير جولد ستون.. حملات تشويه وتخوين.. عملاء وفدائيون.. صراع متأجج بين الفصائل الفلسطينية.. تناحر وثأر بين فتح وحماس.. مع التطبيع.. ضد التطبيع.. مثقفون ومرتزقة.. نبلاء وسفهاء.. أنفلونزا الخنازير.. حوادث الطرق.. مئات القتلى فى انفجارات سيارات مفخخة بالعراق.. غلاء فاحش وارتفاع فى أسعار السلع التموينية فى مصر.. القتل داخل أقسام الشرطة.. محمد ابن قرية شها وخالد سعيد ابن الاسكندرية وعماد الكبير وغيرهم.. والأزمة الاقتصادية العالمية.. انهيار البورصة المصرية.. تهديد صهيونى بضرب إيران وسوريا.. مصر وقطر.. مصر والسعودية.. مصر وإيران.. انتصارات حزب الله فى لبنان.. معارك طاحنة فى أفغانستان.. القوات الإسرائيلية تجتاح العديد من القرى الفلسطينية وتعتقل العشرات من المواطنين.. استشهاد مزارع فلسطينى على يد المستوطنين اليهود.. إعادة إغلاق معبر رفح.. انفجار أمام المعبد اليهودى بوسط القاهرة.. هشام طلعت مصطفى وسوزان تميم.. تزاوج السلطة والمال.. مباريات مصر والجزائر.. ضرب الجزائريين للمصريين فى السودان.. الكورة والسياسة.. رحيل رقية.. أحزان أم محمد.. شقة أحلام.. قرية أمى.. عزاء أمى..

توت.. تش.. توووت.. تش.

ذاكرة مكدسة بالتفاصيل والأحداث والذكريات. ذاكرة ثلاثية ذات خلايا مهترئة كاد يصيبها الجنون أو الشلل أو الزهايمر على أفضل تقدير. ذاكرة أضناها الزمن وأعيتها الحياة.

عاد الشعور إلىَّ بثقل جسدى، فظللت أنقل قدمىّ بصعوبة فوق الأرصفة المتعرجة المزدحمة بالبضائع التى بلا هوية. بلا اسم. بلا بلد للمنشأ. ووسط الضجيج وأبواق وعوادم السيارات وزحام كتل أجساد البشر. تلاشيت.

تمت

القاهرة فى ٢٠١٠

إصدارات
سلسلة حروف

13- امـرأة فى المنـام .... محـمود أبو عيشة
14- بنـــات قبْلــى .... ماهرمهران
15- خذ كتابى بيمينك .... سوزان عبد العال
16- لــــوزة .... عبد الستار حتيتة
17- بِما يُناسِبُ حالتَك .... محمد سعد شحاته
18- يوم «الدُخْلـة» .... ياسر سليم
19- ألعـــاب صـغيــرة .... أسامة الحداد
20- مسـافات مـقـطو عـة .... أشرف الشافعى
21- قلبي وإرثُ الأمتعة .... جيهان بركات
22- عـــادي جـــداً .... مصطفى جوهر
23- كـــان هـنـــا .... مجدى عطية
24- مكانٌ جيدٌ لسلحفاةٍ محنطةٍ .... ممدوح رزق
25- بسكوتة على شعب جعان .... حاتم مرعى
26- مسافـــات الظـل .... حمدى على الدين
27- ممكن تدينى أجازه من الذكرى .... سيدة فاروق
28- إسكندرية يـوم واحـد .... طارق هاشم

الرواية تعتمد على اللغة الشاعرية، كما تميل في
بعض مقاطعها إلى الكتابة الرومانسية، وتتكئ الكاتبة
فيها على استخدام الراوي المشارك في الأحداث، كما
إنها من خلال تراكيب العمل تقوم بصياغة الصور
المجازية التي تستخدمها بطريقتها الخاصة، كما
تعتمد على أساليب الإنشاء المتناثرة لتحرك الذهن
داخل هذا العالم الرومانسي بلغته، كما يتضح للقارئ
أن الرواية تعبر عن النسوية من خلال الطرح الذي
يتحدث عن أنثى وتدور حول هذه المرأة /الراوي
ويتم التبئير حولها وعن العالم المحيط بها، وتكشف
النقاب عن الخطوط الحمراء التي تحاط بالأنثى في
عالمنا الشرقي وكم المحاذير التي تسبح فيها الأنثى
الشرقية رغما عنها لتحاول أن تهبط بها للقاع وهي
الثائرة على كل ظلم عام لكنها ورثت الخوف ميراث
الأمهات عن الجدات، وهذا الخوف العميق الذي توحي
به الرواية جاء متناسقا ومعبرا مع عنوان الرواية،
ولم يكن الخوف فقط بل القهر الاجتماعي أيضا



تصميم الغلاف




الثمن : جنيهان

www.gocp.gov.eg